مجموعة نادي القلم العراقي



(المجموعة الاولى)

١٩٣٨

عني بنشرها

نادي القلم العراقي

ثمن الكتاب اربعة دراهم

مطبعة الجزيرة — بغداد

باسم الله والصلوة على رسول الله

يسرني ان اقدم الى قراء لغتنا العربية اول مجموعة
من مجاميع نادي القلم تشتمل على محاضرات عديدة القيت
من قبل فريق من اعضائه ولنا الرجاء كله ان يلاقي
هذا المجهود ما يستحقه من الاقبال والله ولي التوفيق

أمين السر
لنادي القلم العراقي

تنبيه :

في الصفحة ٦ والسطر السادس إقرأ « الشاعران العظيمان » بدلا من « الشاعرين العظيمين » .

وفي الصفحة ١٥٦ والسطر السادس إقرأ « المقتضاة » بدلا من « المقتضية »

مجموعة
نادي القلم العراقي

(المجموعة الاولى)

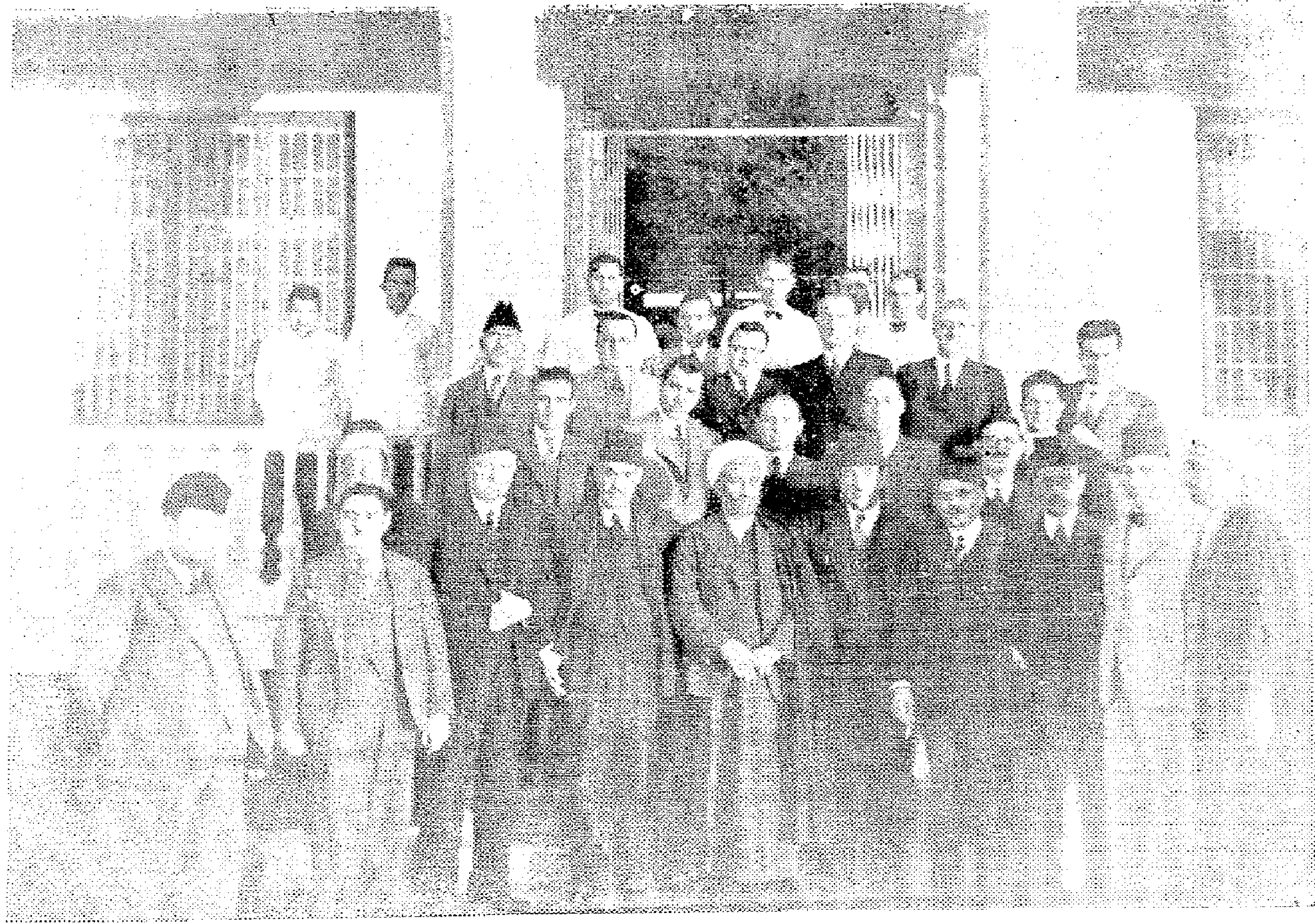
١٩٣٨

عني بنشرها

نادي القلم العراقي

ثمن الكتاب اربعة دراهم

مطبعة الجزيرة — بغداد



أعضاء نادي القلم ووفود الادباء والشعراء والعلماء من الاقطار العربية الى حفلة تأبين الزهاوي في المأدبة التي أقامها نادي القلم في فندق زيا في بغداد لتكريم تلك الوفود

محتويات المجموعة

مجموعة

نادي القلم العراقي

الاولى

لاتحوي مجموعة نادي القلم العراقي الاولى كل الذي ألقي في مجتمعات النادي من المحاضرات والقصائد والقصص وغيرها بل بعض ذلك وهو دون النصف بكثير . فقد القى الدكاترة والاساتذة محمد باقر الشبيبي ومحمد فاضل الجمالي ومتى عقراوي ورفائيل بطي وعباس العزاوي وعبدالكريم الازري وعلي حيدر سليمان وشيت نعمان ومجيد خدوري وزكي مبارك وعبدالمسيح وزير محاضرات وغيرها في موضوعات شتى لم يتيسر لنا نشرها هنا بل قد اخذنا الاهبة لنشرها في المجموعة الثانية التي سنشرع عما قريب في اعدادها للطبع . واملنا ان المجموعة الثانية ستخرج من المطبعة اكبر حجما واتقن طبعاً واجمل ثوباً .

لم يذكر في هذه المجموعة اسم الاستاذ محمد مهدي الجواهري بين أعضاء نادي القلم مع كونه عضوا منهم لان حضرته انضم الى النادي بعد طبع تلك الصفحة .

ويسر نادي القلم ان يعلن في هذه المجموعة ان مركز لندن لنادي القلم الاممي قد اختار حضرة صاحب المعالي الاستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس نادي القلم العراقي عضو شرف فيه .



المغفور له الاستاذ جميل صدقي الزهاوي

(الرئيس الاول لنادي القلم)

المغفور له الاستاذ جميل صدقي الزهاوي

(الرئيس الاول لنادي القلم العراقي)

في ٢٧ شباط سنة ١٩٣٦ فجع العراق خاصة والعالم العربي عامة بوفاة المغفور له الاستاذ جميل صدقي الزهاوي فبكاه كل ناطق بالضاد آسفاً للخسارة الادبية التي لايسخو الدهر في التعويض عنها بمثلها ، لانه — رحمه الله — كان شاعراً من اعلام الشعر واديباً من اساطين الادب، هذا فضلا عما امتاز به حديثه العذب في المجالس من سرعة الخاطر وحضور البديهة وظرف النكتة وكياسة الملاحة . ومع تفوقه في الاداب العربية لم يكن سهمه من الادبين التركي والفارسي مايستهان به لذلك تمتع في حياته بشهرة واسعة بين العرب والاعاجم .

ولد الفقيد العزيز في مدينة السلام في ١٨ حزيران سنة ١٨٦٣ من والدين عريقي الجاه كريمي الاسرة ونشأ في بيت اشتهر بالعلم والادب والفضل . وكان المرحوم والده علماً كبيراً من علماء الدين فأخذ عنه علوم الاولين ثم عكف على دراسة علوم الآخرين فولع بها وحاول الابداع فيها . ولما بلغ رشده تقلب في مناصب شتى في الدولة واصبح عضواً في مجلس النواب العثماني وعيناً في مجلس الاعيان العراقي وانتخب رئيساً لنادي القلم العراقي عند تأسيسه . وله مؤلفات كثيرة نشرت كتباً ومقالات في الصحف وله مواقف دفاع مجيدة عن حرية الفكر وحقوق المرأة . والخلاصة ان الزهاوي كان في سرعان اولئك الذين جردوا اقلامهم

لخدمة النهضة العربية التي بدت تباشيرها في القرن الماضي .

وظل الزهاوي طول حياته مثال النشاط والهمة وقدوة صالحة في الجد والاجتهاد للشبان والشابات

ولما وافاه القدر المحتوم في الثالثة والسبعين من عمره ساد الحزن البلاد واحتفلت مدينة السلام بدفنه في مأتم قل ان شهدت بغداد نظيره وكان في طليعة الذين ودعوه الى مرقده الاخير الشاعرين العظيمين معالي العلامة الاستاذ الكبير الشيخ محمد رضا الشبيبي والأستاذ الكبير معروف الرصافي وسار في موكب جنازته المهيب ممثل جلالة الملك المعظم ورئيس الوزراء والوزراء والعلماء والادباء والشعراء والوجوه وكل ذي شأن في العاصمة فضلا عن عامة الناس . وبعد مضي سنة على وفاته تألفت لجنة فاقامت حفلة تذكارية عامة لتأبينه دعت اليها الاقطار العربية فاشترك في تأبينه وفود تلك الاقطار مع المؤبنين العراقيين وكانت حفلة تأبين من الحفلات الفريدة في الجلال والفخامة

وسيظل الزهاوي خالداً في تاريخ امته وابناً طيب الذكرى من ابنائها البررة . تغمده الله برحمته ورضوانه واسكنه فسيح جنانه .

نشأة نادى القلم العراقى

قبل ثلاث سنوات ونيف اجتمع في دار الدكتور محمد فاضل الجمالي فريق من حملة القلم في بغـداد وتذاكروا في انشاء ناد يجمع شتاتهم ويسمى « نادي القلم » اسوة بنوادي القلم المعروفة في كثير من الاقطار الناهضة في العالمين القديم والجديد . وقد تم بعد اجتماعين متتالين تأليف النادي باعتبار الذوات الحاضرين اعضاء مؤسسين واختير يومئذ المغفور له الاستاذ جميل صدقي الزهاوي رئيساً والدكتور محمد فاضل الجمالي نائب رئيس والدكتور متي عقراوي أميناً للصندوق والاستاذ ابراهيم حلمي العمر كاتم اسرار .

ثم عقد النادي عـدة جلسات متعاقبة وضع فيها نظامه الداخلي ورفعه الى وزارة الداخلية فاذنت في تأليفه :

وعلى أثر نيل النادى اجازته عقـد جلسة تجدد فيها انتخاب الذوات الآنف ذكرهم . وخلف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في رئاسة النادي معالي الشيخ رضا الشبيبي الذي لا يزال في رئاسة النادي حتى الآن وقد جدد النادي انتخابه وانتخاب الدكتور الجمالي في هذا العام ايضاً للرئاسة ونيابة الرئاسة .

ونادي القلم العراقي اقدم نادي قلم عربي على ما نعلم : وهو على اتصال دائم بنوادي القلم في العالم التي تراسله ويراسلها من حين الى آخر وقـد دعي في العام الماضي الى ارسـال من يمثله في اجتماع نادي القلم الاممي في الارجنتين فأوفد احد اعضائه وهو الاستـاذ مجيد خدوري فمثله في الاجتماع المذكور . وقد مثله في الحفلة التي اقامها نادي القلم الاممي للمستر

هـ . ج . ولس الـكاتب الذائع صيته السيد عطا امين في لندن .

ولا يزال نادينا منذ نشأته يوالي اجتماعاته بلا انقطاع وهي على الغالب اسبوعية اذ يلقي احد اعضائه في كل اجتماع محاضرة ضمن اختصـاصه . وقد نشرت الجرائد والمجلات طائفة من هـذه المحاضرات اما الباقي فلم ينشر . وقد عقد النادي عزيمته على نشر محاضراته في رسائل كلما تيسرت له المـادة الـكافية منها . وهو يبـدأ الآن بنشر المجموعة الاولى من محاضراته على أمل ان يوالي نشر مجموعات اخرى عند سنوح الفرصة .

اعضاء نادي القلم

المغفور له السيد جميل صدقي الزهاوي — رئيس النادي الاول

الشيخ محمد رضا الشبيبي — رئيس النادي الحالي

الدكتور محمد فاضل الجمالي — نائب الرئيس الحالي

اسماء باقي الاعضاء على ترتيب الحرف الاول من اسم اسرتهم

الحاج عبدالحسين الازري
السيد عبدالكريم الازري
السيد رفائيل بطي
السيد عبدالجبار الجلبي
السيد مجيد خدوري
السيد جعفر خياط
السيد يونس السبعاوي
السيد يعقوب سركيس
السيد علي حيدر سليمان
الدكتور احمد نسيم سوسة
السيد انور شاؤل
الشيخ محمد باقر الشبيبي
السيد احمد حامد الصراف
السيد عباس العزاوي
الدكتور شريف عسيران
الدكتور متى عقراوي
السيد ابراهيم حلمي العمر
السيد يوسف غنيمة
السيد محمد مهدي كبة
السيد يوسف الكبير
السيد عبد المجيد محمود
السيد درويش المقدادي
السيد شيت نعمان
العقيد بهاء الدين نوري
السيد خالد الهاشمي
السيد عبد المسيح وزير
العقيد توفيق وهبي
السيد محيي الدين يوسف

معالي الشيخ محمد رضا الشبيبي
رئيس نادي القلم

المجريطي

فلسفته ومكتشفاته

لم اكن اعرف عن ابي محمد بن احمد بن عمر بن رضاع المجريطي — امام فلاسفة الاندلس في الرياضيات والطبيعيات المتوفي سنة ٣٩٥ ـ اكثر من تسميته في الكتب العلمية او ترجمة موجزة في اسفار التاريخ الى ان كانت سنة ١٣٣٢ او سنة ١٩١٤ اذ ظفرت خلال التنقيب عن المخطوطات العربية القديمة بنسخة من كتاب « غاية الحكيم واحق النتيجتين بالتقديم » من بين مؤلفات المجريطي فتوفرت على دراسة الكتاب دروسه اتضح لي منها مرمى تفكير المجريطي وفلسفته وخلاصة بعض دروسه ومستنبطاته بحيث اصبح في الوسع اماطة اللثام المسدل على آرائه وافكاره في معظم كتب التاريخ .

ذاع اسم المجريطي بما كتب لبعض مؤلفاته في العلوم الرياضية والفلكية من الانتشار وخصوصاً كتابيه « غاية الحكيم » و « رتبة الحكيم » وهما اشهر كتبه التي أوردها المؤلفون الذين عالجوا تاريخ نمو الحركة العلمية والفلسفية عند العرب او كتبوا في موضوعات العلوم وفي مقدمهم ابن خلدون وشمس الدين السخاوي والقلقشندي وطاشكبري زاده ومنلا چلبي وغيرهم . وقد عول ابن خلدون على كتابي المجريطي



معالي الاستاذ العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي
رئيس نادي القلم العراقي

السابقين في الفصول التالية من مقدمته :

١ — الكيمياء

٢ — السيمياء

٣ — الحكمة او العلوم العقلية واقسامها

٤ — الفلاحة

اضف الى ما تقدم ان الجريطي هو صاحب «رسائل اخوان الصفاء» الاندلسية التي الفها على نمط «رسائل اخوان الصفاء» البصرية اوالعراقية فبذر بذرة التفكير الواسع في اذهان الاندلسيين على عهده فلم تلبث الفلسفة حتى ازدهرت في العصور التي تلت عصر الجريطي في الاندلس فظهر فيها ابن رشد وابن الصائغ وابن الطفيل وبني زهر وغيرهم من اعيان الحكماء والمفكرين وان لم نعثر على نسخة من رسائله الاخوانية المذكورة ولكن لاريب عندنا انه استهدف في تأليفها اثارة الاذهان وتدريبها على البحث العلمي شأنه في كثير من فصول كتابه « غاية الحكيم »

نقح الجريطي كتابه المذكور خلال خمس اوست سنين وجمعه من ٢٢٤مؤلفاً رسمياً سمى اكثرها فيه . وتدلنا دراسة الكتاب على ان الجريطي (فضلا عن كونه اماما في العلوم الرياضية والطبيعية عارفاً بجميع فروعها) من جملة الاساتذة في التربية وفي علم السياسة والاجتماع على الاجمال على مايظهر لنا من لهجته ومن بعض ابحاثه في الكتاب . وهو يرى والنص المنقول له « ان الانسان اذا انفرد بعلم الحكمة النظرية والفلسفة سمي حكيما وان جمع بين الحكمتين النظرية والعملية ونفذ فيهما كان نبياً » قال « ولا يكون هذا الا في افراد الناس وهذا الانسان اي النبي في اكمل مراتب الانسانية وفي اعلى درجات السعادة وهي التي من جهتها اومن اجلها يطلب

كل خير واليها ينتهي كل خير لاننا انما نطلب الفضائل لنكون سعداء ولا نتوصل الى ذلك الا باصلاح الاخلاق واصلاح المنزل واصلاح الامة وجمعها على كلمة واحدة تقودهم الى السعادة والسعادة هي الخير المطلوب لذاته » .

وكذلك يستنتج من مواضيع اخرى من كتابه انه فيلسوف يميل الى الدراسة الواسعة ولكنه يرجح العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة ولايكاد يذعن الا لاحكام العدد والارقام في تفكيره . وماأكثر الشواهد التي عثرنا عليها في كتابه على ذلك . ومنها ما حكاه عن ثابت ابن قرةقرة المؤلف المشهور انه اجتمع بانسان كان باقعة في الحساب، فقال ذلك الانسان لثابت « ان الله قادر على كل شيء » فقال له ثابت « ايقدر الله ان يجعل جملة المضروب خمسة في خمسة أقل من ٢٥ أو أكثر من ذلك ؟ » فسكت الباقعة في الحساب ولم يحر جواباً . وقد نقلنا هذه الحكاية للتدليل على منحى تفكير المجريطي من حيث انه رياضي لايقبل الجدل في الارقام أما من حيث انه فيلسوف فانه لم يصرح لنا برأيه في هذا الشأناذ من مقررات الفلسفة ان الجزم حتى في مثل هذه المسائل الرياضية البحتة عبث او غرور اذا كان يتضمن دعوى الاحاطة بحقائق الكون وأسراره الازلية الغامضة

هذا وقد صير المجريطي نفسه تلميذا لجابر بن حيان على بعدما بينهما من المدة متخذاً منه قدوة يقتدي بها ، شديد التعظيم له ولآرائه ومستنبطاته في الرياضيات والطبيعيات . كثير الاقتباس من كتبه وقد اقتنى جملة صالحة منها خصوصاً في العلوم التعليمية والطبيعية وفي علم الحيل اوردها باسمائها واكثرها غير معروف ولا مذكور بين الكتب

المنسوبة الى جابر بن حيان . أما رأيه في الرازي « فانه استاذ جدير بأن تؤخذ المعارف عنه لكثرة بحثه ونظره في العلوم القديمة » وهي عبارته بعينها . وهكذا رأيه في الكندي فقد رأيناه كثير الثناءعليه وعلى تبحره في العلوم وقد استطرف المجريطي له رسالة غريبة في موضوعها اذ سمى الرازي رسالته هذه « كمية بقاء دولة العرب » وليس بكثير على الكندي فيلسوف العرب أن يفكر في هذا الموضوع . وقال ايضاً عن الكندي « ذكرته في كتابي تاريخ فلاسفة العرب » ومن ذلك يعلم ان المجريطي عالج هذا الموضوع الشيق — اعني تاريخ فلاسفة العرب خاصة — وألف فيه كتاباً الا اننا لم نعثر عليه بل لم نقف على ذكره الا في هذا الكتاب وقد احالنا المجريطي عليه — اي على تاريخ فلاسفة العرب — غير مرة فهو اذن من كتبه الممتعة . ومن الاعلام الذين اعتمد عليهم المجريطي ابو بكر بن وحشية وقد اكثر من النقل عن كتبه المترجمة عن النبطية في علم المواليد وفي الفلاحة وفي الهندسة المائية وذلك على طريقة القدامى من سكان الرافدين كما انه اثنى على كتابه في الفلاحة . ومنهم عطارد البابلي وهو رياضي قديم اكثر من النقل عنه وعن مؤلفاته خصوصاً كتابه « سر الاسرار »

وللمجريطي في كتابه غاية الحكيم اسلوب خاص في تلقيب بعض المؤلفين او الفلاسفة بالقاب يخلعها عليهم من تلقاء نفسه واكثرها مطابق لمقتضى الحال كقوله « افلاطون » او « المبرز » او « المقدم » وكقوله « رئيس الصناعة الاحكامية بطليموس » ويقصد بهذه الصناعة صناعة الميقات والتقويم وهي الصناعة التي برز بها بطليموس والف بها مؤلفاته

المشهورة في الاسكندرية وكقوله « سيد يونان على الحقيقة واولاهم بالفضل ارسطو » الى غير ذلك

ويستفيد من هذا الكتاب(اعني كتاب «غاية الحكيم» للمجريطي) من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة في اقدم عصورها وتاريخ مستنبطات الامم الشرقية العريقة في القدم من انباط واقباط وسريان وهنود وغيرهم ومكتشفاتها وجهودها في تقدم العمران . وقد ادرج فيه ايضا كثيراً من اساطيرها وخرافاتها الوثنية فيما يتعلق بحقائق الاجرام الفلكية وقواها ودعوتها نحو ذلك مما هو دخيل في عقائد المسلمين او مقتبس من عقائد الامم الوثنية القديمة المذكورة .

وللمجريطي في كتابه هذا أبحاث مقتضبة في الفلك والرياضيات وفي الكيمياء وفي تاريخ السحر وعلم الحيل وفي التاريخ الطبيعي وتأثير المنشأ والبيئة على الكائنات . وقد عقد عدة فصول للبحث في مملكة المواليد الثلاثة خصوصاً مايوجد منها ببلاد الاندلس . ويستنتج من بحثه فيها ان له مكتشفات عديدة في هذا . ولا استبعد انا والحالة هذه ان يكون لبعض آرائه وابحاثه اثر في عمران الاندلس خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية وانسكت مؤرخونا عن ذلك كله على عادتهم المألوفة

ومع كل ماتقدم فان المؤلف يعتقد بالسيمياء اوالسحر وهما موضوع كتابه « غاية الحكيم واحق النتيجتين بالتقديم » كما ان موضوع كتابه الآخر المسمى «رتبة الحكيم» هوالكيمياء وهما (اي الكيمياء والسيمياء) النتيجتان المتحصلتان من جميع جهودنا العلمية حسبما يراه المجريطي كما

انهما مفتاح الاسرار الطبيعية] والرياضية ومن لم يصل اليها فليس بحكيم وان احكم نتيجة واحدة منهما فهو نصف حكيم على حد تعبيره لان الكيمياء بحسب تعريفه هي معرفة الجواهر والارواح (القوى) الارضية واستخراج لطائفها للانتفاع بها كما ان السيمياء هي معرفة القوى او الارواح العلوية لاستخدامها والانتفاع بها. ويقول في موضع آخر من الكتاب اعلم ان هذه النتيجة اي السيمياء هي المعبر عنها بالسحر وحقيقة السحر على الاطلاق كلها سحر العقول فانقادت اليه النفوس من جميع الاقوال والاعمال وهو علمي غامض الادراك ومنه عملي. وبالجملة السحر هو ما خفي على عقول الاكثر (الجمهور) سببه وصعب استنباطه. واحسن انواع السحر العلمي الكلام بشهادة الحديث المأثور ان من الكلام لسحراً ومن ذلك قول المؤيد افلاطون في كتاب الفصول « كما يرجع لك الصديق عدواً بالكلام اليسير كذلك ينقلب لك العدو صديقاً بالكلام الحسن اليسير. والسحر العملي هو الوقوف على المواليد الثلاثة وما انبثت فيها من قوى. ومن انواع السحر العملي السحر الحيلي» الى ان قال « لا يبلغ احد الوقوف على تأثير العالم الاعلى (اي القوى العلوية) في العالم الاسفل الا بعد احكامه لجميع العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعة ايضاً.» ثم شرح سبب ذلك قائلا في الاخير «فباضطرار لا يعلم هذه الصناعة على الحقيقة الا من علم اوائلها وبالواجب ان لا يعلمها الا فيلسوف .»

فمن ذلك ومن مواضع أخرى من كتاب المجريطي نعلم اجمالا ان مدلول كلمة « السحر » في ذهن المجريطي غير مدلولها الخرافي المألوف

بل هو مدلولها في الاذهان الوقادة والافكار النيرة التي حاولت او هي تحاول دائماً تسخير قوى الطبيعة واخضاعها لاستخدامها في رفاه الانسان ورفع مستواه في سلم الحضارة والعلوم والعمران ومن هذا القبيل ساحر الكهربائية (اديسون) وساحر البخار (وط) وغيرهما من سحرة الاثير والضوء والحرارة وسائر القوى الطبيعة المبثوثة في هذا الكون . فالمجريطي حسبما نراه في كتابه هذا مفكر او ساحر من هذا الطراز او يكاد يكون من هذا الطراز .

معالي الشيخ محمد رضا الشبيبي
رئيس نادي القلم

قصة فتح بغداد

واسرارها السياسية والحربية

لسقوط الدولة العباسية واستيلاء المغول على عاصمتها بغداد في القرن السابع علل واسباب جرت بحسب سنن الحياة في الكائنات ، ووفق حكمة الصعود والهبوط بين الامم والجماعات ، ومعنى ذلك أن سقوط الدولة مما لا مناص منه في ذلك الحين لان السنن المذكورة عملت عملها الخفي فيها . ومن تصفح تأريخنا لا يعدم العثور على العوامل السياسية والعمرانية والخلقية وغيرها من الاسباب البعيدة التي ادت الى سقوط الدولة ولكن حروب المغول — وقد كونت السبب الادنى أو المباشر في حلول الطامة المذكورة — كان لها شأنها الاول بين العلل المشار اليها خصوصاً في نظر الجمهور ومن ثم كثر الخوض والاهتمام بها من قبل المؤرخين في كل العصور ولكن قل من وفاها ما تستحق من التحليل والتصوير الذي ينسجم مع مذاهب المؤرخين في عصورنا الحديثة ، لذلك حاولنا بهذا الفصل تصوير تلك الخطط والوقائع الحربية وتحصيل فكرة مجملة عنها حسب الامكان إلى هذا ونحوه من المقارنة بين بعض السجايا والوسائل الحربية التي يملكها كل من العراقيين والمغول في ذلك الزمان وبالجملة فهذا الفصل من حيث مجموعه الى ان يكون حديثاً أو قصة

تاريخية أقرب من أن يكون بحثاً مشبعاً في التاريخ .

شرع المغول بعد رسوخ أقدامهم في ممالك العجم والترك بغزو العراق من اقليم همدان وقد صمموا هذه المرة على اجتياح بلادنا وما يليها من الممالك الواقعة غربي آسيا تبعاً لخطة رسمت بعد اعمال الرؤية والتفكير في بلاد ايران وقد اشترك في رسمها على الارجح فريق من الامراء الذين يتألف منهم ديوان شورى الحرب المغولي الآتي ذكره . ثم اجتازوا حدود العراق من دون مقاومة ما وكان لا بد لهم من حصار بغداد ولكن المدينة واسعة وجانبها الغربي متصل باعمال الفرات وأعمال الفرات هـذه هي الملجأ المنيع لبغداد بين اذا ضويقوا من جهة الشرق .

ولما كان المغول لا يجهلون خطرها من الناحية المذكورة جعلوا سد هذا المنفذ في مقدمة برنامجهم أو اعمالهم الحربية وأوكلوا ذلك الى قائد كبير من قوادهم يدعى « الامير بايجو » . هذا ما يتعلق بجانب بغداد الغربي من خطط المغول الحربية . اما الجانب الشرقي فقد قضت خطة هولاكو بأن يشرف على حصاره بنفسه في الوقت الذي حدده لذلك وقد شرع الأمير بايجو بانفاذ هـذه الخطة . وكان عليه أن يجتنب دار الخلافة من جهة الشرق وان يسير من حدود العراق شمالا باتجاه اربل فاذا اجتاز اعمالها عبر دجلة تواً من نقطة حربية خطيرة كانت ولا تزال الى الآن من مطامح القواد والفاتحين وهي على الارجح قرية البوازيج على مصب الزاب الاسفل او الفتحة كما يسمونها الآن قرب تكريت ومنها يتصل ببغداد من جانبها الغربي . وبالجملة كانت هذه الخطة تشتمل على حركة من اعظم حركات الالتفاف الحربية في التاريخ .

سار بايجو طبق الخطة المذكورة وعبر دجلة من الموضع المعين للعبور ثم تقدم الى بغداد من جانبها الغربي وقد خلا منه اهله ملتجئين الى الجانب الشرقي على الاكثر وعلى هذا المنوال تم للمغول ما ارادوا . وتعذر على البغداديين وعلى العدد الذي لايحصى من الملتجئين الى بغداد مغادرتها الى الحلة او الانبار او الى اي جهة من جهات الفرات . كما تعذر عليهم بعد ذلك الانحدار في دجلة الى واسط والبطائح لمكان الجسر والحرس اللذين اقامهما المغول جنوبي المدينة . وقد ترتب على حركة الالتفاف هذه من جانب المغول نتائج خطيرة ادت الى ابادة نخبة الجيش البغدادي . وسهلت على هولاكو فيما بعد فتح بغداد بدون عناء كبير كما ستأتي الاشارة اليه .

هكذا ظهر المغول وقاربوا بغداد حسب الخطة المعينة . فماذا فعل البغداديون وماهي الخطة التى رسموها لاتقاء شرهم ؟ ومن البين ان امثل خطة يتعين على البغداديين سلوكها في مثل هذه الحال هي استبقاء الجيش داخل اسوار المدينة ثم الاستعداد للدفاع كما هو رأي فريق من امراء الجيش نفسه — يأتي ذكرهم — ولكن الدوادار وهو اعظم رجل في الدولة بعد الخليفة بادر بدافع من الهياج والانفعال النفسي الشديد الى العبور الى الجانب الغربي على رأس جيشه ظنا منه ان هولاكو هناك ولما التقى الفريقان قريبا من البلدة او في سمت الحارثية ومزارعها من الشمال تقهقر المغول وطاردهم البغداديون سحابة نهارهم الى منتصف الطريق بين بغداد وسامراء ثم مالو على جيش بغداد ميلة انتهت بابادته على وجه التقريب . وقد برهن قادة المغول الذين اشرفوا على ادارة

رحى الحرب مع الدوادار في هذه الوقعة الكبرى وفي طليعتهم الامير بايجو على خبرة حربية تامة ومعرفة بالغة بهيئة الاراضي والمسالك العسكرية فلم يتمكنوا البغداديين المنهزمين من الرجوع الى بغداد بما خربوه من المسالك وبما غمروه من الاراضي بمياه الترع والانهار . وبالجملة لم يبق في بغداد بعد هذه الوقعة جيش يعول عليه في الدفاع عن الجانب الشرقي منها كما أن هولاكو — وقد كان الى ذلك الحين في جبال حمرين يتطلع طلع الحوادث والانباء — سار من قوزه شالشكا طريق يعقوبا للاشراف على حصار بغداد من ناحيتها الشرقية .

كان عبور فرقة الدوادار وهي نخبة الجيش البغدادي الى الجانب الغربي لمطاردة المغول من اكبر الغلطات الحربية التي عجلت بسقوط بغداد وقصرت امد الدفاع عنها ولو بقيت مدافعة عن الجانب الشرقي وهو قلب بغداد ومجتمع الامة ومطمح هولاكو لضاعفت خسائر المغول او لأخرت حلول الكارثة في الدولة على اقل تقدير . ومن اظهر المظاهر جهل القادة البغداديين اذ ذاك وعدم انتباههم او فطنتهم الى هذه الخدعة الحربية المقصودة من المغول في تقهقرهم الى نهر دجيل . هذا اذا استثنينا عددا من امراء الجيش العراقي اشاروا على الخليفة او على الدوادار بعدم العبور وبينوا المحاذير الناجمة عن مطاردة المغول في العراء ولكن لم يجدوا من يعبأ بآرائهم السديدة . واذا كان سقوط بغداد من ابعد حوادث التاريخ تأثيرا وايلاما للنفس فان آلامنا تتضاعف كلما تذكرنا انها سقطت بلا عناء يذكر وبدون ان نجد من يدافع عن حوزتها دفاعا مجيدا يخلده التاريخ . ولا يصعب على المؤرخ

او الباحث ان يتعرف في مطاوي التاريخ الى فريق من رجال الجيش المعارضين لخطـة الدوادار . ومن هؤلاء الامير ابو المظفر ايدمش بن عبد الله القفجاقي الناصري وهو ممن ترجم لهـم المؤرخ المشهور بل مؤرخ واقعة بغداد عبدالرزاق بن الغوطي في كتابه « مجمع الآداب» فقد اثنى على شجاعته وفروسيته وعرفنا بالمناصب التي تقلدها في الدولة الى ان قال :

« كان من الامراء الذين عبروا الى الجانب الغربي واشار عليهم بالرجوع فلم يسمعوا وقاتل الى ان قتل رحمه الله في المحرم سنة ٦٥٧ وقد نيف على الثمانين »

هذه هي عبارة ابن الغوطي في «مجمع الآداب» وقد وردت كما لا يخفى في معرض الثناء على المترجم له ويستنتج منهما ان هذا المؤرخ وهو من شهود الواقعة كان ممن لا يرى رأي القائلين بالعبور بل يستنتج منها أن فـكرة هذا الامير الشهيد كانت مظنة العطف والتقدير في محافل العراق باجمعها لا عند آل الغوطي فقط وهم (اعني آل الغوطي) من رفاق هذا الامير وقد ساكنوه طول الحياة في درب واحد من دروب محلة الخاتونية كما صرح بذلك ابن الغوطي في كتابه المذكور . وثم امير آخر تعرفنا اليه بين امراء الجيش العراقي المعارضين وهو « فتح الدين بن كر » فانه لما رأى تهور الدوادار في مطاردة المغول اشار عليه ان يثبت مكانه فلم يصغ اليه كما جاء في الحوادث الجامعة[1] . وهذا كل ما اورده صاحب الحوادث عن هذا الامير ولم يذكر لنا هو ولا غيره من المؤرخين مصيره بعد الواقعة ولعله استشهد كما استشهد

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٢٤ من طبع بغداد

زميله الامير قمر الدين والحق انهما ذهبا في جملة من ذهب من جراء اهمال الخليفة وخبط رجاله وفي مقدمتهم مجاهد الدين الدوادار كما انهما — واقصد هذين الاميرين المعارضين — ضربا لنا مثلا عاليا في البطولة وسمو المبادئ والاخلاق ولا عيب فيهما سوى انهما من رجال ذلك العصر الذي بز جميع عصور الدولة في مهازله ومآسيه .

ويستنتج مما تقدم جسامة الفرق بين الدولتين من حيث الخطط والانظمة الحربية ومن حيث توفر اصحاب الكفايات من القواد وكذلك من حيث عدد الجيوش وانواع المعدات الحربية والمؤسسات العسكرية وبالجملة من حيث قوى الفريقين على اختلافها من مادية ومعنوية ومن يتصفح التأريخ منذ ظهور المغول الى سقوط بغداد مع امعان في النظر ودقة في الملاحظة يقف على اسرار ظفر المغول في حروبهم وعوامله كما يقف على اسباب سقوط الدولة العباسية من حيث فساد اوضاعها وخططها الحربية . واذا جاز لنا ان نحلل تلك العوامل والاسباب بشيء من التفصيل حللناها على الطريقة الآتية :—

١— كان النظام مفقوداً في جيش الخليفة وقد مني جيشه اذا صح اطلاق هذا الاسم عليه بفقدان التجانس بين افراده . ولو وقف الامر عند هذا الحد لهان ولكنه مني مضافا الى ذلك بفقدان الوحدة في قيادته فكان له عدة قواد كل يعمل على شاكلته وبرأيه الخاص خلافا لما كان عليه الحال لدى المغول فقد كان جيشهم كله من ابناء جنسهم وكان النظام ساريا فيه بفضل توحيد قيادته العليا وحصرها بشخص السلطان يؤازره ديوان شورى الحرب . ومن تصفح تأريخ المغول يجد ان

ديوان شورى الحرب او شورى السلطان من جملة مؤسساتهم العسكرية القديمة التي رافقت ظهورهم وانسياحهم في الارض وهو مؤلف من كبار قادة المغول وامرائهم ومن مهام هذا الديوان تقرير الخطط الحربية وكان يجتمع ايضاً لنصب سلطان مكان آخر. الى هذا ونحوه من الشؤون السياسية والحربية العليا .

٢ — اهمل الخليفة الاستعداد للحرب واهمل الجيش على وجه خاص اتكالاً على مركزه او منصبه من الخلافة وصبغته المقدسة ، هذا مضافاً الى اعتزازه بنسبه الكريم وشرفه القديم لا يمل من التبجح بذلك وقد جاراه رجال دولته على ذلك فأصبح هذا ديدنهم في جميع الاحوال. وبالجملة كان جل اعتماد الخليفة ورجاله على الخيال لا على الحقيقة . اما المغول فكانوا شعباً فتياً يجهل التحدث عن الاحساب والانساب ولا يعولون الا على انفسهم لا على تلك المخدوات والاوهام كما كانوا يعتزون بضرب من الشعور القومي على قدر ما تسمح به الاحوال في تلك العصور وقد رسخت فيهم ايضاً عقيدة غريبة اليها يعود الفضل بتوسعهم في الفتوح وظفرهم في الحروب وامعانهم في تخريب الممالك والبلدان وجوهر تلك العقيدة ان الارض فسدت بسكانها وان المغول بعثوا لتطهيرها ولا يتم تطهيرها الا بالتدمير والاستئصال ومن يتصفح رسائل سلاطينهم التي بعثوا بها الى بعض الخلفاء والملوك يطلع فيها على فحوى تلك العقيدة الغريبة .

٣ — لم يكن للخليفة ولا لقادة جيشه عناية بفن الاستطلاع او الوقوف على الحقائق في بلاد الاعداء بل كان خليفة بغداد يجهل او يتجاهل

كل شيء من هـذا القبيل اما المغول فـكانت لهم عنـاية بالغة بهذا الفن وكان لجيشهم عيون يعولون عليها في موافاتهم بحقـائق الاحوال ومن تفننهم في ذلك استعمال طلائعهم العسكرية في التجسس وربما تـكرر ذلك منهم سنين طويلة . ويعزى ظفرهم في كثير من الحروب الى عوامل من جملتها اهتمامهم بتسقط انبـاء الاعداء . وقد علمنا من تصفح التأريخ انهم شنوا الغارات المديدة على حدود العراق قبل واقعة بغداد بما يربو على العشرين سنة خصوصاً على عهد المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠) ونحن نميل الى الاعتقاد بأن جل غرضهم منها ما اشرنا اليه ولم يـكن غرضهم اذ ذاك الاشتبـاك بمعركة حاسمة غايتها الاستيلاء على بغداد والبطش بالخليفة ورجال دولتـه . وقد مـكنتهم تلك الغارات من سبر الاحوال العامة في الدولة العراقية وتقدير قيمتها من حيث قوتها الحربية والسياسية او من حيث مستواها في الثروة والعمران . ولا حاجة الى القول بأن مظاهر الضعف والفسـاد كانت بادية لهم في كل مكان . كما لا ينبغي لنا ان نشك بأن قادة هـذه الحملات رفعوا الى ملوكهم كل ما وقفوا عليه من هـذا القبيل ولو وقع الينا بعض « رفوعهم » او تقاريرهم لوجدناه يتضمن بلا ريب « ان البلاد مهملة وحدودها شاغرة وانظمتها فاسدة وجيوشها خائرة القوى وخلفاءها قابعون في قصورهم منكمشون بين غلمانهم وجواريهم اما عمالها فمتعسفون جائرون زرعوا كراهية الدولة في صدور رعاياها بحيث لا تتحدث الرعية الا بانقراضهم آناً بعد آن واما الشعب فمستسلم عاجز قد تفككت روابطه وانحلت جامعته حتى استولى عليه الرعب واليأس وبالجملة فقد ظهر الفساد في الدولة من قرنها الى قدمها » . الى غير ذلك .

كان علم المغول بهذه الحقائق الراهنة عن بلاد اعدائهم وجهل هؤلاء بما كان عند المغول من ذلك مضافاً الى العوامل الاخرى التي سبق تصوير بعضها من اهم اسرار تفوقهم على اعدائهم وظفرهم في حروبهم واكتساحهم للممالك الواحدة تلو الاخرى وذلك كما بدا لنا من ثنايا التأريخ ، وقد اجملناه في هذا الحديث مع ان المجال كما لا يخفى يتسع لأضعافه وذلك لتحصل لنا فكرة اجمالية عن هذا الموضوع لاغير ، وهذا هو المقصود .

الدكتور محمد فاضل الجمالي
نائب رئيس نادي القلم

مذهب التحليل النفسي

ليس مذهب التحليل النفسي من المذاهب التي نشأت من دراسة النفس ومن المباحث والتجارب التي قام بها علماء النفس، بل هو مذهب علم دخيل على علم النفس رغم مقاومة المذهب السلوكي وهو يختلف عن المذهب السلوكي في آرائه واساليبه، فالمذهب السلوكي في علم النفس يعتبر الانسان آلة معقدة ولا يعترف بوجود الروح او النفس لهذه الآلة ولا يعتبر سلوك الانسان منبعثاً عنها. فيعتقد المذهب السلوكي ان حياة الانسان النفسية بما فيها من تفكير وارادة وتخيل ماهي الا مجموعة انعكاسات مترابطة تكونت بالعادة تبعاً للتفاعل الحاصل بين الماكينة الجسمية والمحيط. لذلك يقتصر المذهب السلوكي في درسه على مشاهدة هذه الحركات الميكانيكية وما يتبعها من تفاعلات كيماوية فزيولوجية في داخل الجسم فلا يهتم العالم السلوكي بدرس النفس الباطنة وليس في عرفه شيء يسمى بالروح او النفس او العقل بل كل ما هنالك ماكينة محسوسة متحركة هي الماكينة الانسانية. ان هذه النظرة الى النفس البشرية تصطدم اصطداماً عنيفاً بالمذهب الجديد الذي يدخل الى اعماق النفس ويدعو نفسه بمذهب « العمق » ومذهب « الشعور الباطني ».

أن هذا المذهب كما قلنا لم ينشأ من ناحية الابحاث النفسية بل جاء



الدكتور محمد فاضل الجمالي

من ناحية الطب ، من ناحيـــة معالجة الامراض النفسية . ان معالجة الامراض العصبية بالطرق النفسية ليس بالشيء الحـديث فقد استعمل (مسمر) الطريقة المنسوبة اليه منذ القرن الثامن عشر ولـكن هـذه الطريقة سرعان ما أدت الى تفشي التدجيل والشعوذة بحيث صـــار كثيرون يتعاطون هذه الطريقة ، ثم جاء التنويم المغناطيسي في القرن التاسع عشر فاستعمل في معالجة الامراض العصبية فوجدت مدرستان متباريتان في استعمال التنويم المغناطيسي الواحدة في باريس والاخرى في نانسي وقد ظهر في باريس الاستاذ الشهير (شاركو) الذي وجد أن الاشخاص الذين يمكن تنويمهم مغناطيسياً هم الذين تصيبهم الهستيريا والنوبات العصبية عادة ، لذلك كانت مدرسة باريس تعتبر ان الاستعداد للتنويم المغناطيسي هو ظاهرة مرضية . وتعاكسها مدرسة نانسي التى تعتبر ان خضوع المرء للتنويم المغناطيسي بصورة معتـــدلة هو شيء طبيعي لـكل البشر . وعلى كل فقد استعمل التنويم المغناطيسي في معالجة الامراض العصبية في كلتا المدرستين .

ومن مزايا التنويم المغناطيسي انه يجعل المرء يتذكر ويذكر حوادث قديمة حدثت له لا يمكن ان تخطر على باله في حالة اليقظة فيستطيع المنوم اذ ذاك أن يتوصل الى الاسباب والحوادث المؤدية الى المرض العصبي فيعالجه بالطرق المختلفة .

كان لشاركو الشهير طلبة عديدون أتوه من مختلف اقطار العالم اشهرهم « بيرجانيه » في فرنسا و« برنس مورتن » من امريكا و« سكمند فرويد » من جوكوسلوفاكيا . اما « جانيه » فاخذ يعلل الامراض العصبية بانهـا مسببة عن انحطاط عام في القوى النفسية ، وهذا الانحطاط يولد ضعفاً

في الارادة وقلة قابلية على مجابهة مشا كل الحياة . وكان يستعمل التنويم المغناطيسي والاقناع واسطة لعلاج المريض . ولكن الذي شق طريقاً جديدا في علاج الامراض العصبية والنفسية هو فرويد الذي ولد سنة ١٨٥٦ في جوكوسلوفاكيا والذي عاش منذ سني حياته الاولى في فينا . درس فرويد الطب في جامعة فينا واشتغل في مختبرها الفيزيولوجي ست سنوات ولكنه وجد ان الحياة العلمية في المختبر لا تقيته فانتقل حالا الى ممارسة الطب سنة ١٨٨١ ودخل احدى المستشفيات للاشتغال فيها ولكنه تخصص في الجهاز العصبي والامراض التي تطرأ عليه كالفالج واصابات الدماغ وما اشبه ذلك ، ولم تكن في تلك الايام معالجة الاضطرابات النفسية معروفة ولكن شهرة شاركو كانت تسمع من بعيد فشد فرويد الرحال الى باريس ودرس عليه اكثر من سنة فاعجب كثيرا باستعماله للتنويم المغناطيسي في معالجة الهستيريا كما انه دهش من سماعه شاركو يقول « اجد دائماً في كل الامراض النفسية شيئاً من الاضطرابات في حياة المرء التناسلية » .هذه عبارة شاركو فخطر اذ ذاك ببال فرويد السؤال التالي :—

« اذ صح مايقوله شاركو فلم لا يبني علاجه على هذه النظرية؟ » هذا سؤال خطر ببال فرويد في حينه الا انه لم يثمر الا بعد سنتين . وفي سنة ١٨٨٦ عاد فرويد الى فينا واخذ يعالج الامراض النفسية ولاسيما الهستيريا منها واستعمل التنويم المغناطيسي كأهم واسطة لمعالجته ولكنه وجد صعوبة في تنويم كثير من المرضى ، ولما لم يتأكد نجاحه بالتنويم المغناطيسي عاد فسافر الى مدرسة نانسي التي كانت تدعي انها تنوم كل شخص تقريبا وانها موفقة كثيراً في استعمالها التنويم المغناطيسي

كعلاج ، ولكنه بعد أن وصل الى هناك يئس لما عرف ان الاطباء في هذه المدرسة انما ينجحون مع الفقراء الذين يأتون الى العيادات العامة والملاجيء ، أما المرضى الخصوصيون الذين لديهم شيء من الثقافة والذكاء فلم ينجح معهم العلاج كثيرا فعاد فرويد الى فينا واستمر على استعمال التنويم المغناطيسي كعلاج لمرضاه الخصوصيين مع شيء من النجاح ولكنه تمنى لو وجد طريقة جديدة للعلاج في هذه الاثناء. وهنا نصل الى الدور الذي استفاد فيه فرويد اكثر من مدرستي باريس ونانسي فاتصل فرويد « بيوسف بروير » من فينا وهذا اختصاصي بعلم الفيزيولوجيا وله نظريات مشهورة في هذا العلم ولكنه انتقل من بحوثه الفيزيولوجية الى معاطاة الطب كما فعل فرويد وقد كانت بين فرويد وبروير صداقة قديمة ولكنها تجددت الآن في تعاونهما على معالجة الامراض النفسية. فقد توصل برويز بفضل احدى مريضاته الى طريقة جديدة في معالجة الامراض النفسية، وذلك ان امرأة مبتلاة بالهستيريا طلبت منه ان يسمح لها بأن تتحدث اليه عن مشاكلها النفسية بينما هو يعمل على تنويمها مغناطيسياً. فان هذا التحدث يخفف لها حالتها واضطرابها في وقت العلاج وبعده. فأخذ برويز وفرويد بعد ذلك يستعملان هذه الطريقة مع المرضى بحملهم على التحدث لهم عن مشاكلهم مع شيء من النجاح . فنشرا نتائج معالجتهما سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وصارا يستعملان الطريقة الجديدة بالاضافة الى التنويم المغناطيسي وسميا هذه الطريقة الجديدة « بالتنظيف » او « التطهير » النفسي فانها تعمل على تنقية الخاطر بقذف كل ما هو مزعج الى الخارج وتنفيه الخاطر بالسماح للمرء ان يفتح نفسه من الانحصار ولكنهما وجدا بهذه الطريقة ان المرضى يتوقفون عن ذكر الحوادث

المخجلة التي يستحيون من ذكرها فهناك قوة نفسية مانعة تمنع المرء من ان يبوح بهذه وان هذه الحوادث منسية لا تخطر على البال فهي ليست في عالم الوعي . فكان بامكان فرويد وبروير التوصل الى هذه الحوادث بواسطة التنويم المغناطيسي . وبينما كان فرويد وبروير يسيران معاً في هذه الطريقة الجديدة في معالجة الامراض النفسية اذا ببروير ينقطع عن العمل بغتة ويترك الطريقة ولم تعرف الاسباب الداعية لهذا الانقطاع في حينه وانما عرف بعد ذلك ان احدى المريضات تعلقت مغرمة به ولما كانت هذه الطريقة في العلاج عرضة للغرام فقد تركها ليسلم بنفسه . اما فرويد فقد جابه مثل هذه المواقف ولكنه لم يخف منها بل استفاد منها في علاجه فقد استنتج بأن المريضة لم تقع في الغرام مع شخص الطبيب وانما اعتبرته عوضاً عن الهدف الاصلي . فهو يحب ليس بصفته فرويد ولكن بصفته بدلا عن الشخص المحبوب سابقاً وذلك الحب القديم انتقل اليه . وقد اخذ فرويد يستعمل انتقال الحب هذا كواسطة للشفاء . وعليه فقد وضع فرويد « نظرية الانتقال » وصار يحل نظرية الانتقال المحل الرفيع في بحثه وعمله اذ ذاك .

وبعد ان استقل فرويد بالعمل أخذ يستغني عن التنويم المغناطيسي ويكتفي بأن يطلب من المريض ان يتكئ الى خلف ويرخي ارتخاء . وان يوجه المريض كل انتباهه الى اصول علته وان يحكي كل ما يخطر . بباله . وقد دعا فرويد هذه الطريقة بطريقة « التداعي الحر » . على ان هذا التداعي لم يكن حراً تماماً بل كان فرويد يقيد المريض بأن يلتزم التكلم عن علته وما يتعلق بها لا أن يخرج عن الموضوع . وكان فرويد يؤكد على المريض بأن يكون حراً في اطلاق كل ما بباله ولو كان مما يستوجب .

الحياء والخجل كما انه كان يؤكد على كل شيء مهما كان تافهاً ، إذن فالارتخاء والتكلم عما يجيش بالنفس حول المرض حل محل التنويم المغناطيسي . ومع انه عالج الكثيرين ونجح في علاجه بهذه الطريقة إلا انه سرعان ما استفاد من وسائل اخرى اهمها تفسير الاحلام ، ففي سنة ١٩٠٠ نشر كتابه الشهير « تفسير الاحلام » في اللغة الالمانية وكان لهذا الكتاب صدى عظيم في محافل علماء النفس واعتبر فرويد من ذوي الفضل حقيقة على هذا العلم . ثم اعقب درسه للاحلام بدرسه للنكت وزلات اللسان وغيبوبة الذهن وما اشبه ذلك مبيناً ان هذه كلها انما تكشف عما يخبئه اللاوعي في النفس فما الاحلام في رأيه سوى تعبير عن رغبات نفسية لم يتح لها البروز الى عالم الوعي والحس فانكبتت وحجزت في عالم اللاوعي . وان هذه الرغبات المكبوتة جميعاً تناسلية في الاصل. ومن ذلك الحين اخذ اتباع فرويد يزدادون في فينا وخارجها واخذ صيته ينتشر في الاوساط النفسية كافة . وان الطريقة التى يتمشى عليها فرويد في التحليل النفسي توجز بما يلي : —

يعتبر فرويد كثيراً من الافكار والاشياء التي يتلفظها المريض رموزاً تناسلية . وان الطريقة لشفاء المريض هي ان تستخدم هذه الرموز في تفهيم المريض اسباب علته من جهة واعادة ذكرى الحادث النفسي المسبب للمرض الى المريض . فمتى توفق الطبيب الى جعل المريض يدرك سبب مرضه ويختبر الحالة النفسية التي طرأت عليه ويسمح له بأن يفرج عن العقدة النفسية الكامنة في نفسه فانه يشفى . ولكن فرويد وجد ان بعض المرضى يعودون اليه بعد شفائهم وعلل ذلك بأنه في تحليله لم يتعمق كفاية وما عليه الا ان يزداد في التعمق ويرجع الى حياة المريض الاولى كي يستطيع الوصول الى السبب الاصلي . وقد وجد من احتباراته من تحليل

احلام النساء المرضى ان الطوارئ النفسية والهزات العصبية انما حدثت لهم في ايام الطفولة ومن هنا ذهب فرويد الى نظرياته حول الغريزة التناسلية في الطفولة وانها موجودة من الاشهر الاولى بعد الولادة وصار يعتبر الكثيرين يشبهون (اديبوس) بطل الاسطورة اليونانية المعروفة الذي قتل أباه وتزوج امه (واكتيبس) التي قتلت امها لحبها اياها فقد اخذ فرويد يعلق كثيراً على ضغط الكبار على غرائز الاطفال التناسليه ويعزو الكثير من الاضطرابات العصبيه التي تحدث فيما بعد في العمر الى ايام الطفولة . لذلك صار هم فرويد اثناء التحليل النفسي ان يعيد الى المريض ذكريات الطفولة وان يحمله على تذكر العواطف والهوائج التي حصلت له إذ ذاك . وان اعادة هذه العواطف الماضية الى النفس مجدداً وجعل المريض يشعر بها هي العامل الاكبر في الشفاء .

الماكنه النفسيه في عرف فرويد تتخلص بما يأتي : —

للمرء غرائز تناسليه وهذه الغرائز يضغط عليها المجتمع فتكبت ولا سيما في ايام الطفولة وهذا الكبت يولد اضطراباً نفسياً فيما بعد من ايام الحياة . وهناك مقاومه نفسيه تمنع الاباحه بالرغبه او الشهوة المكبوته فاذا توفق الطبيب الى ازالة الكبت وارجاع الشهوة المكبوته الى عالم الوجود ثم استطاع تحويلها الى عوض او بدل عن الشيء الاصلي فيكون المريض قد شفي . فمهمه المحلل النفسي إذن هي الرجوع الى تأريخ المريض والتعمق في نفسه حتى يصل الى حادثه الكبت فان كبت الشهوات الابتدائيه هو الذي يسبب العقد النفسيه . وربما كانت أهم نظريه جاء بها فرويد هي نظريه « الاندفاع » وهي ان الانسان مندفع في كل اعماله الحيوية . والدافع هو الشهوة . ففي نظره لكل فعل نفسي سبب . وهذا السبب ليس شيئاً خارجياً طبيعياً او ما وراء الطبيعة وانما

هو شهوة نفسية او رغبة او دافع . وربما كانت نظرية « الاندفاع »
هذه أهم من نظرية الكبت فانه يعلل حتى الاضطرابات النفسية بها .
فالانسان« مدفوع » في احلامه وفي زلات لسانه وحتى في اضطراباته
الجسمية بالشهوة وان هذا الاندفاع ان لم يخرج الى حيز التنفيذ
توا بلا واسطة فانه يخرج بالواسطة ، فان الانسان قد يحلم ليلاً بأنه
لقى كمية من الدراهم او انه حصل على مبتغاه مهما كان ذلك مدفوعاً
بتنفيذ رغبته ذلك التنفيذ الذي لا يتيسر في عالم اليقظة . فانه يتوصل
اليه في الحلم ، وما الاحلام سوى افعال تنفيذية يندفع المرء لتنفيذها
في المنام لأن الرغبات السابقة لا يمكن ان تتحقق في اليقظة وهذا
التنفيذ ليس من الضروري ان يكون تنفيذاً عيانياً بل يجوز ان يكون
رمزياً فان محتويات الاحلام تكون رموزاً لأشياء اخرى هي تنيفيذ
الرغبات . وعلى كل فالانسان يندفع الى التنفيذ مهما كانت الوسائط غير
«مباشرة» وبعيدة عن الطريق المستقيم . فلنأخذ مثلاً فتاة مصابة بشلل في
الأرجل لا بتلائها بالهستيريا وبعد التحليل النفسي وجد أن أباها كان قد
مرض قبل سنتين وكانت تتعب في تمريضه ولا تستطيع فراقه وهي في
الوقت نفسه كانت في غرام مع حبيب لها ولكن مرض والدها كان
يحول دون اتصالها بحبيبها الذي كانت تأمل ان تتزوج منه قريباً . فهي
كانت في اضطراب نفسي شديد ترقب ان ينتهي امر والدها بواحد
من امرين . كانت تود الفرار نفسياً ولكنها كبتت نفسها . وهذا
الانحصار او الكبت بقي في اللاوعي وخرج بعد حين بصورة عمياء في
شلل الرجلين . ويدعو فرويد عملية التنفيذ هذه بالتحول - اي تحول
الشهوة النفسية الى حالة جسمية وان فرويد يعتبر معظم زلات
القدم واللسان والنسيان والتبديل والتحويل افعالا تنفيذية لشهوات

مكبوته تريد لها منفذاً . فالمسا كنة النفسيه على مذهب فرويد ذات قوتين متعاكستين قوة الكبت والضغط وقوة الاندفاع والتنفيذ . وربما كان فرويد قد أجاد في بحث ناحيه الاندفاع والتنفيذ اكثر من كل نظريه اخرى جاء بها . وعليه يمكن تفسير نظريه الانتقال التي اشرنا اليها آنفاً بكونها مظهراً من مظاهر التنفيذ . فالمريض الذي كبتت شهوته فيما مضى يستطيع ان يشفى بتنفيذ تلك الشهوة وذلك بتحويلها الى شخص المحلل . ويستنتج مما مر ان فرويد يعتقد وجود قطبين متعاكسين في تكون النفس . القطب الواحد قطب الاندفاع والثاني قطب المنع والمقاومة . والقطب الأول يدعى « با الليبيدو » وهو مجموعه الغرائز التناسليه . والافعال التناسلية في عرف فرويد أوسع بكثير من العمل التناسلي بين الجنسين . فهي تشمل كل الحركات والأفعال التي لها علاقة بالتناسل فيعتقد فرويد أن مص الطفل اصبعه فعل تناسلي وكذلك عضه الأشياء التي توضع في فمه وكذلك دلك جسمه او ملاطفته باليد او دغدغته كما انه يعتقد بأن الحركات المتزنة التي يتحركها الطفل بيديه ورجليه تسبب لذة تناسليه وكذلك قيامه بعملية البول والتغوط توجد له لذة تناسلية وكذلك النظر الى الاشخاص والاشياء مع شيء من التبجح والظهور لها . كما ان تمزيق الاشياء ورميها هو منبعث عن حس تناسلي . وصفوة القول كل ما يسبب للطفل لذة او اندفاعاً منبعث عن حس تناسلي ، اما مع الكبار فتدخل الصداقة والملاطفة وحب الفنون والموسيقة في عداد الشهوة التناسلية . وبكلمة مختصرة كل الاشياء التي يجب ان يفعلها المرء ناتجة عن شهوة تناسلية ، فالشعور التناسلي في عرف فرويد اذن يشمل كلما يدخل في كلمة الحب في معناها الاوسع . وهو يدعي بأن كل هذه الافعال تسبب لذة

تناسلية حقيقية يقابل هذا القطب قطب الذات المتصلة بالعالم الخارجي التي تمنع الحصول على اللذة وتقاومه. فهناك نزاع مستمر بين «اللبيدو» والذات ، بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع فطبيعه الانسان تسعى دوماً باشباع اللذة ولكن المحيط يمنع الحصول عليها . ومن معرفتنا النضال المستمر بين القطبين يمكننا أن نفهم تحليل فرويد للنفس فالنفس في عرفه تتكون من الوعي واللاوعي يفصل بينهما برزخ . فكل شهوة تكبت تخزن في برزخ ثم تذهب الى اللاوعي . والذات المانعه في عالم الوعي هي التي تجابه حقائق الحياة والقيود الاجتماعيه . فاذا لم تستطع الشهوة من الخروج الى حيز التنفيذ فانها لا تموت بل تذهب الى اللاوعي وتفعل فيه سواء في حلم النوم او في حلم اليقظه او بواسطه انفعالات عصبيه يهرب بها المرء عن المجتمع . ولكن الذات المانعه التي تفعل فعلها في عالم الوعي انما ترتقي فتصبح الذات العليا . وهذه ايضاً تفعل فعلها في عالم اللاوعي . والذات العليا المانعه هي مايسميها رجال الاخلاق بالوجدان او «الضمير» وهو يتكون من قسم وراثي يأتي بالفطرة وقسم مكتسب يتكون من تبلور العادات والتربيه الاجتماعيه في النفس . فمذهب فرويد اذن مذهب ثنائي، اندفاع يقابله منع وكبت ليبيدو يقابله الذات المانعه ، وهي بقابلة اللاوعي .

والغريب ان فرويد لم يستطع ان يحتفظ بثنائيته في كل حين فالعلاقه بين الليبيدو والذات ليست متعاكسه بصورة مطلقه . فقد يحدث ان المرأة تحب نفسها وتشتهيها وهذا مايدعوه فرويد «بالنارسيسية» وهذه الكلمه مشتقه من شاب خرافي اسمه «نارسس» وهو شاب خرافي نظر نفسه في الماء الصافي فرأى انعكاس وجهه فعشقه ، ففي هذا الحال لم تتعاكس الذات والليبيدو بل اتحدا .

وقد توسع فرويد في فكرة اتحاد الذات مع الليبيدو فسمى الاثنين المتحدين «بايروس» اوغريزة الحياة كما انه وضع مقابلا لغريزة الحياة غريزة الموت وهي موجودة في كل المخلوقات . وماطلب الاستراحة والسكون عند الهندوس وشغفهم في الصعود الى « النرفانه » الا مظهر من مظاهر هذه الغريزة. غريزة الموت . هي موجودة في كل الانسجة العضويه للانسان ماعدا بعض الخلايا التي تتعلق بغريزة الحياة وما حب الانتحار حسب مايراه فرويد الا مظهر من مظاهر غريزة الموت . وهناك مظهر آخر من مظاهر هذه الغريزة هو حب الايذاء . فكثيرون هم الذين يحبون ان يؤذوا غيرهم بدافع داخلي وسبب ذلك اضطراب نفسي ناشئ من خيبة الوصول الى الشهوه التناسليه وما حب الايذاء هذا الا غريزه من غرائز حب الموت .

وصفوه القول ان فرويد يعتبر من اكبر المنتجين في تفكيرهم في التحليل النفسي ولاشك في انه في علاجه المرضى بطريقة التحليل النفسي ادى خدمات خالده للطب . فهو احدث انقلاباً خطيراً في فهم الاطباء اسس الامراض النفسيه كالفزه والمخاوف والهستيريا الى غير ذلك . فهو يعتقد بأن النفس تطلب مطاليب وتشتهي شهوات لاتتفق ومطاليب المحيط . وعدم التوافق بين النفس والمحيط هو مايحدث كل هذه الاضطرابات . اما خدمات فرويد لعلم النفس فليست في نوع الافكار والاراء التي ابداها في الموضوع فلا يمكن ان تعطى لافكاره قيمة علمية قطعية بل ينحصر فضله في هذا الباب في توجيه التفكير في علم النفس الى مناحي جديدة وطرق جديدة وعلى كل فهو يعد من اكبر رجال العصر المنتجين في تفكيرهم .

الدكتور محمد فاضل الجمالي
نائب رئيس نادي القلم

المذاهب الناشئة

من مذهب التحليل النفسي

قلنا ان شهرة فرويد اخذت تنتشر منـذ سنة ١٩٠٠ فاجتمعت حوله حلقة في فينا واخذ يراسله بعض اتباعـه في سويسرا . وفي سنة ١٩٠٨ عقد اول مؤتمر اممي للتحليل النفسي ولكن انتشار الحركة هذا لم يستمر طويلا بدون انشقاق داخلي بين اتباع فرويد . فاتباعه السويسريون سلكوا طريقاً مستقلا بعض الاستقلال عن طريق فرويد في التحليل النفسي كما ان بعض اتباعه في فينا انشقوا عليـه . وعليه فقد وجدت مذاهب فرعية لمذهب التحليل النفسي منذ سنة ١٩١٢ واحتفظ فرويد بتعبير التحليل النفسي لمذهبه الخاص واستعمل يونك السويسري لمذهبه تعبير «السكالجة التحليلية» كما استعمل ادلر لمذهبه تعبير «السكالجة الفردية» . ويمكن اعتبار المذهبين فرعين من اصل واحد وفي اساليب البحث وفي معالجة الامراض النفسية والعصبية وفي نظريات علم النفس . اما فرويد نفسه فانه مصر على ان كلا من يونك وادلر قد انشقا عن المذهب الرئيسي ويرفض نسبتهما اليه وذلك لاستغناء المومأ اليهما عن اهم مايقوم عليه تحليل فرويد النفسي ـ اعني به الشهوة الجنسية . وها نحن نتقدم بالاشارة الى اهم ماجاء به كل من ادلر ويونك.

الفرد ادلر من اهالي فينا . ولد في سنة ١٨٧٠ والتحق بحلقة فرويد من

اول الامر وكان له تأثير كبير في تفكير فرويد في «الذات». ولكنه في سنة ١٩١٢ وجد انه يميل الى تأكيد « الذات » ضد الشهوة الدافعة وان هذا التأكيد يمنع اتصاله السابق بفرويد لذلك اوجد مذهباً مزاحماً لمذهب فرويد دعاه مذهب « السكلجة الفردية» . وقد اعتقد ادلر من البدء على مايظهر ان فرويد قد تطرف في آرائه حول الشهوة الجنسية ومكانتها فهو مع اعترافه بان بعض الاضطرابات النفسية قد تحدث من جراء المشاكل الجنسية الا انه يرى سبباً اساسياً ابعد من ذلك .

يرى ادلر ان العامل الاساسي في الاضطرابات النفسية هو الشعور بالضعة فمبدأه الرئيسي هو تأكيد الميول ذات العلاقة بتأكيد النفس واثباتها وتفوق الفرد على الآخرين ، تلك الميول التي تنشأ عادة من الضعف فكل انسان من بدء حياته يتأثر تأثيراً اكيداً من الشعور بالضعف الذي يجابهه في الحياة وفي المحيط حوله . والحياة الانسانية في الحقيقة عبارة عن تسلسل كفاح في سبيل السيطرة والتعويض عن الشعور بالضعف والضعة . وحب القوة هو الدافع الاساسي في حياة الانسان . وفي الحقيقة نرى ان آراء ادلر تكاد تطابق فلسفة نيتشه في عدة نواح . ولما كان الجنس النسائي هو اضعف الجنسين وكانت النساء تشغل مكانة هي دون مكانة الرجل نرى ان بعض النساء يسترجلن ولهن شعور حاد . ثم ان كل انسان يكشف في نفسه نقطة ضعف خاصة له عاجلا او آجلا في الجسم او في العقل . فمتى كشف نقطة الضعف هذه سرعان مايوجه جهوده للبحث عن طريقة للتعويض عن هذا القصور العضوي كما يدعوه ادلر ويجري هذا التعويض بواحدة من الطرق التالية :

١ — اما ان يصبح ذلك الضعف قوة وذلك بتمرين الجهاز الضعيف

والاجتهاد لتقويته بحيث يبرز الى عالم الوجود كما يروى عن (ديموستنيس) المتأتئ الذي اصبح بفضل الجهد والتمرين من اكبر الخطباء . وكما اصبح (ساندو) الولد الضعيف من اقوى رجال عصره .

٢ — الطريقة الثانية هي طريقة الاستبدال وذلك بتنمية قابلية اخرى تعوض عن الخسارة في ناحية الضعف كأن يعوض الانسان القلم عن السيف اذا ما كان ضعيفاً لايقوى على الحرب والفروسية كما حصل لنيتشه فانه لعجز صحي لم يستطع ان يدخل الجندية فاستعاض بالقلم عن السيف وكتب فلسفة القوة . او ان شخصاً صغير الجسم لا يستلفت الأنظار يستعمل صوتاً عالياً وجرأة فائقة لاسماع رأيه واثبات نفسه .

٣ — اما الطريقة الثالثة فهي ان يلجأ المرء الى مشاكل خارجية او مرض جسمي او نفسي للتخلص من الضعف الذي فيه . وبذلك يتخلص من تبعات المحيط ومن الشعور بالضعف ؟ فهو يعلل نفسه بأنه مريض لا تبعات عليه او ان الاحوال الفلانية لاتساعده فلو كان ابن فلان او لو تيسرت له الظروف الفلانية لعمل كذا وكذا . حتى انه قد يلجأ الى فكرة انه رجل لاقيمة له فعلام يتعب ويكافح . وبذلك يعوض عن ضعف بضعف .

وبينما نجد فرويد يعتبر الذات متصلة بالواقع والحقيقة نرى ادلر يناقضه في ذلك تماماً فيعتبر الذات هي العامل في مسخ الحقائق وان الخيالات الوهمية التي تحصل للمرء ليس منشأها القوة الشهوانية الدافعة (الليبيدو) كما يدعي فرويد ولكنها محاولات تحاولها الذات للتخلص من الشعور بالضعة الذي يجابهه المرء في ادوار الحياة . فالرجل الضعيف قد يخترع طرازاً خاصاً لحياته وسلوكه يتخلص به من مطاليب المحيط ويسجل لنفسه

تفوقاً حسب تصوره وتقديره . والمبتلى بالامراض النفسية يختار لنفسه هدفاً خيالياً يتوصل اليه في عالم الخيال لا الحقيقة فيقول ادلر ان مشكلة المرض العصبي عند المريض هي مشكلة اتخاذ المريض طرازاً للعمل والتفكير يشوه به الحقيقة ويهرب من مطاليبها ، وان عمل المحلل النفسي قد اثبت ان حب التفوق والتغلب هو العامل الاصلي في كل مرض نفسي وان هذا الهدف يتولد دائماً من كشف المرء ضعف نفسه . فيقول المريض دائماً «ولو لم اكن متهيجاً ولو لم اكن مريضاً لاستطعت فعل كذا وكذا ولو لم تكن حياتي ملأى بالمصائب والمصاعب لكنت الاول .» وبهذا الوضع النفسي يشعر المريض بشيء من الرفعة ويفعل ذلك للتأثير في نفسه اكثر مما يفعله للغير . والناس بالطبع يواسونه في مشكلته ويخففون عنه اثقاله فينال الحظوة في الحياة اذ تقاس اعماله بموازين خفيفة وهو يدفع بدل ذلك ابتلاءه بمرض نفسي .

ان طراز الحياة الذي يختاره الطفل في السنين الاولى من حياته يبقى ثابتاً فيه في الاتجاهات الرئيسية للحياة — اي عندما يجابه مشاكل الحياة الثلاث وهي مشكلة المركز الاجتماعي ومشكلة المهنة ومشكلة الحب . وليس طراز الحياة هذا وراثياً بل يعين وفق مركز الطفل في العائلة . وعليه فابناء الرجال البارزين يجدون انفسهم في موقف حرج فقد ييأسون من امكان نيل العظمة التي توصل اليها آباؤهم . لذلك قد يتخذون طرازاً لحياتهم لا يتطلب منهم جهودا خطيرة . وان اطفال الآباء الفقراء من ذوي المنظر الجذاب قد يختارون لأنفسهم طراز استعطاف واستجداء يدوم معهم في مواقف الحياة على اختلافها وان الطفل المحبوب يتخذ لنفسه موقفاً بان يكون مطمح

الانظار وان الطفل المبغوض يستهدف الفرار الى محل السلامة . والطفل البكر يستهدف وضعية الاحتفاظ بما لديه فهو محافظ ويتخذ الطفل الذي يليه وضع مسابق من البدء فهو دائماً يريد ان يتفوق . وتصدق هذه الحالة على طفل الكعدة اما الطفل الوحيد الذي لاينافسه احد فانه يتخذ وضعية يريد بها ان يخدمه الجميع وان يتحكم في الغير ولا يقصد ادلر بهذا ان التسلسل في الولادة يعين طراز الحياة بل انما يولد الطفل في ظروف تختلف حسب موقعه في الولادة لذلك يعلق اهمية كبرى على التربية البيتية فهو مثل فرويد يعتبر ان لحياة الطفل الاولى تأثيراً ثابتاً في حياته فيما بعد .

ولاينكر ادلر ما للشهوة الجنسية من الاهمية في الحياة ولكنه لايوافق فرويد على اعطائها المركز الرئيسي فهو يرى ان مكانها محفوظ في طراز الحياة الشامل ، الطراز الذي يعمل على تأكيد الذات والتفوق في المسائل النفسية . فالمحلل الذي يحاول ان يرجع كل شيء الى الشهوة التناسلية يمسخ الصورة الصحيحة للنفس البشرية في عرف ادلر وان المشكلة الاولى التي يجابها الطفل في حياته من المشاكل الثلاث المار ذكرها (اي المركز الاجتماعي والمهنة والحب) هي المركز الاجتماعي . وان تكيف الطفل تكيفاً اجتماعياً هو الذي يقرر فيما بعد طريقة وصول المرء الى المهنة او الحياة الغرامية . فاذا كانت اوضاع الطفل الاجتماعيه تساعده على الاستئناس بالغير وتعطيه النظرة المتفائلة الى الحياة فانه يستطيع فيما بعد ان يدخل الشهوة الجنسية في طراز حياته وان يكون ناجحاً في الحب والزواج . ثم اذا كانت اوضاعه اوضاع مهتم لسبق الغير يريد التفوق على الاقران فانه سوف يستخدم الشهوة التناسلية لهذا الغرض فيما بعد .

فالمهم في علاج المريض هو تحليل مشاكله حتى يصل المحلل الى كشف طراز الحياة الذي اتخذه لنفسه والهدف الرفيع الذي وضعه نصب عينيه في طفولته والذي لايزال يسعى للوصول اليه في شكل من الاشكال . ولاشك في ان مركز الطفل في العائلة هو المفتاح . ثم تجب معرفة المحلل ما يحبه المريض وما يكرهه والابطال الذين يتخيلهم سواء كانوا من القصص او التاريخ والاعمال التي زاولها المرء ، فان هذه كلها تساعد على معرفة طراز الحياة . كما ان اساليب جلوسه ووقفته ومشيته قد تدل على الاوضاع الاساسية الكامنة في النفس . وهكذا قل في طريقة المصافحة وحتى في اوضاع المرء في حالة نومه . فاذا رأيت رجلا مستلقياً على ظهره في النوم ممدوداً كالجندي في حالة الاستعداد فاعلم انه يشتهي ان يظهر كبيراً بقدر مايستطيع . اما من كان ملتوياً وملموماً كالقنفذ في نومه جارا الغطاء الى مافوق رأسه فانه لايكون طموحاً وجسوراً عادة . ومن كان نائماً على بطنه فذلك دليل الحمق والسخف

وهكذا يكشف المحلل طراز الحياة من حالات مختلفة تختلف باختلاف الافراد والظروف التي تحيط بهم . فان مجرد كون الطفل بكراً لايكفي للدلالة على طراز حياته بل تعامل كل عائلة كأن لها حالة خاصة .

ويستعمل ادلر تفسير الاحلام كما يفعل فرويد انما يختلف تفسير ادلر لها عن تفسير فرويد من حيث الاساس . فان فرويد يعتبر الاحلام معبرة عن الماضي وعن الرغبات التي كان يجب ان تنال في اليقظة ولكن الانسان لم يتوفق الى نيلها في اليقظة فهو ينالها في الحلم . اما ادلر فانه يعتقد ان الاحلام تعبر عن رغبات المرء في المستقبل وعما ينوي القيام به . فهي خير واسطة لكشف طراز الحياة اذ بها يتمرن المرء على ما يرغب في

القيام به من الافعال وتعبر عن اتجاهه النفسي . ولنضرب مثلا على ذلك ان رجلا يريد الزواج ولكنه متردد في الاقدام على الزواج فيرى في الحلم انه اوقف في حالة عبوره الحدود من مملكة الى اخرى وهو يهدد بالقبض عليه وزجه في السجن . ان تفسير هذا الحلم يعبر عن حالة المرء احسن تعبير . والاحلام تعبر عن المشاكل التي لم يستطع المرء من ايام طفولته ان يحلها ولكنه يريد ان يحلها . وكثيراً ما تؤيد اختباراتنا الشخصية في الاحلام رأي ادلر في تفسير الاحلام .

طريقة علاج المريض

طريقة علاج المريض عبارة عن هديه الى نقطة الضعف الأصلية فيه والى الطريقة التي يسلكها في سعيه للوصول الى التفوق والرفعة بحيث يرى هو نفسه ما يريد ان يقوم فيفعله وما يتخوف منه فيجتنبه . ومع انه لا يمكن تبديل طراز الحياة الاساسي بعد دور الطفولة يعمل المحلل على توجيه طراز الحياة في سبل عملية اجتماعية جديدة .

نظريات ادلر

ولو نظرنا الى مذهب ادلر من وجهة نظرية لوجدنا ان آراءه منتظمة ومنسقة . وهي بسيطة بدرجة انها لا تقتضي ان تنتمي الى سكلجة العمق . فاللاوعي ليس بالعامل المهم في نظر ادلر ولا يعتبر منفصلا عن الوعي . اللاوعي هو طراز الحياة المتكرر الى درجة لا ينتبه اليها المرء فيصبح لا وعياً . وكلما ادرك الانسان طراز حياته كان واعياً . اما المقاومة (اي التمنع والانتقال اللذان هما عماد نظرية فرويد) فلها تفسير معاكس عند ادلر . فالمقاومة (او التمنع) في عرف ادلر هي مقاومة

المريض للعلاج . فهو يقاوم العلاج لكي لا يشفى فيعود الى مشاكل الحياة التي قد يفشل فيها من جديد . اما الانتقال (انتقال الحب الى المحلل) فليس في عرف ادلر انتقالا حقيقياً بل هو طريقة لاستغلال المريض شخص المحلل . وليس الوعي واللاوعي في عرف ادلر ماهيتان متضادتان بل هما ماهية واحدة لها رغبات واحدة وميول واحدة فالشعور بالضعة في اللاوعي والجهاد في سبيل الرفعة في عالم الوعي هما صفحتان لماهية حراكية واحدة فلا نحتاج اذن الى كميات متضادة تتكون منها النفس .

سبق فقلنا ان نظرية فرويد في النفس تتلخص في كونها عبارة عن ماهيتين برغائب قطبيـة (اي متعاكسة) . اما ادلر فلا يحتاج الى التعاكس او القطبية بل يكتفي بالرغبة . فهو يقبل مبدأ الاندفاع في الحياة كسبب او باعث للافعال النفسية وهو مؤمن بالباعث النفسي . ولكن الباعث النفسي في نظره يختلف عن باعث فرويد وهو يعتبر ان الشعور بالضعة والرغبة في التفوق هما مفهومتان نفسيتان لماهية فسلجية واحدة وليسا بثنائية كما يزعم فرويد .

وكلاهما يؤكد اهمية الدور التكويني للنفس في الطفولة مع اختلافهما حول ما يحدث في هذا الدور مما يؤثر في الحياة العقلية .

وصفوة القول انه مهما صح من مذهب ادلر فانه يحوي حقائق كثيرة ذات قيمة عملية تنطبق على الحياة . ولا شك في ان مذهب ادلر هو ابسط من مذاهب فرويد واسهل منالا ولا سيما في مساعدة الاطفال على ملك ناصية مشاكلهم . فقد ثبت ان لمذهب ادلر اهمية عظمى في تربية الاطفال والعناية بهم لذلك كان له التأثير الظاهر في عالم التربية والتعليم .

مذهب كارل يونك

ولد كارل يونك في مدينة زوريخ من مدن سويسرة في سنة ١٨٧٥

وتعرف الى فرويد بعد دراسة التحليل النفسي وممارسته عدة سنوات . واتصل الاثنان مدة من الزمن بواسطة المراسلة والاجتماع في المؤتمرات وكان فرويد معجباً بمقدرة يونك ونباهته حتى انه ولاه رئاسة المؤتمر الاول للتحليل النفسي ظناً منـه ان انسحابه من الرئاسة اجدر به وان كسب يونك الى جانبه قوة . ولكن سرعان ما خاب ظن فرويد فقد ظهر ليونك ان فرويد ثائر ومتطرف في آرائه كما انه اعتبر بعض آراء فرويد غير ناضجة لذلك انشق عليه وأوجد مذهبـه المسمى بمذهب (علم النفس التحليلي) . وفي ما يلي خلاصـة اوجه الخلاف بين آراء يونك وفرويد :

١ — يختلف يونك عن فرويد في تعليل الاضطراب النفسي . فبينما نجد فرويد يذهب الى الماضي لكشف علة المرض وبينما نجد ادلر ينظر الى المستقبل نرى يونك يهتم بالحاضر ويعتبره سبب المرض توا فهو يرى ان في كل انسان عقد نفسية كثيرة حصلت له في ماضي حياته ولكن المهم هو سبب ظهور احدى العقد في وقت غير منتظر ، فما ذلك الا لسبب في حياة المريض الحاضرة . وان ضعف المريض في مقاومة الموقف الحاضر هو الذي يحمله على التراجع الى الماضي والتوسل بحالة ابتدائية طفلية واحياء وسيلة طفلية خيالية لمجابهة المشكل الحاضر . فاذا قوي المريض على الموقف الحاضر فان حالة الطفولة الشاذة غير الطبيعية تزول بالطبع . فسبب الامراض العصبية هو المواقف الحالية التي يجابهها المريض لا العقد النفسية . فيقول يونك « ازل العقبات من سبيل الحياة تزول جميع الاوهام والتخيلات الطفلية وتصبح غير فعالة وعديمـة التأثير كما كانت سابقاً . » ولكننا يجب ان لا ننسى ان الاوهام والتخيلات الطفلية

تصحبنا دائماً وتظهر بين حين وآخر بدرجة ما في كل شخص. اذن لا يرى يونك سبب المرض النفسي في الماضي بل يراه في الحاضر. واسأل « ما هي المهمة الحاضرة التي لا يستطيع المريض ان يقوم بها ؟ » . وفي معالجة الامراض العصبية يستعمل يونك طريقة التوارد الحر (وهي ان يسمح للمريض بان يذكر كل ما يرد بخاطره من الكلمات بدون تقييد) وتحليل الحلم كما يستفيد منها فرويد ولكنه قبل كل شيء يبدأ بالحاضر فيحلل وضعية المريض والظروف الحاضرة المحيطة به حتى يكشف موطن الضعف فيعالجه .

٢ — يختلف يونك عن فرويد وادلر في وصفه للذات وللبيدو (اي القوة الدافعة) فلا يوافق يونك على اعتبار اللبيدو مجموعة غرائز جنسية او اعتبار الذات دافعاً اساسياً في الحياة لاثبات النفس والرفعة بل يعتقد وجود قوة نفسية واحدة هي ارادة الحياة كما يعبر عنها الفيلسوف (شوبنهور) او الدافع الحيوي كما يسميها الفيلسوف (برگسن) . وهذه هي مجموعة القوى الحيوية في الانسان التي تستهدف النمو والفعالية والتكاثر. وتظهر هذه القوة في الطفل بشكل افعال غذائية. وتلذذ الطفل بالطعام هو تلذذ حيوي عام لا شهوة جنسية. لأن هذه القوة لم تتخذ صوراً معينة في الحياة بعد بل تظهر بمظاهر مختلفة في ظروف الحياة المختلفة فتظهر كقوة تناسلية وتظهر كحب الرفعة وتظهر في تحصيل القوت الى غير ذلك . فيونك قد جمع في الحقيقة الوجهات المتضادة وحدها . وهو يمزق آراء فرويد وتطرفه في جعل الشهوة الجنسية العامل الاوحد في الحياة . كما ان فرويد يرى ان يونك اضاع كل ماجمعه مذهب التحليل النفسي من الاختبارات والحقائق المبنية على الدافع التناسلي . وفي الحقيقة ان يونك اراد ان يجاري العلوم الطبيعية فاعتبر النفس قوة دافعة. وهذه القوة تأخذ اشكالا مختلفة وتتحول من شكل الى شكل كما يمكن

تحويل القوة الميكانيكية الى حرارة والحرارة الى كهرباء وهلم جراء. فهو يرى ان كلا من فرويد وادلر قد اخذ مظهراً واحداً من مظاهر هـذه القوة واعتبره الكل في الكل. ومشكلة المريض حسب هذه النظرية هي عـدم توفقه في تكييف هـذه القوة وتحويلها ومطابقتها للظروف التي تحيط به. اذن يمكننا ان نقول بان نظرية يونك في النفس اوسع واشمل واوفر من كل من نظريتي فرويد وادلر.

٣ — ان نظرية يونك في الوعي واللاوعي تختلف اختلافاً كلياً عن نظريتي فرويد وادلر. فيعتقد يونك ان اللاوعي عبارة عن مخزن عظيم يتكون من اختبارات النوع البشري السابقة ومن ميول المرء التي لم يتح لها البروز ومن الاشياء المنسية. فهذه كلها تفعل فعلها على الدوام في عالم الوعي. وعليه فاللاوعي قسمان: قسم اجتماعي ورائي عام يشترك فيـه النوع البشري ويحتوي على كل الافكار والخرافات والميول الابتدائية التي مر بها النوع في اثناء نشوئه. وقسم مكتسب وهو ما يختبره المرء في حياته فينسى ويخزن تأثيره وكذلك الميول المكبوتة التي هي في عرف فرويد الكل في الكل في اللاوعي. اما الوعي ففي عرف يونك هو ادراك الذات. فالمرء يبدأ بالوعي حين يدرك ذاته. فما لم يدرك المرء ذاتـه لا يـكون واعياً. فالطفل قبل ان يقول « انا » ويستعمل ضمير المتكلم لا يـكون داخلا في عالم الوعي بعد وجميع اختباراته منبعثة من اللاوعي. ان هذا الرأي ولا شـك هو رأي يتخصص به يونك. كما ان اللاوعي الاجتماعي الموروث وما فيه من اساليب تفكير ومن نزعات وتخيلات ابتدائية هو من اختصاص يونك. وعلى المحلل النفسي ان يـكشف تأثير اللاوعي الاجتماعي في حياة المريض ويوجد وحدة وترابطاً بين الوعي

واللاوعي .

٤ — اما رأيه في الاحلام فيختلف عن رأي كل من فرويد وادلر فلا يعتقد ان الاحلام تعبر عن الرغبات الماضية فقط كما انه لا يعتقد انها لا تعبر عن المستقبل ولا يعتبر محتويات الاحلام اموراً واقعية بل يتخذها رموزاً للتعبير عن مسائل وافكار ابتدائية مستمدة من اللاوعي الاجتماعي ومن اختبارات المرء اليومية . فالاب قد يكون رمزاً الى القوة اوالسلطة قد يكون رمزاً الى الام . والام قد تكون رمزاً الى الحياة فعلى من يريد التحليل النفسي ان يدرس اساطير الاقدمين وعاداتهم وافكارهم. وصفوة القول ان يونك يختلف اختلافاً اساسياً من حيث محتويات افكاره عن فرويد وادلر . ولا بد لي قبل الختام من الاشارة الى ان يونك يعتبر مراحل العلاج للمريض اربعة : الاعتراف فالتفسير فالتهذيب ثم التحويل . فعلى المحلل ان يتوصل الى حمل المريض على الاعتراف بالمشكلة ثم هو يعلل له ذلك ثم يدربه على التغلب على المشكلة حتى يقلع عن الحالة التي هو فيها. وبهذه المناسبة نشير الى ان يونك يستعمل شيئاً من الاساليب الدينية ويستمد من التدين قوة لمقاومة الضعف النفسي . وفي آخر كتاب ظهر له بعنوان (الانسان الجديد يبحث في الروح) نراه يناضل في سبيل الروحية نضالا منطقياً يفند آراء المتمسكين بالمادية تفنيداً قوياً .

٥ — مما اشتهر به يونك تقسيمه البشر الى نوعين : وهما المتظاهرون والمتباطنون . فالمتظاهرون هم اولئك الذين تظهر افعالهم وحركاتهم الى خارج النفس اما المتباطنون فهم اولئك الذين ينظرون دائماً في داخل انفسهم ويعكفون على التخيل الباطني . وقلما يتصلون بالعالم الخارجي . ان هذا التقسيم ولا ريب ليس تقسيما جازماً فقد وجد يونك نوعاً ثالثاً

وهو الانسان المتظاهر المتباطن في وقت واحد . فيذكرنا هذا التقسيم بتقسيم اليونان للبشر الى سوداوي وصفراوي وبلغمي ودموي كما يذكرنا بتقسيم كالتن للناس الى بصري وسمعي وحراكي . وقد يفيد تقسيم البشر في معاملة الناس ومعالجة المريض .

والخلاصة ان مذهب التحليل النفسي بفروعه قد ادى خدمات جلى لعلم النفس في تعليل بعض الظاهرات اوالتعبير عنها . فلا نجد في المذاهب الاخرى اهتماماً باللاوعي وتأثيره . ولا يمكننا ان نقول ان الآراء التي جاء بها رجال التحليل النفسي هي جازمة اوان لها صفة عملية تامة ، بل ان معظمها فرضيات ونظريات قد يثبت العلم بطلانها ولكن المهم هو انها كشفت حقولا جديدة في علم النفس اقتطف منها الطب والتربية والاجتماع ثماراً طيبة . فاستخدام التحليل وسيلة في العلاج قد ادى خدمات جلى في علاج الامراض العصبية وان بحوث فرويد وادلر قد جعلت اهمية جديدة للعناية بتربية الاطفال في سني حياتهم الاولى والمحافظة على الصحة النفسية ، كما ان تحليل العمل المدرسي قد دل على مواطن الحالات العصبية في المعلم والتلميذ وصار رجال المعارف يتطلبون سلوكا متوازناً من المعلمين . وكثيرون من المعلمين غير المتزوجين والمعلمات العوانس قد يسلكن مع الطلبة سلوكا يؤثر في طباعهم واخلاقهم كما ان على المعلم اليوم مهمة جديدة وهي تحليل نفس كل طفل من الاطفال والاهتمام بمشاكله بصورة مستقلة والعمل على ازالة العوامل الضارة من الصغر . ولا مجال هنا للخوض في تأثير نظريات تحليل النفس المختلفة في مناهج الدروس واوضاع المدارس لان علماء التربية الحديثة قد تأثروا تأثراً بليغاً ببعض الحقائق المكشوفة في التحليل النفسي . ولا يقل تأثير

التحليل النفسي في عالم التقاليد والنظم الاجتماعية والقوانين المرعية عنه في عالم التربية . فيمكننا ان نقول بان مذهب التحليل النفسي قد احدث ثورة فكرية اجتماعية خطيرة بعد الحرب وصار المفكرون الاجتماعيون والشبان المنورون يحملون حملات شعواء على التقاليدوالنظم الاجتماعية التي تولد الحالات والامراض العصبية في الافراد وان الثورة الفكرية هذه بحد ذاتها نتيجة مهمة لمذهب التحليل النفسي بقطع النظر عن الحقائق التي جاء بها هذا المذهب وفروعه .

الدكتور محمد فاضل الجمالي
نائب رئيس نادي القلم

جون ديوي
والفلسفة الاختيارية (التجاريبية)

يعد جون ديوي اشهر الفلاسفة الاميركيين المعاصرين وابعدهم أثراً في التفكير الاجتماعي الحديث ليس في امريكا فقط بل في العالم الحديث أجمع . وهو خير مثال حيّ للقاعدة القائلة ان الفلسفة هي نتاج المدنية التي يعيش فيها الفيلسوف ووليدة المحيط الاجتماعي . بل هو نفسه من اكبر الداعين لجعل الفلسفة ناتجة عن الحياة الاجتماعية موجهة لها . هذا ولا نكون انصفنا جون ديوي وفلسفته لو حاولنا تلخيص فلسفته في مقال واحد وكيف نستطيع ذلك وهو من اخصب الفلاسفة المعاصرين تفكيراً واكثرهم انتاجاً فلا تكاد تمر سنة الا وله مؤلف جديد . ومؤلفاته تربو على العشرين اشهرها « طبيعة الانسان وسلوكه »و« كيف نفكر » وهذان كتابان قيمان في علم النفس . و « الاختبار والطبيعة و « البحث وراء اليقين » و « التجديد الفلسفي » في النظريات الفلسفية قديماً وحديثاً و« الدمقراطية في التربية » و « المدرسة والمجتمع في فلسفة التربية » و« الفردية » و « مبدأ الحرية والعمل الاجتماعي » في معالجة الوضع لاجتماعي الحاضر . و « الايمان العام » في الدين و « الفن كاختبار » في فلسفة الفن الى غير ذلك من الكتب المتعددة في الفلسفة والاجتماع والتربية . لذلك قد فكرنا ان نبحث عن فلسفة ديوي في مقالات ثلاث على

الأقل تخص الاولى بالبحث في نشوء فلسفته والثانية في فلسفته الاجتماعية والثالثة في فلسفته التربوية .

نشوء فلسفته

يتوصل جون ديوي الى فلسفته بعد دراسة نشوء الفلسفات القديمة بنقدها وتحليلها . ثم يدعو الى نبذ كل الفلسفات القديمة ووضع فلسفة جديدة تلائم روح البحث العلمي الحديث وتقود التطورات العالمية في الحياة الفكرية الاجتماعية الناتجة عن المخترعات والتي يزداد نموها يوماً فيوماً بفضل التجاريب في العلم الحديث . وتدعى فلسفته (بالفلسفة التجاريبية) او الاختبارية وبالانكليزية Experimenta talsim وهي فرع من الفلسفة البراغماطية Pragmatism

نشوء الفلسفة

يستعين جون ديوي بدرس نشوء الفلسفة بعلم الانثروبولوجيا اي علم الانسان فيدرس الانسان الابتدائي ونشوء ثقافته (وتستعمل كلمة ثقافة هنا بالمعنى الانثروبولوجي - اي دراسة الانسان واساليب معيشته على اختلاف نواحيها مادية كانت او معنوية) فيجد ان الانسان الابتدائي كان محاطاً بالمخاوف والمخاطرات فكل لحظة في حياته قد تحمل معها فريسة يصطادها او قد تودي بحياته . وهو بعد كل حادثة يتذكر الحادثة ويسردها بشيء من العاطفة والاندفاع ولا شك في انه عند روايته الحادثة يطلق لتخيله العنان فيصور الحادثة كما شاء وعند حدوث حادثة شهيرة تتناقلها الالسن فتصبح اسطورة من الاساطير كما انها تبعد عن

الحقيقة والواقع بمرور الزمن وتوالي الايام . ثم ان الانسان الابتدائي يجد في القوى الطبيعية عوامل تعينه او تقاومه في هذه الحوادث ، فمنها ما يزيد في مخاوفه ومنهـا ما يبعث فيه الامل والسرور . وقد حاول الانسان منذ البدء ان يتسلط على هذه القوى فتخصص لها افراد اتقنوا المراسيم والطقوس التي تجري في الاحتفالات بالذكريات الخطيرة من جهة وكسب رضى القوى الطبيعية وعدم غضبها من الجهة الاخرى . وصار هؤلاء حملة الفلسفة وقادة الرأي مع العلم بان ما يحملونه هو مجموعة اساطير وذكريات وتخيلات لاعلاقة لها بالحقيقه الواقعية . فمنشأ الفلسفة اذن ليس الحقيقة والمنطق بل الذاكرة والخيال . ومن البدء اذن وجد انفصال بين الفلسفة من جهة وبين الواقع وملامسة الحقيقة من جهة اخرى . والطريقة الفلسفية ظلت طريقة تأملية خيالية وتصورية لا تجريبية عملية .

جاء اليونان بفلسفاتهم المتعددة ومعظمها من هذا القبيل . وربما كان سقراط اول فيلسوف اراد الجمع بين الفلسفة والواقع . فقد قال سقراط على الانسان ان يسأل عن صحة كل شيء ولا قيمة للحياة التي لم تبن على السؤال .

وجد سقراط ان الـكثير من المعتقدات الموروثة لا يؤيدها الواقع وصـار هو والشـباب يستخفون بهـا لذلك أدت فلسفته الحيـاتية الى حتفه .

وجاء بعده السفسطائيون وهم ايضاً أثاروا مشكلة الفلسفة لمحاولتهم التوفيق بين الفلسفة وبين الحقائق الحياتية فكانوا من المـكروهين . ولـكن فلاسفة اليونان جاءوا بالمنطق الذي استطاعوا به ان يبرروا

ويدعموا شكلياً كل ما يشتهونه من معتقدات وآراء . والشكل المنطقي هذا استخدم في التعاليم الدينية فيما بعد ووضعها على اساس فلسفي ولا سيما في الديانتين المسيحية والاسلامية .

والحقيقة ان الفلسفة في هذه الحقب ما كانت الا اداة مطيعة للاوضاع الفكرية الاجتماعية والسياسية والدينية السائدة ولم يكن الفيلسوف يجرأ على الخروج على التقاليد والعادات الا فيما ندر .

ثم ان الفلاسفة اعتادوا ان يتركوا الحياة الواقعية والاختبارات اليومية لشأنها وكرسوا معظم اوقاتهم وابحاثهم لمواضيع لا يمكن لاحدهم ان يدركها كمواضيع الصعود الى ما وراء الطبيعة للتوصل الى الحقائق الازلية العلوية او التوغل في اعماق نفس الانسان لاكتشاف هذه الحقائق الازلية . وهذه مواضيع لا يمكن ادراك كنهها ولاعلاقة لها بالحياة اليومية وبتجاريب الافراد والامم البتة . فمهمة الفلسفة اذن البحث وراء ما لا يدركه الناس وما لا علاقه له بالاختبارات اليومية . وظل العقل مقيداً بسلاسل التقاليد والمعتقدات الوهمية لا يجرأ على مجابهة الواقع ولا يستثني جون ديوي من هذا الوضع الفلسفي الا افراداً قلائل • فهو يحمل حتى على فلاسفة الالمان الذين ذهبوا الى ان هناك قوى عقليــة علوية في الانسان ومقولات يتوصل بهــا الى ادراك الحقائق الازلية فان جون ديوي يصرح بأن قوى وقابليات الانسان العقلية معروفة بالاختبار . فلا يرى مساغاً لضياع الوقت في السعي وراء مسائل لا يمكن ان يدركها عقل الانسان وليست له الآلة الذهنية للتوصل اليها . فعوضاً عن صرف الوقت في هذه الامور كان الاجدر بالفلاسفة ان ينصرفوا الى درس اختبارات الانسان وتوجيه حياته الاجتماعية والعمل على

حل مشاكله في هـذا البـاب . فهو يرمي كل الفلاسفه بالتقصير وينعت الفلسفه بالعقم اذا لم تنزل من خيلائها الى مستوى الاختبارات اليوميه فتقود الانسان الى ما فيه خيره وسعادته . ويعتقد ديوي أن اول من فلك عقال الفـكر من بين المحدثين هو الفيلسوف فرنسيس بيكون فهو من انبياء العصر الجديد وهو صاحب القول المأثور « المعرفه قوة » وهو يعني بذلك المعرفه المتأتيه من طريقه الفحص والاختبار لا النقل والسماع . فقد أثار بيكون حرباً ضروساً على الطرق الـكلاميه في البحث العلمي وهو يعتقد عقم الجدل الطويل الذي لا يؤدي الى نتيجه بل يحل محله المشاهدة والعيان . ويعتقد أن الأقدمين كانوا يتوارثون العلوم ليس عن طريقه المشـاهدة والعيان ولكن عن طريقه السماع والنقل ، لذلك كان العلم القديم مبنياً على الادعاء والمكابرة لا على الحقيقه والواقع . وهو لم يخدم البشر الخدمة المطلوبة . وكان منطق ارسطاطاليس يثبت هذا العلم غير المدعم بالحس والاختبـار بأساليبه الشكلية . وكان ذلك كله مدعاة للجمود . فالمنطق صـار واسطة لابقاء القديم على قدمه وليس أداة لمساعدة الفـكر على الاكتشاف والتجول في مناحي الطبيعة . وهـكذا حرم الانسـان التسيطر على الطبيعـة وجعله بدل ذلك يسيطر على أخيه الانسان . وربمـا كان بيـكون كما يعتقد ديوي اول الدعاة الى الفلسفـة الاختبـارية او التجريبية وقـد اعقب فلسفـة بيـكون نمو سريع في العـلوم والمخترعات كما رافقتـه اكتشافات جغرافيـة خطيرة للعالم الجديد وحركات دينية تجديدية في الكنيسة بقيـام مارتن لوثر ثم اعقب ذلك تفكير جـديد في السياسة والمجتمع وذلك بمجيء جان جاك روسو بنظرية العقد الاجتماعي . ونظرية العقد الاجتماعي هذه تفرض

ان البشر اجتمعوا واتفقوا على ان يعيشوا معا في ظل قوانين وانظمة تكفل المصلحة العامة . وهي نظرية على ما فيها من اغلاط اساسية تختلف اختلافاً كلياً عن النظرية القائلة بان الدولة كيان الهي مقدس وما على الفرد إلا ان يكون خاضعاً لها . وصفوة القول قد جاء عصر ذهبي جديد في التفكير العلمي والديني والسياسي ادى الى قلب حياة البشر بصورة اساسية ومع ذلك ظلت الفلسفة قابعة في زوايا الحجر بدون ان تخرج الى الطبيعة والى الحياة لتستمد مادتها منها .

الفلسفة الجديدة

قلنا ان العلم الحديث قد اوجد للعالم مشاكل فكرية واجتماعية واقتصادية لم تحاول الفلسفة التقليدية معالجتها والآن لنراجع ماذا فعل العلم الحديث وكيف انه يتطلب فلسفة تختلف باهدافها وطرقها عن الفلسفة القديمة .

قبل كل شيء بدل العلم الحديث فكرة الانسان في الكون فقد كان الاقدمون يعتقدون أن الكون محدود وانه ثابت لا يتغير وان العناصر والأنواع فيه معينة لا تتعدد. اما التحديد فكان يصحبه الاعتقاد ان الارض هي مركز الكون وتحيط بالارض طبقات تنتهي بالطبقة السموية وكانت هذه الطبقات تختلف الواحدة عن الاخرى في خفة مادتها فكلما ازداد الارتفاع عن مركز الارض خف الوزن وهكذا حتى نصل الى الطبقة السابعة فهي طبقة خفيفة للغاية وكل هذه الطبقات تتكون من العناصر الاربعة وهي التراب والماء والهواء والنار وكانت تصحب هذه الفكرة فكرة استقرار الارض وانها المحور كما كان يصحبها تفضيل الطبقات بعضها

على بعض فالمادة الثقيلة وهي التي تترسب اقل ثقلا من المادة الخفيفة التي تسمو وهكذا حتى نصل الى عالم الارواح . اما العلم الحديث فقد نسف هذه المعتقدات والافكار نسفاً مريعاً . فازاح الغطاء عن الكون واظهر انه اوسع بكثير مما كان يتصوره العقل البشري . فالكون حسب العلم الحديث غير محدود ولا نعرف له نهاية كما ان الارض ليست مركزاً للكون وماهي الا جرم صغير من الاجرام تدور حول الشمس . ولا يمكن للعالم الطبيعي اليوم ان يفاضل بين الاجرام السماوية عاليها او سافلها . فالكل في نظره سواء . كما ان مراكز الاجرام الكونية وحالاتها ليست ثابتة بل متحولة تابعة لقواعد الفيزياء والكيمياء . فهنالك تبدل مستمر في الحرارة وتقلص في بعض الاجرام وتفتت في الاخرى . اما انواع الاحياء فقد كان العلم القديم يعتقد انها معدودة وثابتة لاتغير اساسي فيها ولا جديد فالتغير الحاصل انهو الا شيء معين معلوم فالبذرة تصبح نبتاً والنبت ينتج البذرة ولكن النوع باق الى ماشاء الله . اما ان توجد انواع جديدة واما ان تحدث طفرة في تغير الانواع فهذا مالم يسلم به الاقدمون وقد كان ارسطو صريحاً للغاية في هذا المضمار . ومثاله المعروف ان ثمرة البلوط تؤدي الى شجرة والشجرة الى ثمرة وهكذا فان هناك دائرة معقولة لمجرى الحياة لاتخرج منها الانواع . بينما جاء علماء التاريخ الطبيعي في الحيوان والنبات وطبقات الارض فاثبتوا ان انواعاً حيوانية ونباتية قديمة انقرضت لاوجود لها الان الا في المستحاثات اليوم وان هناك تدرج وتطور في تكون هذه الانواع . وقد ماشت النظريات العلمية القديمة نظريات اجتماعية موازية لها فقد قسم البشر الى طبقات بعضها فوق بعض وعينت الحرف والمهن لكل انسان كانها ثابتة

لا تقبـل التغيير فتخص نوعاً من النـاس بالحـكم وغيرهم بالكهنوت وآخرون بالزراعة وآخرون بالحرف والصنائع الى غير ذلك . ولم يكن ليتعدى احد الحدود المرسومه له بحسب التقاليد المرعيه ولم تكن العلوم القديمه لتتدخل في حياة النـاس ولم تعمل على تحريكها عن محورها او ازعاجهـا من استقرارها ولم يكن الناس مستعدين لسماع شخص جاء بفكرة جديدة فالكل يسخر منه ويحتقره وهنا يصدق المثل الذي طالما ردده اخونا الجلبي واصفاً لاصحاب الرأي القديم القائل « النجاة في الاتباع والهلاك في الابتداع » او «ليس في الامكان ابدع مما كان» ومتى عرفنا ان المنطق القديم والرياضيات الاقليديه هي من العلوم التي كانت تستعمل لتثبيت ما كان على ما كان لم يبق عجب لقلة التطور في المجتمع وتأخر نمو العلوم .

ولكن العلم الحديث اخذ يكسر القوالب الاجتماعيـه واطلق العنان للقابليات والمواهب وجعلها مشاعه غـير متقيدة بطبقات او تقاليد . وبذلك اصبح الفكر البشري جوالا لا يقف عند حد ولا يقنعه الوصول الى هدف فكل هدف ثابت او عقيدة جامده تمنع الفكر من الاستمرار في الانتاج الى اللانهايه وبدون حد وبذلك تتوقف المخترعات وتجمد الحياة البشريه . ويقول جون ديوي ان هذه الثوره في افكارنا عن الطبيعة وطرق معرفتنا اياها قد ولدت مزاجاً جديداً للفـكر والخيال والآمال .

كل هذا جرى والفلسفة التقليدية لم تنزل من علياء سمائها ولم تتكيف وفق الموقف الجديد ولم تحسب له حساباً . لذلك بقيت نظرية كلامية عقيمة تتلمس حقائق غير منظورة وغير قابلة الادراك بواسطة العقل

البشري . وليس للانسان من الآلات والوسائط الفكرية ما يوصله اليها فالبحث عن هذه الحقائق العلوية وتضييع الوقت وراءها عبث في عبث .

اهداف الحياة

ليست اهداف الحياة معينة وثابتة من قبل وانما يضع الانسان اهدافه بواسطة تفاعله المستمر مع المحيط الطبيعي والاجتماعي . فالهدف ينشأ دائماً من الظروف المحيطة ومتى توصل الانسان الى هدف فذلك الهدف يصبح واسطة لهدف آخر وهكذا . فليس للانسان اهداف نهائية محدودة وانما الواسطة تعين الهدف والهدف يصبح واسطة لهدف جديد . هذا هو الحال في العالم الجديد الدائم التبدل وهذا ما تتطلبه الحياة الحبلى بما هو غير منتظر وجديد على الدوام . وما على الفلسفة الجديدة الا ان تحسب حساب العلم وتستقي من طريقته الاهداف . فالعلم كل يوم يكتشف شيئاً جديداً وهذا يتطلب وضع اهداف جديدة في العلم نفسه وفي المجتمع وما على المجتمع الا ان يطبق على نفسه نفس الطرق العلمية التي طبقت حوالي القرن السابع عشر على الفلك والعلوم السموية وفي حوالي القرن الثامن عشر على الفيزياء والكيمياء وفي القرن التاسع عشر على العلوم الحياتية فاحدث ثورات فكرية اساسية في كل منها فعلى البشر اليوم ان يطبق نفس الطرق التي ادت الى انقلابات في التفكير العلمي على التفكير الاخلاقي والتربوي والاجتماعي والاقتصادي ، بالاهداف في الطبيعة ومنها وهي تتجدد من يوم لآخر .

ان المثليين يضعون اهدافاً خيالية بعيدة عن الحياة لا يمكن للانسان ان يصل اليها ولا علاقة لها بحياته الاعتيادية اليومية فهو يمشي في جهة والاهداف في جهة اخرى ، ونتيجة ذلك ضياع للفلسفة ومفهومها .

الفلسفة الاختبارية « التجريبية »

ان الفلسفة التجريبية (الاختيارية) تعتمد في طرقها واهدافها على الاختبار والتجربة . وقد كان الأقدمون يحملون على التجربة لأنها زائلة وعرضية ولأنها لا يمكن الركون اليها وذلك لأن التجربة جزئية وحسية فكان افلاطون وارسطو يدعوان بأن الحقيقة الثابتة لا توجد في الجزئيات والمحسوسات في الكليات العلوية وكان لهم شيء من الحق لأن نوع الاختبار يتجمع وتجمع الاختبار يؤدي الى المفهوم والمفهوم الى التفكير والتفكير يقود في الاختبار الجديد ، فالانسان يجرب ويفحص ، اضف الى ذلك الفحص والتجربة العلمية بمعناها الحديث وهذا ما لم يكن موجوداً قديماً ، فعامل التطور العلمي الذي هو نتيجة التجربة والاختبار احدث انقلاباً في التفكير في قيمة التجربة والاختبار . صحيح ان التجاريب العلمية والاختبارات في المختبر لا تعطي الانسان حقائق قطعية ازلية يركن اليها فهي دائماً تترك مجال الاحتمال والتقريب والشك ولكنها اكثر ثمرة واحسن دليلا من الادعاءات الوهمية المبنية على خيال فردي ، تلك الادعاءات التي تعمل على جمود الفكر وايقافه من جهة وجمود المجتمع ودوام المصالح المستقلة فيه من الجهة الاخرى .؟



الاستاذ عبد الكريم الازرى

الاستاذ عبد الكريم الازري :

الانقلابات الاقتصادية الحديثة

في التفكير وتأثيرها الاقتصادي

(اقتصاد الوفرة واقتصاد الندرة)

(The Economy of Abundance anb The Economy of Scarcity .)

١ ـ توجد جهات كثيرة يمكن ان نهاجم منها النظام الاقتصادي السائد اليوم في العالم بصورة عامة وفي اوربة واميركا الشمالية بصورة خاصة . منها الجهة الاخلاقيـة التي ترتكز على توزيع الثروة والرفاهيـة . فيقول المنتقدون الاخلاقيون ان النظـام الذي يسبب رفاهية وسعادة ونعيماً لأقلية ضئيلة من الشعب ويترك الأكثرية الساحقة من الناس في بؤس وشقاء وفاقة هو لا شك نظام فاسد غير مشروع من الوجهة الاخلاقية الاجتماعيه ومن الضروري اما تبديله بنظام آخر يكون فيه توزيع الثروة والرفاهية اقرب الى العدل من النظام الحالي واما على الأقل تقليل ويلاته وضمان حد أدنى من الرفاهية والمدنية لمجموع الامة . ان هذا الانتقاد على اهميته الخطيرة ناقص لسبب مهم هو انه لا يكفي للحكم على نظام من النظم بالفساد ان نزنه بمعيارنا الاخلاقي فنجده ناقصاً ونعتبره على هذا الاساس غير مشروع . اذ ربمـا تكون الامكانيات الاقتصادية غير قادرة على تحقيق المستوى الذي تتطلبه الاحكام الاخلاقية الاجتماعية لمجموع الامة مهما كان شكل النظام الاقتصادي . وفي هذه الحالة يكون

انتقاد المنتقد الاخلاقي خيالياً غير عملي . بل يجب ان يتأيد الانتقاد الاخلاقي باثبات علمي عملي عن امكان تحقيق المستوى الذي ننشده لمجموع الامة اذا تغير النظام القائم وان يبرهن على ان هذا النظام اصبح عقبة ليس في سبيل التوزيع العادل فحسب بل في سبيل استثمار الامكانيات الاقتصادية افضل استثمار واوسعه يحقق لمجموع الامة مستوى من العيش اعلى بكثير مما تتمع به الآن .

٢ — التخلف الثقافي (The Cultural Lag)

ان معظم النظريات والآراء بنات المحيط الذي تنشأ فيه فلا شك أن المحيط الذي ينشأ ويعيش فيه المفكر يؤثر تأثيراً عميقاً خطيراً آرائه . ويكيفها ويصبغها بصبغته فتخرج مطبوعة بطابعه فتنتشر وتعم بين الناس اذا كانت لها قابلية الانتشار ثم على مر الزمن تتبلور وتتصلب وتفقد مرونتها وترسخ في النفوس وتكسب هيبة وروعة وجلالاً يلصق بها في رأي الكثيرين صفة الأبدية والدوام ثم تتغير الاحوال وتتبدل الظروف والعوامل وينشأ محيط مادي جديد يتطلب آراء ونظريات وفلسفة جديدة واذا بالآراء والنظريات والفلسفة العتيقة التي هي بنات المحيط المندثر قابضة على العقول فتحجر افهام المفكرين فضلا عن عامة الناس وتمنعهم من ادراك التبدل الطارئ على المحيط الجديد فينظر الناس الى المحيط الجديد بالمنظار العتيق الذي اعتادوا عليه ويطبقون الآراء القديمة على الأحوال الطارئة والنظريات العتيقة على الظروف الجديدة فيحصل تناقض ونزاع وحرب بين المحيط الجديد والفلسفة القديمة ، نزاع يهدد استقرار المجتمع الى زمن ويسبب ارتباكات كبيرة فيه الى ان

ينتهي الامر بانتصار المحيط الجديد واندثار النظريات العتيقة التي تحل محلها نظريات وفلسفة جديدة هي وليدة المحيط المادي الجديد .

فالنظريات والاراء اذن تتأخر في اكثر الاحيان وخاصة في ازمان الانقلابات المادية الكبرى من اقتصادية وغيرها عن اللحاق بالتطورات الطارئة على المحيط المادي.وهذا التأخر الذي اسماه البعض بالتخلف الثقافي هو احد الاسباب الرئيسية في الارتباكات الاجتماعية التي قاستها مختلف المجتمعات البشرية في التاريخ والتي تقاسيها بصورة خاصة المجتمعات البشرية في هذا اليوم .

واذا كان هذا التخلف الثقافي بارزاً في ناحية من نواحي التفكير الانساني فانها ناحية التفكير الاقتصادي . فيجد الباحث في تاريخ التفكير الاقتصادي ان القسم الاكبر من نظريات الاقتصاديين التي كانت سائدة الى زمن قريب هي نتاج الانقلابات الاقتصادية التي حدثت في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر عندما حدثت الثورة الصناعية الكبرى . لقد انعشت تلك الانقلابات الهائلة في وقتها التفكير الاقتصادي انعاشا عظيما وقد تم في الواقع رسم الخطط الاساسية والمبادىء الرئيسة للنظريات الاقتصادية قبل ان ينتهي النصف الاول من القرن التاسع عشر واستمرت تلك النظريات مع تغييرات طفيفة سائدة الى زمن قريب بالرغم من تغير الاحوال والانقلابات الهائلة التي حدثت في طرق الانتاج والتبادل والتوزيع وغير ذلك . فبينما الاحوال والظروف تغيرت والمحيط المادي تبدل بسرعة هائلة اذ بالنظريات الاقتصادية التي هي نتيجة الاحوال السائدة في اواخر القرن الثامن عشر وابتداء القرن التاسع عشر تبقى مسيطرة على عالم التفكير الاقتصادي الى

زمن قريب . ومع انه قد ظهر في خلال القرن التاسع عشر وهذا القرن عدد كبير من عظماء المفكرين الذين ادركوا خطورة الانقلابات الطارئة على العالم الاقتصادي واجتهدوا ان يتحرروا من سلاسل النظريات الاقتصادية التي انتجتها الثورة الصناعية لكن هذا النفر لم يكن ليؤثر تأثيراً كلياً في الاتجاه العام للتفكير الاقتصادي الا في الايام الاخيرة وعلى الاخص بعد الحرب العظمى حيث احدث ثغرة كبيرة في صفوف المفكرين الاقتصاديين المعروفين وجعل قسما كبيراً منهم يثور على النظريات الكلاسيكية القديمة التي اصبحت لا تمت الى واقع الحال في هذا اليوم بشيء .

٣ — المذهب الكلاسيكي واقتصاد الندرة

فالعالم الذي كان يفترضه المذهب الكلاسيكي يختلف كثيراً عن العالم الواقعي اليوم . كانت النظريات الكلاسيكية الاقتصادية تفرض عالماً اقتصادياً اهم خصائصه الندرة — اي ندرة المنتوجات وخاصة الكمالية منها وعدم كفايتها لسد حاجات المجموعات البشرية ورغباتها كان مالتوس يعتقد ان تزايد السكان على اساس التضاعف الهندسي سوف يجعل العالم في زمن غير بعيد بين انياب مشكلة القحط اما الامور الكمالية لم تكن ولن تكون (حسب الاعتقاد السائد في ذلك الوقت) الا في مقدور طبقة ضئيلة من السكان . هذا بينما اهم خصائص العالم الاقتصادي الحاضر هو وفرة الاشياء الضرورية منها والكمالية وكفايتها معظم الحاجات والرغبات اذا (وهذا شرط اساسي) تغيرت النظم الاقتصادية الحاضرة الى غيرها .

كذلك كانت تفترض النظريات الاقتصادية الكلاسيكية ان الذي يقرر القيمة هو توازن العرض والطلب على اساس المزاحمة الحرة بين وحدات انتاجية صغيرة متعددة ولم يكن الاحتكار يلعب الادوار ثانوياً في الحياة الاقتصادية هـذا بينما الاحتكار يلعب دوراً رئيسياً في العالم الاقتصادي الحاضر وفي تقرير القيمة . كذلك كانت المزاحمة الحرة وتوازن العرض والطلب كافيـان بصورة عامـة (إلا في احوال نادرة) لتنظيم الموازنة بين الانتاج والاستهلاك ـ اي لتهيئة مقدار من القوة الشرائية في ايدي المستهلكين كافية لشراء الكميات التي تعرض او يمكن ان تعرض في الاسواق من مختلف المنتوجات . اما اليوم فان اعظم معضلة يئن منها العالم الاقتصـادي هي في الحقيقـة اختلال التوازن بين القوة الشرائيـة والقوة الانتاجية ـ وبعبارة اخرى ان اكبر عيب في النظام الاقتصادي الحـاضر هو عجزه عن تهيئـة مقـدار من القوة الشرائيـة في ايدي المستهلكين كافية لشراء الكميات المعروضـة او التي يسهل عرضها في الاسواق .

كذلك كانت تفترض النظريات الكلاسيكية ان قاعدة التوازن بين العرض والطلب على اساس المزاحمة الحرة كافية لأن تخلق توازناً لطيفاً حساساً بين عوامل الانتاج الثلاثة — اليد العاملة ورأس المال والارض — مما لم يكن يسبب عطالة لأي واحد منها وخاصة اليد العاملة . هـذا بينما الاحوال الاقتصادية الحاضرة كلها تبرهن على عكس ذلك . فالبطالة اليوم مستولية على قسم كبير من اليد العاملة والارض ورؤس الاموال في اكثر البلاد الصناعية .

كذلك لم تـكن نتيجة الاختراعات في السابق الاستغنـاء عن اليـد

العاملة ووضع جمهور كبير من العمال في حالة البطالة بل كان الامر على عكس ذلك لان كل اختراع جديد كان يفتح باباً جديداً ومجالا واسعاً لاستخدام العمال وهذا احد الاسباب المهمة لتزايد السكان في البلاد الصناعية الاوربية والاميركية . اما اليوم فنرى عند استعراض الوضع الاقتصادي الحاضر ان الاختراعات اصبحت في النظام الاقتصادي الحاضر خطراً كبيراً يهدد استقرار اليد العاملة ويجعلها في خوف مستمر على عيشها .

كذلك كانت رؤوس الاموال في السابق من الندرة بحيث كان التوفير من اعظم الفضائل . اما اليوم فان المشكلة هي في كيفية استثمار رؤوس الاموال العاطلة استثماراً رابحاً .

اذن بينما الحقائق والاوضاع الاقتصادية تغيرت هذا التغير المدهش بين ابتداء القرن التاسع عشر وابتداء القرن العشرين وعلى الاخص بعد الحرب العامة (كما سنرى ذلك مفصلا في هذه المحاضرة) اذا بالنظريات الكلاسيكية المسيطرة تفترض اوضاعا لاتختلف في قليل او كثير عن الاوضاع السائدة في ابتداء القرن التاسع عشر غير عابئة بكل هذا التبدل الباهر الذي لم يتمكن من زعزعة سيطرتها .

٤ — اقتصاد الوفرة TheEcnomy of Abundance

هذا هو عنوان الكتاب العظيم الذي حفزني على القاء هذه المحاضرة التي يدور قسم كبير منها على استعراض الآراء القيمة التي وردت فيه .

لقدمي ستيوارت جيس (Stuart Chase) الاقتصادي الاميركي الكبير كتابه باقتصاد الوفرة (The Economy of Abundauce)

مميزاً للوضع الاقتصادي الحالي عن الوضع الاقتصادي الذي ساد تاريخ الانسان منذ ان خلق الى حوالي ١٩٠٢ وهو التاريخ الذي يعتبره ستيوارت جيس الحد الفاصل بين اقتصاد الندرة واقتصاد الوفرة . ويمكننا في الحقيقة ان نعتبر ابتداء القرن العشرين فاتحة لاعظم انقلاب حدث في تاريخ الانسان . في هذا التاريخ تكشفت امام الانسان امكانيات للرفاهية والسعادة المادية وغير ذلك كافية لان تشمل جميع البشر بنتائجها الحسنة اذا عرف طرق الاستفادة منها . في هذا التاريخ تمكن الانسان من القضاء على الندرة وفتح ابواب الوفرة امام البشر باجمعهم — الوفرة القادرة على تمكين جميع الناس من التمتع بمعظم الكماليات فضلا عن جميع الضروريات ولكن الانسان الذي كشف النقاب عن هذه الامكانيات الواسعة المبهجة — هذا الانسان نفسه نجده غير قادر على الاستفادة من نتائج مكتشفاته ومخترعاته . فما السبب يا ترى ؟ هذا ما سنجيب عنه في هذه المحاضرة .

ومع ان معظم فصول كتاب ستيوارت جيس تدور على الوضع الاقتصادي الاميركي فان الابحاث التي يدخل فيها عامة تنطبق على الاوضاع في جميع الدول الرأسمالية الاخرى تقريباً .

يبدأ ستيوارت جيس كتابه بمقارنه مقدار القوة المحركة التي كانت تستخدمها اميركا في ١٨٣٠ بمقدار القوة المحركة التي كانت تستخدمها في ١٩٣٠ اي بعد مائة سنة . فيجد ان القوة المحركة المستخدمة في واقع الحال في سنة ١٩٣٠ تعادل اربعين مرة القوة المحركة التي كانت مستخدمة قبل مائة سنة . ويجب ان نلاحظ ان المقارنة ليست بين القوة (عدد الحصن Horse Power) المعدة للاستعمال ولا بين القوة الكامنه الغير

مستغلة ولا بين مقدار الاستفادة من كل كمية من القوة بل المقارنة هي فقط بين كمية القوة المستعملة (اي مقدار الفحم والبنزين والنفط وغير ذلك مما يستهلك) في سنة ١٩٣٠ و ١٨٣٠ . اما اذا اخذنا بنظر المقارنة القوة المعدة الغير مستعملة اومقدار الاستفادة من كل كمية من القوة اومقدار القوة الكامنة الغير مستغلة فان النسبة تكون اكثر بكثير من واحد لاربعين بل تكون اضعاف اضعاف هذا الرقم

فبينما زادت القوة المستعملة ٤٠ مرة بين ١٨٣٠ و ١٩٣٠ اذ بالرفاهية الانسانية في اميركا لم تزدد اكثر من مرتين خلال هذه المدة . فاين ذهبت هذه الزيادة الهائلة في القوة المحركة المستهلكة ؟ هل من المعقول اذن ان زيادة ٤٠ مرة في القوة المحركة المستهلكة تنتج مثل هذه الزيادة الضئيلة في الرفاهية الانسانية؟ هذا مع العلم بأن الاختراعات زادت كثيراً في الاستفادة من كل وحدة من القوة المحركة .

ايصح اذن ان ٩٧٫٥ في المائة من هذه القوة المستهلكة يذهب سدى؟ واذا كان ذلك كذلك فاين هو موضع التبذير ؟؟

جواباً عن هذا السؤال يأتينا المؤلف بأربع عشرة مادة تبين لنا المواطن التي تبذر بها هذه القوة . فمن قراءة هذه المواد التي نجدها مسطورة في الصفحات ٦ و ٧ و ٨ من الكتاب تتبين لنا حقيقة ناصعة وهي ان معظم التبذير ناتج من نقص رئيسي هو ان هذه القوة المحركة وجميع التجهيزات الانتاجية لم تؤسس لغاية الخدمة والرفاهية الانسانية بل لغايات اخرى لاعلاقة لها بالرفاهية الانسانية ، وهذه الزيادة الضئيلة التي حصلت في خلال مائة سنة في الرفاهية الانسانية انما هي نتيجة ثانوية غير مقصودة . ثم يأتي في الفصل الثاني الى بحث مقدار ما كان يمكن ان ينتج من الرفاهية

لكل فرد اميركي لو استغلت هذه الزيادة الهائلة في القوى المحركة استغلالا صحيحاً . فيستعرض تقديرات مختلف الاقتصاديين والمفكريين في هذا الباب ومن المناسب ان نتبعه في استعراضه هذا .

مثلا قد قدر التقنوقراطيون (Tecnocrats) انه من الممكن اذا اديرت الصناعة وجميع المرافق الاقتصادية الاميركية ادارة علمية فنية ان يرتفع دخل كل عائلة اميركية الى حد ٢٠٠٠٠ دولار سنوياً مع تنقيص ساعات العمل الى حد ١٦ ساعة في الاسبوع .

اما جارلس ستينمتز (Charles Steinmetz)المهندس الكبير باني الشهير ومخترع الموج الكهربائي المتناوب (A. C) فقد رأى امكان الاكتفاء بساعتين من العمل في اليوم ولو انه لم يقدر الدخل السنوي لكل عائلة .

وقد صرح فرد هندرسون في كتابه « النتائج الاقتصادية للانتاج بواسطة القوى المحركة » (The Economic Consequences of Power Production by Fred Henderson) مايلي : —

« يمكننا بدون اي زيادة في معلوماتنا عن طرق استعمال القوى المحركة والوسائط الفنية وبدون اي زيادة في المواد الموجودة ان نضاعف كمية المنتوجات عشر مرات اذا تمكنا من تزويد الناس بالقوة الشرائية لشراء حاجاتهم . مع العلم بأن اوقات العمل لن تكون ثماني ساعات اوست ساعات في اليوم بل تتناقص الى حد ستة اشهر في السنة على اكثر الاحتمالات كما هي الحالة الآن عند اساتذة الجامعات . »

وقد قدر بكمنستر فولر (Buckminister Fuller) انه اذا تمكنا من القضاء على التبذير في الاعمال لاصبح في امكان اربعة ملايين

اميركي اشتغال ٧ ساعات في اليوم مدة ٥٢ يوما في السنة (اي يشتغل العامل ٣٦٤ ساعة في السنة او بمعدل ساعة واحدة في اليوم) ان ينتجوا جميع الحاجات الضرورية لجميع سكان الولايات المتحدة الاميركية .

وقد صرح والتر بولاكوف (Walter Polakoo) انه يكفي لانتاج جميع الحاجات والكماليات الاميركية اذ يشتغل العمال ست ساعات في اليوم واربعة ايام في الاسبوع واثنين وخمسين اسبوعا في السنة - اي حوالي ٢٤ ساعة في الاسبوع مع عطلة اسبوعين في السنة .

وقد قدرها رولد راك في كتابه « التقدم العظيم في علم الصناعة » (The great Technogy by Harold Rugg) انه من الممكن ان يحصل كل فرد على حد ادنى من الرفاهية يزيد على الحد الادنى الذي توصلت اليه اميركا في سنة ١٩٢٩ (وهي سنة الرخاء العظيم) بعشر الى عشرين مرة مع تنقيص ساعات العمل الى ست عشرة اوعشرين ساعة في الاسبوع .

وقد اعلنت الجمعية الاميركية للعلوم الصناعية ما يلي : —

« نجد الآن ان بين عشرة واثني عشر مليون رجل وامرأة من المستخدمين الآن في مختلف الاعمال الصناعية الانتاجية والتوزيعية ينتجون ويوزعون جميع المواد الخام والبضاعات المصنوعة التي يحتاج اليها شعب مؤلف من ١٢٥ مليون نسمة . اي ان حوالي عشرة في المائة من السكان يكفون الان لتهيئة جميع حاجات المجموع فاذا مااخذنا بنظر الاعتبار التقدم الفني والتحسينات العظيمة التي اخذت تلوح الان في افق الصناعة لامكننا ان نتنبأ بسرعة هبوط هذه النسبة هبوطاً عظيما » .

وقد كتب ركسفورد تكويل الاميركي Rexford Tugwell مايلي عن اميركا .

« ان صناعاتنا تقوم الآن باود امة كبيرة وتزودها بالبضائع والمنتوجات بسخاء ماكان ابداً معهوداً في السابق . هذا مع ان الجهود الانسانية المبذولة في سبيل الحصول على هذه الخدمات هي اقل بكثير مما كان معروفاً في مكان اودور من ادوار التاريخ الانساني . فاذا ماوسعنا نطاق الاعمال الحاضرة وقضينا على آثار المزاحمة ونظمنا الصناعة على اساس منهاج علمي شامل يأخذ بنظر الاعتبار جميع المرافق وتشتغل وبتوجيه كل صناعة من الصناعات الى اعلى حدود طاقتها لامكننا ان نزيد امكانيتنا الاقتصادية اضعافاً مضاعفة » .

وقد كتب ثورشتاين فيبلن(Thorstein Veblen) الاقتصادي الاميركي الكبير فى سنة ١٩١٩ مايلي « اصبح من الاسرار المفضوحة انه لوفسح المجال امام الاختصاصيين الصناعيين في اميركا لامكنهم ان يزيدوا بسهولة منتوج الصناعة الاميركية بضعة اضعاف ـ وتقدر الزيادة بين ٣٠٠ و ١٢٠٠ بالمائة .

وقد كتب حديثاً السر آرثر سولتر(Sir Arthur Salter)الاقتصادي العالمي المعروف ورئيس القسم الاقتصادي في عصبة الامم سابقاً في كراسة له مايلي :—

« اصبح الانسان الآن لاول مرة في التاريخ يملك من المرافق المادية والمهارة مايكفي لتزويد جميع سكان الارض بالحاجيات والكماليات بل يمكن ان اقول ان هذه المرافق وهذه المهارة قادرة على تزويد مجموع من السكان اكبر بضع مرات من المجموع الحالي بمستوى من العيش اعلى

بكثير من اي مستوى عرفناه لحد الآن وعلى اعطاء كل فرد ليس فقط الثروة المادية بل الفراغ والراحة والفرص التي يحتاجها لانماء قابلياته واستثمارها اوسع استثمار وللتلذذ بكامل تراث المدنية التي يعيش فيها » .

وقد صرح الاقتصادي الانجليزي ج . ا. هوبسون J.A.Hobson بما يلي : —

« يمكن للعالم بدون اي عناء انساني وبدون اي زيادة في الآلات والمكائن والقوى المحركة والمرافق الموجودة والعمل والادارة الحالية ان ينتج من الثروة ضعف ماينتجه الآن على اقل تقدير » .

وهكذا يمكننا ان نسترسل في اقتباس تقديرات اخرى عن هذا الموضوع على انه لاشك ان بعض هذه التقديرات لايخلو من مبالغة وبعضها الذي يتعرض لسكان الكرة الارضية بأجمعهم بما فيهم سكان الهند والصين قريب من الخيال . غير ان معظمها مبني على تقدير صحيح واقل ماتدل عليه بمجموعها ان التبذير الهائل في استعمال القوى والامكانيات الاقتصادية الاميركية حال دون حصول الشعب الاميركي على الثمرات المأمولة من هذه الامكانيات العظيمة .

وقد قدر ستيوارت جيس في كتابه مأساة التبذير The Tnagedgy of Waste على اساس احصاء ١٩٢٠ الرسمي ان اعمال (٢٠،٥٠٠،٠٠٠) عامل من اصل (٤٠،٠٠٠،٠٠٠) عامل في الولايات المتحدة الاميركية هي جهود مبددة عقيمة . فكان يمكن على هذا الاساس لو استغلت القوى الانتاجية استغلالا صحيحاً ان يضاعف مستوي العيش الاميركي . هذا في سنة ١٩٢٠ وقد حصلت انقلابات هائلة منذ ذلك التاريخ كما سيتبين لنا فيما بعد . وماينطبق على اميركا ينطبق على غيرها من البلدان الصناعية الاخرى

وقد بحث ستيوارت جيس في الفصل الثالث من كتابه الذي يدور عليه بحثنا بحثا مستفيضا في الرفاه الذي يمكن ان يصيب سكان اميركا لو ارتفع هذا الشرط المقيد الخانق للقوى الانتاجية ونظمت ونسقت الصناعة على اساس علمي ففي فقد استعرض امكانيات اميركا على انتاج الطعام والملبس والمسكن وعلى مافي ذلك من تزويد الناس بوسائل الصحة والتعليم والتنزه والتسلية وغير ذلك . وقد توصل في النهاية بعد اخذ جميع العوامل المساعدة والمعرقلة بنظر الاعتبار الى ان في امكان اميركا في خلال عشر سنوات من تنظيم الانتاج على اسس علمية ان تحصل على مستوى في العيش ثلاث مرات اعلى من المستوى المتوسط الصحي البسيط اما من وجهة النقد فهو يقدر لكل عائلة ٦٠٠٠ دولار او ١٢٥٠ دينارا في السنة على اساس اسعار ١٩٢٩ مضافاً الى ذلك الخدمات الاجتماعية والثقافية التي ليس من الممكن بتاتاً تقديرها بالدراهم .

ولنستعرض الآن الثروة العادية الاميركية (صفحة ١٩ من الكتاب) .

كان يوجد في اميركا في سنة ١٩٣٣ حسب احصاء ربرت دون (Robert Doane) :—

١٢٦٠،٠٠٠،٠٠٠	مشارة من الارض المزروعة
٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠	مشارة من الغابات
١٦٠،٠٠٠،٠٠٠	مشارة من الارض المملوءة فحماً وحديداً ونحاسا ومعادن اخرى
٥٤٦٤٠،٠٠٠	مشارة من الانهر والبحيرات
١٦٠،٠٠٠،٠٠٠	مشارة من المدن والقرى
٣١٦،٠٠٠	بئر نفط

٦،٥٠٠،٠٠٠	مزرعة
٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠	من انواع الطيور الداجنة
١٦،٠٠٠	مدينة كبيرة وصغيرة
٣٧،٠٠٠،٠٠٠	بناية (مدارس وبيوت ومستشفيات ومعامل وكنائس ومكتبات وغير ذلك)
١٢٧،٠٠٠،٠٠٠	مكائن رئيسية كبيرة (لوكوموتيف ، مكائن سيارات الخ ...)
٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠	حصان من القوى المحركة المستعملة
٢،٠٠٠،٠٠٠	ميل من الطرق الفرعية
٧٥٠،٠٠٠	ميل من الطرق الرئيسية المعبدة
٢٥٠،٠٠٠	ميل من السكك الحديدية
٥٩،٠٠٠	ميل من الأنهر والاقنية القابلة للملاحة
٧٣٦،٠٠٠	ميل من انابيب النفط
١٦٠،٠٠٠	من خطوط نقل القوة الكهربائية
٨٨،٠٠٠،٠٠٠	ميل من خطوط التلفون والتلغراف والخطوط التلغرافية البحرية

وبعد قراءة هذا الجدول الهائل متذكرين ان كل هذه الثروة هي لمائة وخمسة وعشرين مليون نسمة الانعجب كيف يبقى اميركي واحد في فاقة ولكن الحقيقة هي ان نصف سكان الولايات المتحدة الاميركية في عوز وفاقة .

ماهي الاسباب ؟

الاسباب الواضحة هي ان عملية الانتاج لم تؤسس وتهيأ بقصد

الانتاج والخدمة بل بقصد البيع في السوق للحصول على ربح فحيث لاربح لا انتاج . فهذه المكائن الهائلة وهـذه الملايين من مختلف انواع الوسائط الانتاجية وهـذه القوى المحركة كلها لاتتحرك الا اذا وجـد مديروها ان المواد التي تنتج من تحريكها قابلة للبيع بقيمة رابحـة وفي الساعةاوالدقيقة التي يتوقفـفيها الربح تتوقف الحركة . فاذن هذا الصرح الهائل كله قائم على اساس واحـد هو قابلية المنتوجات لان تبـاع بقيمة رابحة واقل تضعضع يصيب هـذا الاساس يهـدم الصرح ويشل هـذه الوسائط عن العمل بل يذيب القسم الاكبر من قيمتها التي هيمستمدة بالدرجة الاولى من قابلية منتوجاتها وبضائعها من ان تباع بقيمة رابحة وسوف نرى ان هـذا الاساس من ادهى الاسس التي يمكن ان يعتمـد عليها صرحانتاجي كبير مثلهذا الصرح الاميركي او الصروحالانتاجية الموجودة في البلاد الرأسمالية الاخرى وانه شرط مكبل مقيد بل خانق لعملية الانتاج .

اذن من يتمكن ان يستفيد من هذا الصرح الانتاجي الهائل ؟ من يتمكن ان يحصل على هذه المنتوجات الـكثيرة العديدة المتنوعة ؟ الجواب من يملك القوة الشرائية . ولـكن من اين تستمد هذه القوة الشرائية وهل هي كافية لاستهلاك جميع المنتوجات بقيمة فيها ربح لاصحاب الوسائط الانتاجية ؟ اما السؤال الاول فسنجيب عنه بعد قليل واما السؤال الثاني فالجواب عنه سلبي بدون تردد لان مشكلة القوة الشرائية هي الاساس في جميع هذه الازمات الاقتصادية التي خيمت على العالم بشكل هائل .

فاذن القوةالانتاجية مقيدة بشرط الربح والربح مقيد بشرط وجود

القوة الشرائية الكافية لاستهلاك انواع البضائع . فالذي يريد تشغيل ماكنة الانتاج واستثمار قواها خير استثمار عليه ان يحل مشكلة القوة الشرائية . وكل حل لا يتعرض لها هو حل فاشل . وتوقف الانتاج على الربح هو في الحقيقة اكبر عامل على عدم الاستفادة من هـذه القوى الانتاجية الهائلة التي حصل عليها الانسان وهو السبب في هذا العوز وهذه الفاقة المخيمة على قسم كبير من الناس . ورفع هذا القيد من اول الضرورات لتحرير القوى الانتاجية من جهة والقوى الاستهلاكية الشرائية من جهة اخرى .

اختلال التوازن بين القوة الشرائية والقوة الانتاجية

ان اكبر نقص في النظام الاقتصادي القائم الآن هو اختلال التوازن بين القوة الانتاجية من جهة والقوة الاستهلاكية من جهة اخرى . واختلال التوازن هذا هو اساس الازمات الاقتصادية والبطالة التي يصاب بها بين آن وآخر جمهور كبير من العمال في الدول الصناعية . ما هي اسباب هذا الاختلال وهل هو شيء ملازم للنظام الاقتصادي الموجود وهل هو في ازدياد او في تناقص ؟

يسير النظام الاقتصادي الحالي على قاعدة او نغمة معينة هي نغمة الربح المركب ـ اي يجب ان تسير جميع اجزاء الماكنة الاقتصادية بسرعة او نغمة واحدة وهـذه السرعة او النغمة يمكن تمثيلها بشكل خط بياني لربح مركب يتراوح بين ٣ و ٥ بالمائة . فاذا ما تأخر قسم من الماكنة عن اللحاق بهـذه السرعة اختل التوازن وحصل ارتباك في الحياة الاقتصادية .

فاذا تزايدت رؤس الاموال المتطلبة للربح بنسبة ٣ الى ٥ بالمائة في

السنة فان الانتاج المادي يجب ان يتزايد بهذه النسبة لكي يمكن دفع الفوائد على رؤس الاموال وتزايد المنتوجات يحتاج بدوره الى تزايد مثله في القوة الشرائية وقس عليه . ويمكن اثبات هذه الحقيقة فيما يخص تزايد الديون المستثمرة ورؤس الاموال بعمل خط بياني يمثل مجموع الديون المستثمرة ورؤوس الاموال في خلال مدة طويلة . وقد قدر روبرت دون تزايد الديون المستثمرة ورؤوس الاموال في العالم بما يلي : (المقصود بالديون هو جميع انواع الاموال المستثمرة من حصص وسندات وغير ذلك مما يتطلب فائدة او ربحاً سنوياً) .

سنة ١٥٠٠ ميلادية	٤٠٠	مليون دولار
سنة ١٦٠٠ ميلادية	١٠٠٠	مليون دولار
سنة ١٧٠٠ ميلادية	١٥٠٠	مليون دولار
سنة ١٨٠٠ ميلادية	٨٠٠٠	مليون دولار
سنة ١٩٠٠ ميلادية	٤٠٠٠٠٠	مليون دولار
سنة ١٩٢٩ ميلادية	٧٠٠٠٠٠	مليون دولار

ومع ان هذه التقديرات تقريبية لحد بعيد غير ان اتجاه النمو صحيح لاريب فيه .

اما فيما يخص ديون امريكا ورؤوس اموالها المستثمرة فقد قدرها بما يلي : —

سنة ١٨٦٠ ميلادية	٤١٠٠	مليون دولار
« ١٨٧٠ «	٦٢٠٠	« «
« ١٨٨٠ «	٩٣٠٠	« «
« ١٨٩٠ «	١٦٨٠٠	« «

«	١٩٠٤	«	٣٦٨٠٠	«	«
«	١٩١٠	«	٤١٣٠٠	«	«
«	١٩١٥	«	٦١٧٠٠	«	«
«	١٩٢٠	«	١١٦٦٠٠	«	«
«	١٩٢٩	«	١٧٥٦٠٠	«	«
«	١٩٣٢	«	١٣٦٣٠٠	«	«

كل هذا التزايد الهائل في الاموال المستثمرة يجب ان يصحبه تزايد مماثل له في الانتاج والا فتذوب الفوائد التي تتطلب هذه الاموال وتزايد الانتاج بهذه السرعة يحتاج الى تزايد مثله في الاختراعات والقوة الشرائية فاذا حصل اقل خلل في هذه الموازنة توقفت العملية الانتاجية . فمثلا اذا قلت سرعة الاختراعات او اذا توقف مجموع السكان عن الزيادة تهدد الربح لاصحاب الديون لأن تلك الاموال المستثمرة انما هي قائمة على اساس انتاج متوسع بسرعتها .

ان اصحاب الديون وحملة الاسهم والسندات وغير ذلك من الاموال المستثمرة لم يحسبوا لهذا حسابا بل اصبحوا يعتقدون ان اموالهم لها قابلية النمو من تلقاء نفسها غير آبهين بالعوامل الاخرى الموجودة في هذه الموازنة الاقتصادية .

على ان هذه العوامل الاقتصادية بقيت تنمو بسرعة واحدة تقريباً وتسير على نغمة واحدة لمدة طويلة ولكن كان لسيرها المتوازن هذا حد اذا اتى زمن اختل فيه هذا النمو المتوازن فقد . قلت سرعة النمو في بعض اجزاء الموازنة الاقتصادية بينما استمرت اجزاء اخرى ازدادت على سرعتها واجزاء اخرى ازدادت سرعة . اما اسباب هذا الاختلال فهي واضحة : —

اولا — لان قوانين الفيزياء لاتساعد على تزايد المنتوجات المادية بسرعة الربح المركب الى الابد . بل ان لهذا النمو حدوداً طبيعية لايمكن تجاوزها. ولنأخذ مثلا سرعة التوسع فى انتاج الحديد في اميركا . فلو ان هذا التوسع استمر على نسبة سرعته المعروفة في سنة ١٨٦٠—١٨٧٠ لاصبح المنتوج السنوي للحديد في هذا اليوم مايعادل حجم الكرة الارضية . ثانيا — ان قوانين البيولوجيا لاتساعد هي ايضا على تكاثر السكان وتوسع الحاجات الانسانية توسعاً غير محدود بل ان للنمو البيولوجي حدوداً لايمكن تجاوزها بتاتاً . وقد بدأت هذه الحقائق تظهر في افق الوجود حوالي سنة ١٩١٠ وقد كان ظهورها تدريجيــاً الى ان اصبح دويها يخرش الآذان في سنة ١٩٣٠ . وقد كان ظهور هذه الحقائق في انكلترا حوالي سنة ١٩٠٠ .

فبينما نرى ان سرعة النمو (لا المقدار) للانتاج المادي (Physical Production) اخذت بالهبوط منذ سنة ١٩١٠ (بالطبع اختلف تاريخ ابتداء الهبوط وسرعة الهبوط من صناعة الى أخرى) اذا برأس المال المستثمر يستمر على النمو بسرعة متزايدة . وقد استمر هذا التباعد في الاتجاهين واستمرت الهوة فى التوسع حتى طمس فيها العالم في سنة ١٩٣٠ . فالقوة الانتاجية اصبحت تنوء تحت ثقل لاتتمكن من تحمله من الديون ورؤوس الاموال المستثمرة — اي انها اصبحت غير قادرة على تحمل هذه الديون ودفع فوائدها عليها . وقد بلغ مجموع الديون ورؤوس الاموال الاميركية المستثمرة عدا فيها الديون الطويلة الاجل والقصيرة الاجل والاسهم المفضلة والمعتادة مع الديون الحكومية التي تنتظر الفوائد من الصناعة الاميركية في سنة ١٩٢٩ (٣٠٠٠٠٠) مليون دولار . وكذلك القوة الشرائية فانها لم تتمكن

ان تجاري في سرعة نموها سرعة نمو الديون ورؤوس الاموال المستثمرة وذلك للاسباب التالية: (انظر الصفحات ١٣٩ — ١٤٨ من كتاب جيس).

ان الذي يقوم بانتاج النقود (Money) هم اصحاب المصارف او البنوك بالدرجة الاولى . وما نقصده بالنقود ليس العملة الذهبية او الورقية الحكومية فقط بل الدراهم الصكوكية (Cheque Money) التي استولت على مايقارب التسعين بالمائة من جميع معاملات الدفع والقبض في اميركا . ان تسعين بالمائة من هذه الدراهم ينتجها في الواقع اصحاب البنوك اما الدراهم الحكومية من ورقية وذهبية فهي تعين فقط الحدود الخارجية للتوسع في الاعتماد المالي وهي لاتزيد في انكلترا على عشرة بالمائة وفي اميركا على ستة بالمائة من النقود الصكوكية . ويستقرض هذه الاموال الراغبون في انشاء مختلف المشاريع بقصد الربح والاستفادة فيقدرون قابلية المشاريع التي يريدون الاقدام عليها لادرار الارباح وبعد التحري والحساب الدقيق اذا ترجحت لهم حسن العاقبة اقدموا على المشاريع فيدفعون الاموال المستقرضة امامن البنك رأسا واما بواسطة البنك واما من البيوتات المالية المتنوعة اجوراً ورواتب للعمال والمستخدمين واثمانا وارباحا للمواد التي يحتاجونها في اقامة مشاريعهم وايجارات واتاوات لاصحاب الارض وغير ذلك . وقد قدر البعض ان معدل نسبة التوزيع بين الاجور والرواتب المتنوعة من جهة والارباح والفوائد والايجارات والاتاوات وغير ذلك من جهة اخرى هي حوالي ٦٠٪ للاولى و ٤٠٪ للثانية وهذا تقدير دون (Doane) . وهناك تقديرات اخرى هي ٧٠٪ الى ٣٠٪ ولكن التقدير الاول هو الاقرب الى الصحة اي ان حوالي ٦٠٪ من دخل اميركا السنوي يذهب الجيوب

العمال والمستخدمين والموظفين و ٤٠٪ يذهب الى جيوب اصحاب الاموال والديون المستثمرة .

وبما ان مجموع هذين الدخلين هو الذي يكوّن القوة الشرائية التي هي مدار الحركة الاقتصادية فاذا حصل اقل مانع يحول دون تحويل احد الدخلين اوقسم كبير منه الى قوة شرائية فان الحركة الاقتصادية تصاب بشلل . ذلك ان القوة الشرائيـة المستمدة من مجموع الدخلين لاتـكاد تكفي لاستهلاك منتوجات القوة الانتاجية فكيف بها اذا تقلصت بحجز احد الدخلين عن الصرف . فالقوة الشرائية اذن قائمة على عمودين، عمود الاجور والرواتب التي يصرف معظمها في شراء واستهلاك المنتوجات الاستهلاكية وعمود الارباح والفوائد والاتاوات التي يصرف معظمها ايضا ولكن في الامور الانتاجية من اقامة معامل وانشاءات وغير ذلك ـاي في توسيع ماكنة الانتاج . على ان قسما كبيراً من هذا الصرف الانتاجي يذهب ايضا الى جيوب العمال والمستخدمين لان الاموال المستثمرة في اقامه المعامل وشراء المكائن وغير ذلك يصرف قسم كبير منها بشكل اجور ورواتب مما يساعد على توسيع القوة الشرائية وقسم آخر من شراء المواد والآلات مما يساعد على تنشيط تلك القوة نفسها . وبكلمة مختصرة نقول ان صرف عمود الفوائد والارباح والاتاوات وغيرذلك هو الذي يكمل نقص القوة الشرائية التي لا يمكننا بأي حال من الاحوال ان تعتمـد على عمود الاجور والرواتب وحده .

من هذا نستخلص ان مدار الحركة الاقتصادية متوقف على دوام استثمار الارباح والفوائد والاتاوات وغير ذلك في انشاء المعامل وتوسيع ماكنة الانتاج . فاذا طرأ أقل عامل يقلل من استثمار هذه الاموال حصل

تفاوت عظيم بين قوة الانتاج والاستهلاك فتبور البضائع وتنسد المعامل وتنتشر البطالة . فسلامة الحركة الاقتصادية في النظام الاقتصادي الحاضر متوقفة على دوام التوسع في الانتاج ومشترطة به . وفي الحقيقة ان النظام الاقتصادي الحاضر بين امرين لاثالث لهما . الاستمرار على التوسع والنمو في القوى الانتاجية فالشلل والموت لانه فقط بالاستمرار على استثمار عمود الارباح والفوائد والاموال الاخرى في توسيع الانتاج وبالنتيجة في تكميل نقص القوة الشرائية يمكن تأمين التوازن بين الانتاج والاستهلاك .

وبما أن الدافع الوحيد المرغب في استثمار الاموال هو الامل في الارباح والفوائد لذلك متى قل هذا الامل توقفت الاموال عن الاستثمار فنقصت القوة الشرائية وانشلت الحركة الاقتصادية . وبعبارة اخرى ان النشاط الاقتصادي متوقف على تأمين الفوائد والارباح على الاموال المستمرة في الحاضر او في المستقبل . فهل الصناعة قادرة على الاستمرار على تأمين هذه الفوائد وهذه الارباح لامد غير معين ولمقادير غير محدودة من هذه الاموال او ان هناك حدوداً لمقدرة الصناعة على تأمين هـذه الفوائد ؟ الجواب هو ما سبق فشرحناه من ان للتوسع الصناعي والانتاج المادي حدوداً طبيعية لا يمكن تجاوزها لذلك لا يمكن للصناعة وقد قلت سرعة نموها بصورة عامة ان تستمر على دفع الفوائد والارباح على رؤوس اموال لا تزال سرعة نموها تزداد بشكل هائل . فقد بلغ (كما سبق فاوضحنا) مجموع الاموال التي يجب دفع الفوائد والارباح عليها في سنة ١٩٢٩ ما يقارب الثلاثمائة الف مليون دولار في امبركا وحدها (٣٠٠) مليون دولار) اما المبالغ التي اقتصدت في سنة ١٩٢٩ بقصد الاستثمار فقد

بلغت في امريكا في سنة ١٩٢٩ واحد وعشرين الف مليون دولار (٢١ الف مليون دولار) .

ثم الى متى يبقى الانتاج وتوسيع الماكنة الانتاجية مسخراً لتأمين الارباح والفوائد ؟ لقد تبين لنا مما تقدم ان الاستمرار على استثمار الاموال المقتصدة في توسيع الماكنة الانتاجية انما هو امر اضطراري يلجأ اليه اصحاب الاموال لانهم غير قادرين على خزن اموالهم وصرفها بشكل غير منتج ، لذلك هم ملزمون باستثمارها للحصول على الفوائد والارباح . فتوسيع الماكنة الانتاجية انما هو نتيجة ثانوية لتأمين الارباح والفوائد .

ويمكن تلخيص ما تقدم بما يأتي : —

ان تأمين الموازنة بين الانتاج والاستهلاك في النظام الاقتصادي السائد لا يتم الا بالاستمرار على استثمار عمود الارباح والفوائد والاتاوات وغير ذلك في توسيع القوة الانتاجية ولا يتم استثمار هذه الاموال الا بأمل الربح والفائدة فمتى ذاب هذا الامل توقف استثمار رؤوس الاموال . وبما ان هذا الامل اخذ يتلاشى (في اميركا) يوماً بعد يوم لتوسع الشقة بين سرعة نمو الصناعة والانتاج المادي وسرعة نمو الديون ورؤوس الاموال — اي ان الصناعة اصبحت غير قادرة على اعالة هذه الكميات الضخمة النامية من رؤوس الاموال لذلك ان الاستمرار على استثمار رؤوس الاموال سيصبح يوماً بعد يوم امراً عسيراً ومتى توقفت او خفت حركة استثمار رؤوس الاموال تناقصت القوة الشرائية فاختل التوازن بين الانتاج والاستهلاك فبارت البضائع وعمت البطالة وحصلت

الازمة الاقتصادية . هذا هو التفسير الصحيح لما حصل منذ سنة ١٩٣٠ وما سيحصل بكل تأكيد في المستقبل .

ولكن توجد عوامل اخرى يحتمل ان تجعل المستقبل اظلم من الماضي وذلك ان الاختراعات الجديدة اخذت في الواقع تستغني عن ملايين العمال والاستغناء عن اليد العاملة معناه الاستغناء عن اليد المستهلكة — اي ان الدراهم التي كانت تصرف بشكل اجور ورواتب اصبحت تتجه الى قسم الارباح وتدخل في قاعة الاموال المعدة للاستثمار لاللاستهلاك . وبكلمة مختصرة ان اتجاه الاختراعات هو في تحديد القوة الشرائية ولكن الهيكل الاقتصادي كله قائم على اساس بيع البضائع بربح في سوق متوسعة . اي بينما الاختراعات الجديدة توسع في القوة الانتاجية وتزيد في نسبة الاموال المخصصة للاستثمار اذا بها في عين الوقت تقلص القوة الاستهلاكية . فالانتاج المتوسع ورؤوس الاموال المتزايدة بنسبة الربح المركب تقابلها قوة شرائية متقلصة نسبة بسبب اتجاه الاختراعات واذا استمرت الحال على هذا المنوال فسيأتي يوم لا تتمكن القوة الانتاجية من تصريف منتوجاتها فتحصل الازمة الاقتصادية ولا تعود الحياة الى الماكنة الاقتصادية الا متى انتعش امل الربح في الاستثمار واذا لم يظهر امل من هذا النوع فان التوقف بطبيعة الحال يستمر . وهنالك كثير من الدلائل التي تدل على ان التفاوت بين القوتين الانتاجية والاستهلاكية آخذ في الازدياد يوماً بعد يوم بسبب الانقلابات الصناعية العجيبة وان معضلة تهيئة قوة شرائية تكفي لانعاش الماكنة الاقتصادية باستهلاك المنتوجات المتنوعة سوف تزداد شدة على شدة .

هل هنالك عوامل اخرى نأمل منها ان تزيد القوة الشرائية ؟

الجواب نعم توجد عوامل ولكنها ضئيلة قليلة المفعول في النهاية . اهمها الصرف الحكومي ولكن قسما كبيراً من الانفاق الحكومي يذهب في توسيع الماكنة الانتاجية ولا يصرف بشكل اجور او رواتب او ما شاكل . ثم ان معظم المبالغ التي تنفقها الحكومة في سبيل انعاش القوة الشرائية اعاتأتي عن طريق الاستقراض كما فعل الرئيس روزفلت في معالجته للازمة الاقتصادية الامريكية ولكن هذا الاستقراض يزيد المشكلة اشكالا في النهاية لانه يزيد في ثقل الديون الهائلة التي تنوء تحتها الصناعة فليس الانفاق الحكومي عن طريق الاستقراض الا تأجيل حل المشكلة الى وقت آخر .

هناك طريقة اخرى ربما تنفع بعض النفع في ازالة هذا التفاوت دون ان تمس النظام الرأسمالي بجوهره وتلك الطريقة هي الشطب على قسم كبير من الديون ورؤوس الاموال عن طريق التضخم النقدي الذي يقلل من قيمة العملة فيقضي على قسم كبير من رؤوس الاموال من جهة ويزيد الشرائية الاستهلاكية التي لدى الحكومة من جهة اخرى ولكن مخاطر هذه الطريقة معروفة لا تحتاج الى تبيان وفائدتها مرقتة على كل حال لانها لا تمس جوهر الداء . ولا يقضى في الحقيقة على الداء من اساسه الا اذا تغير الانتاج من استهداف الربح الى استهداف الخدمة والرفاه العام اي الا اذا حصل طلاق او على الاقل انفصال بين الربح والانتاج فلا يكون الانتاج متوقفاً على الربح ولا مشترطاً بضمانه . ولا يحصل هذا الا اذا اصبح كثير من وسائط الانتاج الرئيسية وطنية قومية .

هذه هي مشكلة اليوم الاقتصادية وقد توجهت عدة اعتراضات من اصحاب النظريات الاقتصادية الكلاسيكية على هذا التحليل وهذه

الاعتراضات طويلة معقدة لا يمكن الدخول فيها غير ان المهم في الموضوع هو ان اصحاب النظريات القديمة اصبحوا في موقف دفاعي وقد انقلب قسم كبير منهم عليها . وآخر المنقلبين على النظريات القديمة الاقتصادي الانكليزي الكبير الاستاذ جون مينارد كينز (John Maynard Keynes) الذي اصدر مؤخراً كتابه المهم « النظرية العامة للاستخدام والفائض والمال » . (The General Theony of Employment, Interest and Money) هناك نقاط واحصائيات اخرى كثيرة يتطرق اليها ستيوارت جيس في تحليل الاتجاه الاقتصادي الحديث ارى من المناسب ان استعرض بعضها .

اولا — مسألة الاختراعات : لقد سبق فأوضحنا ان الاختراعات تتزايد اليوم بنسبة التضاعف الهندسي ولنأخذ مثالا على ذلك من الولايات المتحدة الامريكية . فلقد منحت دائرة براءات الاختراع في اميركا البراءات التالية :—

في العشر سنين المنتهية في ١٨٩٠	٢٠٨٠٠٠	براءة اختراع
« « « « ١٩٠٠	٢٢١٠٠٠	« «
« « « « ١٩١٠	٣١٤٠٠٠	« «
« « « « ١٩٢٠	٣٨٤٠٠٠	« «
« « « « ١٩٣٠	٤٢١٠٠٠	« «

ولكن هذه الاختراعات كما اوضحنا متجهة بصورة خاصة الى الاستغناء عن اليد العاملة اولا وتقليل اهميتها في عمليتي الانتاج والتوزيع وايداع معظم العمل الى المكائن .

لقد كان الاقتصاديون في السابق يقولون ان التوسع الاقتصادي في امكانه ان يستوعب او يعيد استخدام كل من يصبح عاطلا بسبب الاختراعات والمكائن الجديدة وكان هذا صحيحاً لمدة طويلة فكانت المكائن الجديدة والاعمال والحاجات الجديدة كلها في حاجة الى اليد العاملة ولكن الامر اليوم تغير فقد اصبحت الاختراعات تقتصد في اليد العاملة اقتصاداً مخيفاً وقد اخذ هذا الاقتصاد في اليد العاملة يقطع اشواطاً هائلة بعد الحرب العامة ، هذا مع العلم بأن القوة الانتاجية (لاسرعة نموها) في نمو مستمر . ولنقتبس الاحصاء التالي صفحة ٢١٥ :

(صناعات الولايات المتحدة الاميركية)

باعتبار سنة ١٩١٩ (١٠٠) اي سنة اساسية

السنة	عدد الاشخاص المستخدمين	مقدار المنتوجات	مقدار ما ينتجه كل شخص
١٩١٩	١٠٠	١٠٠	١٠٠
١٩٢٣	٩٦	١٢٢	١٢٧
١٩٢٤	٨٩	١١٤	١٢٨
١٩٢٥	٩٢	١٢٨	١٣٨
١٩٢٦	٩٤	١٣١	١٤٠
١٩٢٧	٩٢	١٢٩	١٣٩
١٩٢٨	٩١	١٣٦	١٤٩
١٩٢٩	٩٤	١٤٥	١٥٣

من هذا يتبين لنا انه بينما مقدار منتوج الصناعات قد ازداد ٥٠٪

(خمسين بالماء) وبينما مقدار ماينتجه كل فرد قد ازداد اكثر من خمسين بالمائة اذا بعدد العمال المستخدمين يتناقص مايقارب العشرة بالمائة .

وقد قدر بولاكوف بعد احصاء مستمد من عدة صناعات رئيسية ان منتوج الفرد في الساعة في المعامل المشغلة بالكهرباء يمكن ان يزداد نظريا اربعين مرة فيما لو استخدمت احسن الطرق الفنية او بعبارة اخرى ان (٦٢٥٠٠٠) عامل يتمكنون ان ينتجوا حسب هذا التقـدير ماينتجه (٢٥٠٠٠٠٠٠) عامل في نفس الوقت . لاشك ان في هذا التقدير مبالغة كبيرة ولكنه يدلنا على كل حال على اتجاه الاختراعات في الاستغناء عن اليد العاملة .

اما واينتروب فقد قدر تقديرا صحيحاً بأن المنتوج الذي كان يحتاج لمائة شخص لانتاجـه في ١٩٢٠ اصبح يحتاج الى ٦٨ شخصا في ١٩٢٩ و ٦٥ شخصا في ١٩٣١ واقل بالطبع من هذا العدد بكثير في هذا اليوم وقد ازداد منتوج العامل الواحد مايقـارب ٩٫/٠ في ١٩٣١

ثم ان استخدام القوة الكهربائية قد احدث ثورة اقتصادية بعيدة النتائج واخرج الى حيز الوجود ماسمي بعصر القوة (Power age) تمييزاً له عن عصر الماكـنة (Machine age) . وقد سهل اختراع شتاينمتز (Steimetz) بنقـل القوة الكهربائية الى مسافات بعيـدة استخدام القوة الكهربائية في المعامل وجعل الماكنة تقوم بمعظم ادوار الانتاج بل فتح باب الانتاج النصف اوتوماتيكي والاوتوماتيكي على مصراعيه . وقد طبقت الطريقـة الاوتوماتيكية او النصف اوتوماتيكية على مايقارب الخمسين صناعة رئيسية لحد سنة ١٩٣١ وقد انتشر تطبيقها

منذ ذلك الحين انتشاراً كبيراً بل وقد ذهب الاختراع الى ابعد من ذلك فاستغنى في بعض الصناعات عن اليد العاملة بتاتاً وذلك باختراع ما سمي بالخلية الكهربائية (Electric Cell) التي تقوم بجميع ادوار العمل من اوله الى آخره بدون ان يشترك في العمل فرد واحد .

ماهي نتائج هذه الاختراعات ؟ اولها ان مجهود العامل اصبح قليل الاثر في الانتاج بل يمكننا ان نقول ان كل علاقة بين مجهود العامل والانتاج قد تلاشت تماما . وهناك امثلة جلية في هذا الباب . يتفاوت منتوج العامل الواحد في ٣٠٦ معامل تصفية للنفط بين ١ و ٢٢٤ ـ اي ان منتوج الفرد في اردأ المعامل هو واحد بينما هو في احسن المعامل ٢٢٤. هل من المعقول ان ننسب هذا الفرق الى عضلات الفرد او الى مهارته ؟ هذا شيء مستحيل . فالفرق اذن يعود للمكائن والآلات . وفي معامل الحديد يتفاوت منتوج الفرد بين واحد في اردأ المعامل و ٩ في احسنها. وفي معامل الخشب يبلغ هذا التفاوت واحداً لثلاث عشرة لذلك لم يبق معنى لكلمة منتوج العامل لان المنتوج ليس للعامل بل للماكنة

ثانيا ـ بتضاؤل اهمية العامل تزايدت اهمية المكائن والآلات التي اصبحت بناء على ذلك غير قابلة للربح إلا اذا اشتغلت الى ابعد حدود طاقتها الانتاجية . وهذا احد الاسباب الرئيسية في التزاحم الهائل وفي الدعاية والاعلان بين الامم الصناعية والشركات . وذلك ان المصاريف الادارية وغيرها للتأسيسات الكبيرة لايمكن تنقيصها بحسب كمية المبيع من المنتوجات بل هي مصاريف مستمرة مهما قلت كمية المبيع . ثم ان المكائن الكبيرة لايمكن تشغيلها لانتاج كميات صغيرة لان كلفة التشغيل باهظة لذلك نجد الشركات الصناعية الكبرى مضطرة الى انتاج كميات

هائلة من المنتجات والنزول الى ميدان المزاحمة العالمية لبيع اكبر كمية ممكنة وهـذا السبب في زيادة المصاريف على الاعلانات و لدعاية وتزايد عدد المستخدمين في التأسيسات التصريفية والتوزيعية .

ثالثاً — ان النتيجة الثالثة المهمة من نتائج الاختراعات الحديثة هو جعل دور العامل بسيطاًو تلاشي المهارة والبراعة الصناعية السابقة ذلك انه بقيام الماكنة بمعظم الاعمال اصبح دور العامل في معظم الصناعات دوراً بسيطاً يقتصر على تحريك آلة واحدة طول ساعات العمل بشكل ممل مضجر واصبحت اعمال معظم العمال بناء على هذا السبب متشابهة تماماً.واصبحت الاعمال الفنية المعقدة مقتصرة على نفر قليل من المهندسين الاختصاصيين في نصب وتشغيل المكائن واصلاح العطل الذي يصيبها بين آونة واخرى.

ولكن اهم نتيجة للاختراعات هو تناقص القوة الشرائية الاستهلاكية لان الاستغناء عن اليد العاملة معناه الاستغناء عن اليد المستهلكة القادرة على الشراء كما سبق فاوضحناه . ولنفرض انه اصبح في امكان المكائن ان تستغني عن تسعة اعشار اليدالعاملة وتبقي عشراً واحداً . فماذا ستكون النتيجة،هل يعني ذلك الاستغناء عن تسعةاعشار اليد العاملة استغناء عن نسبة مساوية لها من القوة الاستهلاكية الشرائية ؟الجواب ان النتيجة ستكون قريبة من هذا بدليل عدم ارتفاع نسبة الاجور في خلال السنين التي تلت الحرب العظمى ارتفاعاً يذكر بالرغم من الاستغناء عن قسم كبير من العمال بسبب الاختراعات الحديثة . ولو فرضنا ان القوة الشرائيـة لن تقـل بهذه النسبة بل بنسبة اصغر فان المشكلة تبقى عويصة على كل حال .

ولو فرضنا ان العشر الباقي من اليد العاملة سترتفع اجوره (وهـذا ما يخالف اختبـارنا) فان هـذا الارتفـاع لن يعوض على كل حال عن

النقص الكبير في القوة الشرائية . ولو فرضنا ان العشر الباقي من اليد العاملة سيأخذ اجور التسعة اعشار المستغنى عنهم (وهذا مستحيل) فان المشكلة تبقى على حالها لان هذه الزيادة في اجور العشر الباقي لن يصرف الاجزء صغير منها في شراء المنتوجات والباقي يذهب للاستثمار في توسيع الماكنة الانتاجية . ثم الى اين يذهب العمال المستغنى عنهم ، فاذا لم تتمكن ماكنة الانتاج من تزويدهم بالاعمال وبالتالي بالقوة الشرائية فمن اين يستمدون هذه القوة ؟

فالاختراعات تطعن القوة الشرائية في الصميم ما دام النظام الاقتصادي الحالي قائماً .

مشكلة تلاشي الاطمئنان الاقتصادي

ان النتيجة الثانية المهمة للانقلابات الاقتصادية هي اضمحلال الاطمئنان الاقتصادي بالنسبة للاغلبية الساحقة من الناس فانه من الامور البديهية ان الاطمئنان الاقتصادي يتناسب في النظام الاقتصاد الحالي تناسباً عكسياً مع درجة الاختصاص وتوزيع الاعمال ذلك ان الاعمال متوقف بعضها على بعض بدرجة حساسة بحيث ان اقل صدمة تصيب جانباً من الجهاز الاقتصادي ينتشر مفعولها الى كل الجهاز . وقد رأينا ان الجهاز نفسه فاقد للتوازن بطبيعته . فقد نزلت اجور العمال في اميركا بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ مقدار ١٩ بالمائة وقل عدد العمال المستخدمين ٤٣ ٪ — اي قلت قوة العمال الشرائية ٥٤ ٪ . كذلك فقد العمال في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ مقدار ٢٧ بليون دولار من الاجور . هذا بينما الفوائد والارباح لم تنزل الا بنسبة زهيدة . اما الزراع فقد نزلت قيمة حاصلاتهم من ١٦ بليون دولار في ١٩١٩ الى ١٢ بليوناً في ١٩٢٩ والى ٥ بلايين في ١٩٣٢ .

ولم ينج من هذا التدهور حتى اصحاب رؤوس الاموال والاسهم وان كانت مصيبتهم لا تقاس بالطبع بنكبة الذين يفقدون حتى اجرتهم اليومية. فقد نزلت قيمة الاسهم المعروضة في بورصة الحصص في نيويورك بين ايلول ١٩٢٩ وتموز ١٩٣٢ من ٨٩٦٠٠ مليون دولار الى ١٦٦٠٠ مليون دولار - اي حوالي ٨٣ ٪ من القيمة تبخر في هذه المدة القليلة.

من هذا يتبين لنا ان معظم العمال هم غير مطمئنين على معاشهم اما بسبب العطالة التي تصيبهم بين آن وآخر واما بسبب نزول اجورهم. وما ينطبق على العمال ينطبق على عدد كبير آخر من الامـيركيين.

النتيجة الثالثة — مشكلة التبذير في القوة الانتاجية

لقد سبق فاوضحنا كيف ان اصحاب الاموال مضطرون لاستثمار اموالهم بتوسيع القوة الانتاجية بصرف النظر عما اذا كانت توجد حاجة لهذا التوسيع ام لا. ومعظم التبذير ناتج في الحقيقة عن كون الانتاج مبنياً على تزاحم فردي مستهدف للربح غير مسؤول عن حفظ الثروة وغير مرتبط بمنهج انتاجي اجتماعي متناسق الاجزاء. لان عملية الانتاج معتبرة حقاً فردياً يجوز لكل فرد ان يتشبث بها للحصول على الربح. ولنأت بامثلة ايضاحية.

لقد قدر دون (Doane) ان القوة الانتاجية في اميركا كان بامكانها ان تنتج ٣٢ ٪ اكثر مما انتجته في الواقع و٦٧ بالمائة اكثر مما استهلك في الحقيقة اي ان زيادة القوة الانتاجية (للزراعة والصناعة) على القوة الشرائية كانت في سنة ١٩٢٩ مقدار ٦٧ ٪. وهذا على اساس اشتغال المعامل مرة واحدة في اليوم لا مرتين واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار امكان تشغيل

تلك المعامل نفسها مرتين او ثلاث مرات في اليوم فان الزيادة تكون اكبر بكثير .

ولنأخذ امثلة من بعض الصناعات :

في ١٩٢٩ بلغت قوة الانتاج للراديوات في اميركا ١٥ مليون جهاز . بينما كان مجموع ما ابتيع في تلك السنة اربعة ملايين جهاز .

في سنة ١٩٣٣ بلغ مجموع ما انتج من الحديد والفولاذ فى اميركا ١٢ ٪ من قابلية اميركا الانتاجية ـ اى كانت ٨٨ ٪ من معامل انتاج الحديد والفولاذ عاطلة بمعنى ان الوف الملايين من رؤوس الاموال بقيت عاطلة غير مثمرة .

اما معامل المنسوجات فان قابليتها الانتاجية كانت فى سنة ١٩٣٣ اكثر من ضعف ما انتجته فى الواقع وكذلك معامل المنسوجات الصوفية فقد كانت قوتها الانتاجية فى سنة ١٩٢٧ تعادل ثلاث مرات ما انتجته فعلا . وكذلك معامل الاحذية فقد كانت قدرتها الانتاجية فى ١٩٢٧ تعادل ٧٣٠ مليون زوج من الاحذية بينما كان مجموع ما انتجته فى تلك السنة لا يزيد على ٣٣٠ مليون زوج . وقد ازدادت تلك القابلية عما كانت عليه فى سنة ١٩٢٧ . وقد قدر احد الاخصائيين ان ٢٦٠ معملا من مجموع ١٣٢٩ معملا من المعامل الموجودة قادرة على تزويد جميع ما تحتاجه اميركا من الاحذية . وهكذا يمكننا ان نأتي بامثلة كثيرة اخرى تدلنا على التبذير الهائل وعلى الفوضى السائدين الآن فى عملية الانتاج والتي نستنتج منها انه لابد من جعل استثمار الاموال الجديدة وعملية الانتاج تابعين لخطة عامة او على الاقل جعلها تحت اشراف وتخويل حكومي لكي لا يزداد هذا التبذير .

النتيجة الرابعة : النتيجة الرابعة من الاتجاه الاقتصادي الحديث هي تمركز الانتاج في شركات كبيرة ضخمة والقضاء على الشركات الصغيرة مما اخذ يؤدي في اغلب الاحوال الى الاحتكار . وهذا الاتجاه شيء طبيعي بالنظر الى كون عملية الانتاج اصبحت عملية كبيرة جداً بواسطة الاختراعات الحديثة وهي تشتغل لتزويد المنتوجات لسوق عالميه هائلة لا لسوق محليه صغيرة . وهذا التوسع في الشركات الانتاجية قد خلق قوى هائلة في ايدي النفر القليلين الذين يديرونها او قل انه قد خلق حكومات كبيرة في داخل الدولة السياسية ، حكومات لها من السيطرة على حياة الافراد من عمال ومن مستهلكين اكثر بكثير مما للحكومات السياسية . فلقد كان في سنة ١٩٢٨ ٦./ٌ من مجموع الشركات مستوليا على ٩٠./ٌ من مجموع الاعمال الصناعية في اميركا و ½./ٌ من مجموع الشركات كان يجمع ٥٤./ٌ من مجموع الارباح . واذا علمنا بأن ٩٠./ٌ من مجموع الاعمال الصناعية يقوم به الشركات علمنا مقدار التمركز الذي وصلت اليه الاعمال الصناعية هناك .

وكانت من نتائج اختراع الشركات المساهمة ظهور ما سمي بالثروة المؤلفة من الاسهم التي تباع وتشترى في البورصات وهذه الثروة حساسة غير ثابتة وهي تابعة بالدرجة الاولى لتقدير المتعاطين ببيعها وشرائها عن قابليتها لادرار الربح سنوياً بل ان قيمتها كلها متوقفة على هذا التقدير وقد اصبح ٧٥./ٌ من الثروة المستثمرة من هذا النوع وقد قدرت قيمتها في اميركا وحدها في ١٩٢٩ بمقدار ٢٣٨ بليون دولار - اي ان ٢٣٨ بليون دولار من الثروة الاميركية متوقف على تقدير المتعاطين ببيع وشراء الاسهم عن مستقبل ارباح هذه الاسهم . وقد رأينا سابقا مثلا من تقلب

هـذا التقـدير من الهبوط الهـائل الذي اصاب قسم الاسهم في بورصة نيويورك في سنة ١٩٢٩ اي ان هـذه الثروة السائلة عرضة للتـلاشي والتبخر من جهة والتضخم من جهة اخرى بسرعة مدهشة ولا علاقة اساسية لقيمتها المتقلبة هذه بقيمة المعامل التي تمثلها هذه الاسهم .

ولـكن اهم نتيجة في اختراع شركات المساهمة هو توسيع الملـكية الغائبة (Absentee Ownership) اي ان تكون ملكية الصناعات بيد افراد بعيدين عنها وعن ادارتها وغير عارفين بما يجري فيها وغير آبهين بمستقبلها ومستقبل مستخدميها ولا يهمهم من امرها غير ان يحصلوا على الارباح المعتادة للاسهم التي يحملونها . ولـكن حتى الملـكية الغائبـة لم تدم بل تلاشت أهميتها وحلت محلها في ادارة المعامل والشركات عصابات ماليه تتلاعب في كثير من الاحيان بمقدرات المعامل والشركات في غير مصالح اصحابها حملة الاسهم ولا في مصالح المستخدمين من العمال ولا فى مصالح مستهلكي البضائع . بل قد تقضي مصلحه هؤلاء الماليين وعددهم لا يزيد فى اميركا كلهـا عن ٢٠٠٠ نفر بتفسيخ الشركات وتهـديم صروحها . وقد قدر برل وميـنس (Berle and Means) ان ممارسه القوة الحقيقيه بصرف النظر عن الملـكيه القانونيه فى ٢٠٠ من اكبر الشركات كانت في الايدي التاليه : —

نسبة مئوية	
٤٤ ٪	من المائتي شركة تديرها ايدي ادارية غير مرتبطـة بحملة الاسهم .
٢١ ٪	من المائتي شركة تدار بحيل قانونية .

٢٣ ٪	تديرها اقلية حملة الاسهم .
٨٨ ٪	
١١	تديرها اكثرية حملة الاسهم .
١	تديرها ادارة التفليس .
١٠٠ ٪	المجموع .

اي ان ٨٨ ٪ من مجموع اكبر الشركات الصناعية يديرها افراد ليسوا بمالكيها ولا مسؤولين امام المالكين ولا مخولين من قبلهم وثروة المائتي شركة المار ذكرها تمثل نصف الثروة الصناعية في اميركا .

من هذا يمكننا ان نصف الوضعية الحاضرة بما يلي : « ملكية بدون تصرف او سلطة وتصرف بدون ملكية » . فالمالكون اصبحوا كالعمال والمستهلكين تحت رحمة نفر قليل من الماليين الذين لا هدف لهم الا تطمين مصالحهم بالدرجة الاولى على حساب المالكين (اي حملة الاسهم) والعمال والمستهلكين ومجموع الامة .

ويستغرب الانسان حقاً عندما يقارن التحديدات الكثيرة التي وضعها البشر على ممارسة السلطة السياسية للحيلولة دون اساءة التصرف بها، يستغرب عندما يقارن هذه التحديدات بالفوضى السائدة في ممارسة السلطة الاقتصادية التي لها علاقة مباشرة بحياة كل فرد : كيف يجوز في الحقيقة افساح المجال امام ٢٠٠٠ فرد من الاميركيين ان يتلاعبوا بمقدرات الملايين من حملة الاسهم والعمال والمستهلكين وجمهور الامة هذا التلاعب المشين بدون ان يكونوا مفوضين او مسؤولين امام هيئة عامة ؟

هـذه بعض النقاط المهمة التي تبين الاتجاهات الحديثة للاقتصـاد العالمي . وقد نسقها ووضحها ستيوارت جيس بكتابه المار ذكره توضيحاً بديعاً وآسف ان الوقت يحول دون تفصيل الموضوع اكثر مـا فصلته . هذا وارجو ان تسنح لي الفرصة ان القي محاضرة خاصة عن التطورات التي حدثت في حق الملـكية بسبب هذه الاتجاهات الاقتصادية الجديدة .

من كل هذا يتبين لنا انه لا بد لاحلال الاطمئنان الاقتصادي محل القلق المستولي على الاكثرية الساحقة من النـاس ولرفع مستوى عيش الاكثرية الى الحد الذي تسمح به الامـكانيات الاقتصـادية الحديثة وللاستفادة من هذه الامكانيات اوسع استفادة ممكنة ولازالة الفوضى والتبذير المستولين على عمليـة الانتـاج ولاحلال التوازن بين القوتين الانتاجية والشرائية . كل هذا يستلزم ان تكون عملية الانتاج بيد هيئة عامـة تسيرها حسب منهج علمي اجتماعي شـامل متنـاسق الاجزاء غير مرتبط باستهداف الربح وغايته الخدمة العامة والرفاه الشعبي لا غير .

الاستاذ عبد الكريم الازري :

الدولة بين الواقعيين والمثاليين

(مع تفصيل خاص في نظرية هيگل Hegel)

قال لي مرة احد الاخوان معاتباً ومقرظاً انك قد كتبت في مقال لك « لكي تكون الدولة قوية فان من الواجب ان تكون تشكيلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشكل من العدل والانصاف يستثير في الاكثرية الساحقة من سكانها شعور الاخلاص ويستفز فيهم نخوة التضحية للمحافظة على كيانها » وانه « من العوامل التي تزيد في مناعة الدولة ان يشعر كل فرد بلغ سن الرشد بأن مصلحته وسعادته مربوطتان في بقاء الدولة التي ينتمي اليها » وقال لي «انت اذن تعتبر سعادةالفرد ومصلحته العامل الذي يستفز فيه الاخلاص والتضحية وفي هذا مافيه من حط لكرامة الشعور الوطني وتفسيخ لكيان الدولة الذي يجب ان يكون قائماً على شعور وطني فياض واخلاص مجرد من كل مصلحة وتضحية خالصة لاتلتفت الى ماتؤمنه الدولة للفرد من راحة وسعادة او للمجموع من مساواة وعدل وانصاف .»

قلت له « ليس هذا ماقصدته بل ان ماقصدته شيء آخر . انا لااعتبر سعادة الفرد والمجموع العامل الوحيد الذي يستفز في الفرد او في المجموع الاخلاص والتضحية في سبيل الدولة، كلا ثم كلا . بل اعتبرها عاملا واحدا

مهما بين عوامل عديدة . ولو حللنا تحليلا دقيقاً الشعور الوطني الذي يدفع بالفرد في اي دولة من الدول المعروفة الى التعلق بدولته والاخلاص لها والاتحاد والتكاتف مع اخوانه لتشكيل وحدة سياسية منهم تقوم على اساسها الدولة لوجدنا ان هذا الشعور ليس شعوراً بسيطاً منبعثاً من عامل واحد . بل هو شعور نفسي معقد منبعث من عوامل عديدة مشتبكة متفاعلة بعضها مع بعض منها الشعور القومي الذي هو شيء روحي نفسي بالدرجة الاولى ومبني على اساس مشتبك من الاشتراك بالعنصر واللغة والتاريخ والتقاليد وحتى بالاساطير التاريخية وغير ذلك مما ينشأ عليه الفرد ويتألف منه نسيج روحه . ومنها ايضاً اجتماع الافراد في بقعة من الارض ذات علاقات روحية تاريخية اوذات شكل يؤلف منها وحدة جغرافية ومنها اشتراكهم بالآلام والآمال ومنها ايضاً عامل المصلحة اي ان تقضي مصالح الافراد المادية والمعنوية بائتلافهم وتماسكهم واتحادهم وبالطبع لايكون الاتحاد بالمصلحة الا على اساس من العدل يستهدف الحيلولة دون استغلال الدولة لمصلحة طبقة فيها او تضحية سعادة فرد لسعادة فرد آخر او سعادة المجموع لسعادة طبقة . ولا شك ان عامل العدل الاجتماعي لايكفي وحده لخلق الائتلاف اوالتماسك الروحي بين افراد لاتؤلف بين ارواحهم عوامل اخرى بل هو يحتاج الى معاضدة عوامل بعضها اهم منه وبعضها اقل منه اهمية . ومع انه من الصعب تعيين نسبة اهمية كل عامل من العوامل المذكورة في تكوين وتوثيق الوحدة الروحية السياسية التي على اساسها تقوم الدولة الحديثة غير انه مما لاشك فيه ان عامل العدل الاجتماعي من اكبر العوامل التي تقوم عليها الوحدة وان فقدانه يسبب سقها في جسم الدولة لا محالة . »

فقال الاخ المذكور « اني اوافقك على انه عامل بين عوامل عـديدة ولكنه ليس من العوامل الرئيسية . » فقلت له « اني اخالفك في هـذا الرأي اذ اني احله مكانا مهما في سلم الاهميات » ثم قلت له «لاشك ان من وظائف التربية القومية ان تنشأ الناشئة على الاخـلاص لوطنهم اخـلاصاً مجرداً وتبث في نفوسهم روح التضحية الخالصـة النقية ولكن وظيفـة الفلسفة السياسيـة ان تبحث بحثاً علميـاً وتحلل تحليـلا دقيقاً اخـلاص الاكثرية الساحقـة من الافراد في اكثر الدول لدولهم وتعلقهم بهـا وتضحيتهم من اجلها . وكذلك عليها ان تحلل وتبحث في العوامـل التي تقوي ذلك الاخلاص وتنعشه وتدفعه الى العمل من جهة وفي العوامـل التي تهدده وتقعده عن العمل من جهـة اخرى . وكل باحث في الفلسفة السياسية يعرف جيداً ان اخلاص الفرد للدولة في ارقى الشعوب والدول لايكون اخلاصاً مطلقاً بل مفعما بمعاني عالية اهمها ان تكون الدولة آلة فعالة لخدمة اهداف اجتماعية ترتضيها اكثرية الامة وتطمئن اليها نفوسهم وهذه الاهداف تشتمل بصورة خاصـة على تطمين سعادة مجموع الافراد المكونين لها بشكل عادل وبموجب قواعد عامة شاملة منصفة» ثم قلت له «انا لا اعرف ان للدولة اهدفاً واهدافاً تختلف عن صالح مجموع المواطنين.»

الى هنا انقطع الحديث الشيق الذي له ما يماثله من احاديث معروفة في الفلسفة السياسية من قديم الزمان وقد رأيت ان الواجب يقضي علي بالقاء محاضرة عن نظرية فيلسوف كبير في الدولة يمثل مذهباً كان له مقامه في الفلسفة السياسية . اما الفيلسوف فهو هيكل(Hegel)الفيلسوف الالماني المعروف واما المذهب الذي يمثله فهو المذهب المثلي المتطرف Extremist (Idealist School) ان سبب انتخابي لهيكل هو لان هيكل يمثل نزعة تعتبر

الدولة الغاية والنهاية بصرف النظر عن الاهـداف التي تستهدفهـا وعن الانظمة السائدة فيهـا واما الافراد فهم واسطة مجردة لاغير . وقـد رأيت ان احسن عمل اقوم به في هذا الباب ان استعرض والخص بعض الاراء الواردة في كتابين شهيرين في اللغة الانجليزية .

اولهما كتاب النظرية الفلسفية للدولة لمؤلفه الدكتور بوزانكويت الذي فسر نظريات هيكل للعالم الانجليزي وايده في مبادئه (Philosophical Theory of The State by Dr. B.Bosanquet)

وثانيهما كتاب النظرية الميتافيزيكيـة للدولة لمؤلفه الاستـاذ هوبهوس الذي هو خير من حلل وانتقد هيكل لحد الآن في اللغة الانجليزية (The Metaphysical Theory of The State by Dr. D. T. Hobhouse.)

على اني رأيت من اللازم قبل ان ادخل في تلخيص بعض النقـاط الرئيسية في نظرية هيكل ان اتقدم بمقدمة في تلخيص النقاط الرئيسيـة التي يتميز بها مذهب المثليين ومقارنة ذلك بالانتقادات التي تقدم بها رهط كبير من المفـكرين الاجتماعيين الذين لا تجمعهم الا جامعة الانتقاد لآراء المثليين وقد اطلقت عليهم اسم الواقعيين او اصحاب النظرية الواقعية لكونهم اقرب في نظرياتهم الى ما يؤيده الواقع المحسوس .

المثليون والواقعيون

لو استعرضنا ابحاث فلاسفة السياسة والمفـكرين في شؤون الدولة لرأينـاهم منقسمين من جهـة ما الى قسمين رئيسيين : — اولهما اصحاب النظرية المثلية على اختلاف انواعها وثانيهما اصحاب النظرية الواقعية على اختلاف انواعها ايضـاً . اما النظرية المثلية فهي التي تعتبر الدولة آلة

اجتماعيـة مثلية ـ اي المثل الأعلى النهائي في التنظيم الاجتماعي ـ وتعتبر القانون آلة اجتماعية تعبر عن أعلى ما هو موجود في هـذا المجتمع من رغبات تستهدف المصلحة العامة ومن ضمير اجتماعي حي". كذلك تعتبر النظرة المثلية الدولة شيئاً يزيد على التنظيمات الادارية السياسية المعتادة بل يزيد على مجموع الاشخاص الموجودين فيها ـ اي هي بمثابة ذاتيـة مستقلة تشتمل وحدها على جميع ما خلفته الاجيال السابقة من اختبارات وتقاليد وقيم عالية وتراث فاخر يولد فيه الطفل وينمو عليه فيكون به انساناً ولا يكون انساناً بدونه . لذلك لا تعلق هذه النظرية على الفرد كبير اهمية لأن الفرد شيء فان ذاهب اما الدولة والقيم الاجتماعية العالية المخزونة فيها فهي ابدية دائمة، هي في الحقيقة مخزن لجهاد الاجيال السالفة واذا ما ضحينا الفرد لها فانما نضحي شيئاً زائلا لشيء دائم أبدي .

اما النظريه الواقعية على اختلاف انواعها فهي تنظر الى الدولة نظرة اخرى وتعتبرها مؤسسه اجتماعيه هي نتيجه ما استقر اليه الانسـان في جهاده لتنظيم علاقاته الاجتماعيه وانها بناء على ذلك ناقصه من جميع الوجوه وانها لو فحصت عن قرب لوجـدت مؤلفه من حـكومه قائمه وشعب مؤلف من افراد وكتل وجماعات وتنظيمات اجتماعيـه متنوعه ذات مصالح بعضها متفق وبعضها مختلف متناضل متى توازنت فيما بينها استقرت الدولة ومتى اختل التوازن فيما بينها ذهب استقرار الدولة واما الحـكومه فليست إلا آلة للضبط الاجتماعي او ماكنه لتنظيم الموازنه الاجتماعيه بين القوى والـكتل والمصالح الاجتماعيه المتزاحمه المتفاعلة وتـكون عادة مؤلفه من عدة اشخاص يأتون الى كراسي الحـكم الرئيسية بعمليه معقدة بعضها محسوس وبعضها غير محسوس وهؤلاء الافراد مهما

اجتهدوا ان يسموا فوق البيئات والامتيازات التي نشأوا فيها وينظروا الى المصلحة العامة الشاملة نظرة مجردة فانهم لا يقدرون على ذلك تماماً فانهم لدرجة بعيدة يمثلون اتجاهات وافكار البيئات التي نشأوا فيها ومصالح الطبقات والكتل المتنوعة التي ينتسبون اليها.

وان كل كتلة من هذه الكتل او بيئة من هذه البيئات او طبقة من هذه الطبقات تعتقد أنها وحدها تمثل مصلحة الدولة العامة وان فلسفتها واتجاهاتها هي وحدها تصلح ان تتخذ اساساً للحكم وتسيير دفة الامور وفوق ذلك فان كل طبقة او كتلة تعتقد ان على وجودها وعلى المحافظة على مصلحتها وكيانها الاقتصادي خاصة يتوقف كيان الدولة وبقاؤها لذلك كل كتلة تسعى عادة لأن تنفذ رغباتها بواسطة القوانين بالسيطرة على جهاز الحكم وتسخير الماكنة القانونية.

يقول الواقعيون ان الذي ينشأ في طبقة او بيئة او كتلة معينة ويتربى على تقاليدها واصولها وفلسفتها ونظرتها في الحياة والمجتمع ومبادئها الاخلاقية وغير ذلك يصعب عليه جداً ان ينفك عن هذه السلاسل الاجتماعية التي تقيده وترافقه طول حياته وهو يتعود ان يرى في الامتيازات التي تتمتع بها طبقته الطريق الوحيد لسعادة المجتمع ورقيه ورفاهه وفي فنائها فناء المجتمع فالذي يولد في محيط ارستقراطي يتعود الاعتقاد بأن في بقاء الامتيازات التي يتمتع بها الارستقراطيون بقاء المجتمع ورقيه وفي فنائها فناء المجتمع والمدنية وكذلك الذي ينشأ في محيط رأسمالي يتعود الاعتقاد أن على بقاء الامتيازات التي يتمتع بها الرأسماليون وخاصة تسخير المجتمع بقصد الربح بقاء المجتمع وفي فناء هذه الامتيازات او جزء منها فناء المجتمع والمدنية لا محالة وكذلك كان يعتقد

رجال الاقطاع ان في بقاء امتيازاتهم وفي تسخير حياة الفلاحين بقاء المجتمع وفي ذهابها الطامة الكبرى والكارثة العظمى والموت المؤكد للمجتمع بكامله وكذلك الذي ينشأ في طبقات او كتل او بيئات اجتماعية اخرى مسيطرة يعتقد ان بقاء المجتمع والمدنية منوط ببقاء تلك الامتيازات وضمان تلك السيطرة والعكس بالعكس . لذلك فهم لا يرون طريقاً لخدمة المجتمع الا بخدمة المصالح والامتيازات المذكورة وهم انما يعملون ما يعملون عن عقيدة هي بنت البيئة التي نشأوا فيها والتي تحول بينهم و بين رؤية مصلحة الدولة بشكل شامل مجرد صحيح .

يقول الواقعيون اذا كانت الحالة كذلك كيف يدعي المثليون ان الدولة وقوانينها تمثل عادة أعلى ما في المجتمع من افكار راقية واهداف قومية شاملة مجردة وضمير اجتماعي حي لا يستهدف الا المصالح العامة المجردة . يقولون ان مثل هذه القوانين ومثل هذه الآراء ليست الا خيالات المثليين انفسهم لان القوانين والانظمة الواقعية المعتادة هي نتاج رجال الحكومة ورجال الحكومة هم اولاد البيئات والطبقات التي ينشأون فيها والتي تكون افكارها وتقاليدها وفلسفتها وغير ذلك حاجزاً يحول بينها وبين ادراك واستهداف الاهداف القومية الشاملة بشكل مجرد يقرب من تجرد الباحث العلمي في مختبره . وان تلك التقاليد والافكار والمعتقدات تغلف في الحقيقة آراء وارادات رجال الحكم بغلافات سميكة يصعب عليهم جداً ان يخرقوها وتمنع تخلل كل نور من الخارج من آراء فلسفية يتقدم بها مفكر كبير او بيانات معقولة او مطاليب مشروعة تتقدم بها طبقات او بيئات اخرى في الدولة .

ويقول الواقعيون مع ان عوامل المدنية الحاضرة من سرعة وسهولة

في المواصلات وانتشار مبهج في التعليم بين مختلف الطبقات وارتفاع عجيب في مستوى الطبقات المنحطة واختلاط الطبقات والبيئات ونمو باهر في الروح الوطنية القومية الشاملة وغير ذلك كل ذلك قد قلل من مفعول الحواجز العسكرية والروحية التي يولد فيها الافراد بل اذاب البعض منها تماماً الا ان تلك الحواجز لا تزال موجودة لدرجة كبيرة بل قد زادت في بعض الجهات بدليل التوتر الشديد في علاقات الطبقات الاقتصادية التي نشأت على اثر الثورة الصناعية في العالم الغربي وما نتج عن هذا التوتر الشديد من مشاكل عسيرة يجابهها الآن مختلف الدول الغربية .

ويقول الواقعيون ان آراء المثاليين عن الدولة وخاصة آراء هيكل الفيلسوف الألماني لم تتناسب مع واقع الحال . لقد أله هيكل البروسية التي كان مواطناً فيها واجتهد ان يرى فيها مرآة للرقي الانساني على الرغم مما كانت تحتويه آنئذ ولا تزال (كسائر الدول) من نواقص خطيرة في ترتيباتها الاجتماعية وما كان لهيكل ان ينزل من خياله الى عالم الواقع ليلمس حقيقة الماكنة الادارية للدولة وطريقة سيرها وحقيقة التيارات التي تؤثر على عمليتي التشريع والتنفيذ في ادوارهما المختلفة فتمسخ القوانين وتميل بالكثير منها عن استهداف المصالح العامة .

بالطبع اجاب المثاليون على كثير من هذه الاعتراضات فأبانوا مثلا ان اعتبار الدولة مجرد آلة للضبط الاجتماعي وللموازنة بين القوى والمصالح والطبقات المتزاحمة هو مبالغة في جعل فكرة الدولة بسيطة والدور الذي تلعبه عادة في حياة الافراد وحياة الكتل الاجتماعية العديدة الموجودة في داخلها . ثم ان الواقعيين قد علقوا اهمية اعظم من اللازم

على الدور الذي تلعبه الكتل والطبقات في حياة الافراد من جهة وفي حياة الدولة من جهة اخرى وان الواقعيين كذلك لم يدركوا تمام الادراك عمق الوحدة الروحية الوطنية بين الافراد في اكثر الدول ، تلك الوحدة التي يكاد يذوب بجانبها معظم الحواجز الموجودة بين الطبقات او الكتل تلك الوحدة التي هي اعمق على كل حال من العلاقات الروحية الموجودة بين الافراد في داخل الطبقات المختلفة . ويرى المثليون ان الواقعيين اخطأوا كثيراً في تحليل عملية التشريع التي اعتبروها خاضعة لدرجة غير مبررة لتيارات لا تستهدف المصالح العامة وانهم بالغوا كثيراً في مقدار خضوع رجال الحكم للبيئات التي ينشأون فيها ولم يحسبوا للغرائز الاجتماعية والتقاليد العامة والروح القومية الوطنية والقيم الاجتماعية المعترف بسيادتها وغير ذلك حساباً دقيقاً في التأثير على الافراد المسؤولين وعلى عمليتي التشريع والتنفيذ وبصورة عامة فان تحليل الواقعيين بينما هو لا يلتفت الالتفات اللازم الى الوحدة الروحية العميقة الموجودة في الدولة اذا به يعلق على الفوارق الاجتماعية بين الافراد والكتل اهمية لا تستحقها . ثم يقول المثليون ان النظرة الواقعية بتحليلها الدولة الى طبقات وكتل وافراد وبيئات وغير ذلك قد غفلت عن ادراك اثمن تراث خلفته الاجيال السابقة وهو ذاتية الدولة التي هي منفصلة ومستقلة عن ذاتيات الافراد والطبقات المكونة لها في اي جيل من الاجيال ، تلك الذاتية الدائمة المستمرة على تعاقب الاجيال والازمان ، تلك الذاتية التي هي بمثابة مخزن للمدنية وللقيم والابتكارات الاجتماعية التي تجمعت وترسبت في هذا الوعاء الفاخر الثمين بجهود الاجيال المتعاقبة . وان قيمة هذه الذاتية — هذا المخزن العظيم — هي التي تدفع بالمثليين الى

تأكيد وحدتها واستقلال شخصيتها والاهتمام بها بصرف النظر عن نتائج اعمالها في حياة المواطنين .

لا شك ان هناك مغالاة ومبالغات في الجانبين . فالمذاهب المثلية قد اعتبرت الدولة الكمال النهائي في التنظيمات الاجتماعية واعتبرت اعمالها وقوانينها ونظمها واوامرها ونواهيها منبعثة عن رغبة مجردة في المصلحة العامة المنزهة عن المصالح الطبقية او الشخصية دون ان تدرس درساً عميقاً الأدوار السابقة والمنشآت الاجتماعية المختلفة التي مر بها الانسان في تنظيمه الاجتماعي اولا ودون ان تدقق تدقيقاً عميقاً حقيقة سير الدول في العالم الواقعي ثانياً ودون ان تحلل نفسية الذين يؤلفون رعايا الدول وحكامها تحليلا نفسياً دقيقاً ثالثاً . وانها لو بحثت في هذه النواحي الثلاث بحثاً مستفيضاً وهضمت النتائج التى توصل اليها علم النفس من جهة وعلم الانثروبولوجيا من جهة اخرى لوجدت ان نشوء الدولة كان اعقد بكثير مما تصورته وان كثيراً من الدول كانت بنات القوة المتغلبة وان التاريخ والعالم الواقعي المحسوس مملوء بالأمثلة الكثيرة البارزة من استغلال الأكثريات الشعبية لمصالح فئات مسيطرة في الدولة وان لا فائدة ترجى بتاتاً من صم الآذان عن هذه الحقائق التى ينطق بها الواقع المحسوس بصوت عال وانه لا بد من الاعتراف بوجود الكتل الكثيرة في داخل الدول وبنفوذ هذه الكتل وتأثيرها في تسيير الدولة وتشريع القوانين وتنفيذها وبأن القانون لا يمثل الشيء المثلي السامي المجرد من كل مصلحة طبقية او فردية كما يتصور المثليون وان الاعتراف بكل هذا لا يضير بل بالعكس يفيد لأنه سيضاعف المجهود لتحديد مفعول هذه النواقص التى تئن منها الدول عادة .

على انه لاشك ان قد اثبت تاريخها ان سير الدول في المراحل المتعاقبة من تاريخها كان متجهاً اكثر فاكثر الى توسيع مجموع الافراد المستفيدين من وجود الدولة فكان ذلك المجموع ضئيلا ضعيفاً في بادئ الامر فتوسع تدريجاً بمرور الزمن الى ان وصلنا الى هذا الدور الذي اصبحت فيه نسبة مجموع الافراد المستفيدين من وجود الدولة في الدول الغربية الحديثة اكثر من اي سنة سبقتها في التاريخ . وكذلك لاشك ان الدولة كمؤسسة اجتماعية توسعت تدريجاً في واجباتها تجاه مواطنيها اذ تغيرت من الدولة البوليسية (الشرطية) السابية الى الدولة الاجتماعية الايجابية. وان هذا التوسع والتبدل مستمر على الرغم من الصعوبات المتنوعة والعراقيل المختلفة التي يثيرها اصحاب المصالح والامتيازات المهددة او المتضررة منها . وان احد العوامل الكبيرة في سبيل هذا التوسع في واجبات الدولة هو نفس نظريات المفكرين الاجتماعيين في هذا الباب وخاصة تأكيدهم بصورة عامة ان من واجبات الدولة ان تؤمن لمواطنيها الشروط والظروف التي تمكن جميع مواهبهم ان تنمو وتتكامل تكاملا متناسقاً بحيث يكونون احسن واكمل مايمكنهم ان يكونوا.

وليس من المصلحة في رأي الواقعيين اعتبار الدولة ذاتية مستقلة عن ذاتيات الافراد المكونين لها ذاتية ابدية قيمة لايعتبر الفرد الضئيل الفاني شيئاً بجانبها . يقول الواقعيون ان نظرة من هذا النوع تفسح المجال بل تفتح الباب على مصراعيه لجميع انواع الاستبداد والاستغلال والاستئثار لانه استناداً الى هذه النظرية اذا تقدم احد وسأل المسيطرين على شؤون الدولة وماكينة الحكم عن نتائج اعمال الدولة في حياة المواطنين يجيبونه ان هذه النتائج غير مهمة لان حياة المواطنين ليست بذات قيمة

خطيرة اذا ماقيست بحياة الدولة وان الدولة في كثير من الاحيان تضطر الى تضحية سعادة قسم كبير بل ربما الا كثرية الكبرى من المواطنين حفظاً لسلامة ذاتيتها التي لايدرك قيمتها العالية واهميتها الا نفر قليل او طبقة معينة . واذا ماسئل المثليون الا يجوز ان يتخذ المتأثرون بهذه النظرية قناعاً يبررون به استئثارهم واستغلالهم لحياة الاكثرية الساحقة من مواطنيهم بحجة ان هذا العمل انما دفعت اليه ضرورة حفظ ذاتية الدولة ؟ رأيناهم يجيبون جواباً . ذلك لانه في حالة نبذ المقياس المعتاد لتقدير صلاح الدولة او فسادها وهو تقدير نتيجة اعمالها في حياة مواطنيها يخلو الجو لكل مستبد مستغل يعتبر نفسه رسول الكمال ويعتبر الطبقة التي نشأ فيها الحاملة الوحيدة لرسالة المدنيه ويعتبر امتيازاتها الضامن الوحيد لوجود المجتمع والدولة . وعندئذ لايبقي مجال او مقياس او حجه للمخالف . لان حجه المخالف هي ان يقول ان الدولة لم تعمل كذا وكذا لسعادة مواطنيها — اي انه يلجأ الى المقياس المعتاد الذي نبذه المثليون (او بعضهم) الذين يجيبونه على الفور ان حياة المواطنين لاقيمه لها بالنسبه لذاتية الدولة وان تلك الذاتيه التي هي مخزن المدنيه وميراث جهود الاجيال المتعاقبه في خلال عصور طويلة لايمكن تضحيتها او المساس بها لاجل تطمين سعادة المواطنين في جيل من الاجيال واذا مااعترض المعترض فقال ان هذا قناع لتبرير الاستبداد والاستئثار وان ذاتية الدولة انما هي من ذاتيات مواطنيها وسعادتها من سعادتهم ورقيها وتقدمها من رقيهم وتقدمهم وقوتها وعظمتها من قوتهم وعظمتهم وقيمتها في النهاية هي في نتيجة اعمالها في حياتهم ونفوسهم . لاجاب المسيطرون ان هذا اعتقادك اما نحن فنعتقد ان الواجب يستلزم ان

لانخلط بين الذاتيتين واننا نمثل بالدرجة الاولى ذاتية الدولة التي هي اعلى قيمة من حياة اكثرية المواطنين . هذه هي النتيجة المعكوسة التي يوصلنا اليها التفريق بين ذاتيـة الدولة وذاتية المواطنين المكونين لها واعتبار سعادتها منفصلة عن سعادة ذلك المجموع . وعليه لايرى الواقعيون وسيلة للوقوف دون الاستبداد بالمجموع سواء من طبقة او من فرد الا اعتبار ذاتية الدولة مؤلفة من نفس ذاتيات مجموع المواطنين واتخاذ نتائج اعمالها في حياتهم المقياس الوحيد لصلاحها او فسادها ، واعطاءهم وحدهم حق تقدير تلك النتائج لانه اذا ماسلب هذا الحق من مجموع المواطنين ينفسح مجال الاستبداد وينفتح باب الاستغلال على مصراعيه من جديد ويدخل المستبد المستغل طبقـة كان او فرداً من باب آخر حامـلا باحـدى يديه الاعتراف بان قيمة الدولة بنتائج اعمالها في حياة مواطنيها وباليد الاخرى الاستخفاف بمقدرة المواطنين (نظراً لقلة اختبارهم وثقافتهم) على تقدير قيمة الدولة في حياتهم معتبراً نفسه اقدر على تقدير تلك القيمة ومتخذاً هذا قناعاً للاستغلال .

بعد هذه المقدمـة ابدأ باستعراض الآراء الواردة في الكتابة المار ذكرها .

نظرية هيكل (Hegel) في الدولة

يدور بحث هيكل في الدولة على محور رئيسي وهو انها المؤسسة التي تمثل اعلى ماوصل اليه الانسان في تطوره الاجتماعي ورقيه المتتابع ، وانها المخزن الوحيد الذي يضم بين جنبيه جميع القيم الاجتماعيـة العاليـة التي حصل عليها الانسان . قال هيكل « الدولة هي الفكرة الالهية كما وجدت

على الارض وان كل مايملكه الانسان من قيم وحقائق روحية انما حصل عليها بواسطة الدولة » (كتابه فلسفة التاريخ) . وهي اكثر من ذلك : هي المؤسسة التي تمثل اعلى مايصبو اليه الانسان ، هي المثل الاعلى الذي يطمح اليه الانسان في حياته الاجتماعية . فهي ليست اذن اعلى مؤسسة وصل اليها الانسان بل هي ايضاً اعلى مايصبو اليه الانسان في المستقبل . ولو دققنا في حقيقة هذه المؤسسة وانعمنا النظر فيها لوجدنا فيها ضالتنا المنشودة ومثلنا العليا التي نطمح اليها . ونحن اذا ماأصبحنا اعضاء فيها واخلصنا لها واطعنا اوامرها ونواهيها وقوانينها ونظمها بصرف النظر عما تتضمنه وتستهدفه تلك القوانين والنظم فاننا بعملنا هذا نتقرب الى تحقيق مثلنا العليا التي نصبوا اليها لانها تجسم مثلنا العليا . واذا كان تحقيق المثل العليا اعلى واجب يقضي به علم الاخلاق ، واذا كانت الدولة تجسم هذه المثل العليا فاذن اصبح اعظم واجب على الفرد ان يكون عضوا في الدولة وكفى .

ونظرية هيكل هذه مستمدة من فلسفته العامة . قال هيكل في كتابه فلسفة التاريخ « ان النتيجة النهائية التي اوصلنا اليها البحث الفلسفي هي ان العالم الواقعي الحقيقي هو كما يجب ان يكون » . والدولة بالطبع قسم من هذا العالم فهي اذن ايضاً فعلا كما يجب ان تكون . وهذا الخلط بين الواقع والمثل المنشود هو الاساس الاول الذي ابتنيت عليه نظرية هيكل في الدولة . وهو بالطبع اساس مغلوط فيه من وجهات عديدة كما سنأتي على ذلك الخطأ الرئيسي الذي فيه وهو انه يسد ابواب الأمل والرجاء في وجه الانسان . لأنه اذا كان الواقع فعلا هو المثل المنشود فاذن اي أمل للانسان وخاصة القسم الأكبر من المجموعة الانسانية التي هي

في احوال من الفقر والفاقة والجهل والشقاء لا تطاق في تحسين احوالها . لأن المثل الأعلى المنشود هو متحقق في الدولة كما هي .

فلا يوجد في نظرية هيكل اذن تفريق بين الدولة في حقيقتها الواقعية وبين المثل الأعلى الذي يجب ان تسعى الدولة للوصول اليـه ويصبح واجب المفكر نحو هيكل ان يجتهد لـكشف النقاب عن النقـاط المحمودة المخفية تحت ستار التشكيلات الاجتماعية في الدولة وهو اذا ما اعمل الفـكر في ذلك سينـكشف له الهيكل المثلي للدولة من تحت الاغشيـة الـكثيفة الواقعية . ولنستمع الى ما يقوله هوبهوس في الصفحة ١٨ من كتابه الآنف الذكر :

« تسعى النظرية الفلسفيـة للدولة (اي نظرية هيكل) ان تظهر تشكيلات المجتمع بشـكل يجعلنا نرى فيها تجسيـداً وتمثيلا لشيءٍ عظيم مجيد لـكائن أعلى يسميه بعض المفـكرين روحاً والبعض الآخر « الـكائن المطلق » . بهذا تنتفي مشكلة تحقيق مثل أعلى يسعي اليه الانسان . لأنه يعيش فعلا في المثل الأعلى . ولا يهم كثيراً اننا اغنياء اوفقراء ، واصحاء أو ضعفاء وشاعرون شخصياً بسعادة او شقاء ولا يهم كذلك ما اذا كنا عادلين او غير عادلين ، فاضلين أو مرذولين ، لأننا كلنا اجزاء مكملة في شيء اوسع وانبل بكثير من الحياة الفردية ، في شيء لا يقاس بعظمته خير الانسان او شره ، سعادته او شقاؤه لأن هـذه الاشياء مهما كانت اهميتها بالنسبة لـكل فرد منا فانها ليست الا عناصر جزئية تلعب دورها المقرر لها في ذلك الـكائن العظيم . فالشر ضروري للخير لأنه قسم من كمال الـكائن المطلق الذي هو الدولة . وكل فكرة ترمي الى القضاء على هذا الـكائن الـكامل باعتباره شيئاً خيالياً او مثلا أعلى تعد من باب الافكار

العامة ولا تستحق الا الاستهزاء باعتبارها نوعاً من الشفقة الانسانية الفارغة » .

من هذا يتبين لنا مقدار تأليه هيكل للدولة التي يعتبرها الواسطة الوحيدة التي تقرب الانسان من الكمال الذي هو اساس الوجود بأجمعه . هي نوع من حلقة الاتصال بين الانسان وبين الكائن الكامل . بعد هذه المقدمة الوجيزة يجب ان نحلل باختصار العناصر التي تتكون منها نظرية هيكل في الدولة . اولا نأخذ معنى الحرية .

الحرية — الحرية في نظرية هيكل . من الخطأ في رأي هيكل اعتبار الحرية انعدام الموانع والحواجز التي تقف في سبيل رغبات الانسان . هذه فكرة سلبية ومتناقضة . انما الحرية الحقيقية هي شيء ايجابي هي العزم الذاتي (او عزم الذات) ، هي تقرير الانسان مصير نفسه بنفسه . هي تصميم الذات او هي الارادة الحرة ، وبخضوع الانسان لارادته الحرة فقط يعد حراً .

فالحرية اذن هي الخضوع للارادة . هذه هي المرحلة الاولى في تفسير الحرية في رأي هيكل . وهنا تقدم المفكرون وخاصة رجال علم النفس بانتقادات كثيرة على هيكل . هل الحرية هي في الحقيقة اخضاع النفس وجميع الغرائز والميول الانسانية الكاملة لسلطان الارادة اخضاعاً مطلقاً ؟ لا شك ان هذا الرأي صحيح لحد ولكنه خاطئ من وجوه كثيرة لأن كبت الغرائز والميول الانسانية كبتاً تاماً والسيطرة عليها سيطرة كاملة لا يفرق كثيراً عن الاستعباد الخارجي . وان هناك من يطلق عليهم اسم عبيد ارادتهم كما يقول هوبهوس فالمعنى الأصح للحرية ـ اي المعنى الذي يؤيده علماء النفس الاجتماعيون في هذا اليوم ـ هو موازنة

الغرائز والميول والتأليف بينهما تأليفاً يجعل سير الانسان في حياته سيراً متزناً . وان وظيفة الارادة هي التوفيق والتأليف والتوحيد المطلوبة بين الغرائز والميول لا كبتها كبتاً تاماً والاستبداد بها . ولكن هيكل قد ذهب الى ابعد من ذلك وقال ليست الحرية في اخضاع النفس لسلطان الارادة فقط ولكنها في اخضاع النفس لسلطان الارادة عندما تتصرف تصرفاً معقولا فقط . فاذ ما شذت ارادة الانسان عن التصرف المعقول في وقت من الاوقات فان حرية الانسان تختل لأن معنى الشذوذ في تصرف الارادة هو اجبار الارادة الحقيقية المعقولة التي تسير بموجب نظام معقول موحد في الحياة على السير في طريق يخالف ذلك النظام المعقول ـ اي هو اخضاع الارادة الكاملة المعقولة للارادة الناقصة الزائلة واخضاع الكل للجزء والمعقول لغير المعقول هو انتفاء الحرية . وعليه تصبح مقاومة الارادة الناقصة الموقتة لأجل افساح المجال للارادة الكاملة المعقولة هي الحرية بعينها . وبما ان ارادات الافراد الكاملة المعقولة متشابهة وخاضعة لمبادئ معقولة ترتضيها العقول السليمة في جميع الافراد اذن هناك ارادة واحدة معقولة تسير وفق نظام او منهج شامل معقول وهذا المنهاج الكامل نجده متمثلا في التقاليد والانظمة والقوانين الاجتماعية . لأن هذه القوانين وهذه التقاليد نشأت لمقاومة هذه الارادات الناقصة ولافساح المجال لممارسة ارادة الانسان الكاملة المعقولة ممارسة حرة لا يعيقها عائق :

لذلك ان الخضوع لهذه التقاليد والقوانين والانظمة هو الحرية بعينها وارغام الانسان من قبل السلطة القائمة على الخضوع لهذه التقاليد والسير في الطريق السوي الذي يرتضيه المجتمع هو الحرية بعينها ايضاً .

وهذه القوانين والتقاليد والعادات اذن هي تجسيم (Embodiment) الحرية . لذلك باعتناقنا هذه التقاليدفقط وبالخضوع للقوانينفقط نصبح احراراً . وبما ان الدولة هي الحارس على التقاليد وهي المنفـذة للقوانين اذن بانتسابنا الى الدولة وبخضوعنا لقوانينها وللتقاليد والاصول التي تسهر عليها الدولة نصبح احراراً .

وهنا تقدم هوبهوس ولاسكي وغيرهمـا منتقدين هـذه الفكرة . فقالوا اذا كانت الارادة هي فعـلا تصميم النفس فان المبادئ التي تصمم بموجبها الارادة يجب ان تكون مبـادئ مختـارة من انفسنا ودالة على رغباتنا وطباعنا وميولنا الحقيقية ، نعم يمكن ان تكون تلك المبادئ متفقة مع التقاليد والقوانين السائدة وعندئذ لا نشعر بضغط في الانصياع لها ولـكن اذا كانت تختلف مبادئ ارادتنا عن التقاليـد والقوانين المذكورة فما العمل ؟ ربما نضطر للخضوع ولـكن هـذا ليس مايريده هيكل وجماعته انما الذي يريده هيكل وجماعته هو ان نسلم اننا بخضوعنا لها فقط نصبح احرارا . ولايفرق في هذا الباب فيما اذا كانت القوانين والتقاليد تهدد سعادتنا وتخالف ضمائرنا . فحريتنـا تكون كما يظهر في رأي هيكل وجماعته في تسليم سعادتنا وحتى خنق صوت ضميرنا . لاننا لانكون احراراً الا بمسايرتنا للتقاليد الاخلاقية التي تتمثـل في الدولة والتي تسهر عليها الدولة . فبينما الحرية هي تصميم النفس اذا بها في رأي هيكل لاتتحقق الا باخضاع النفس لشيء آخر ربما يتصادم في اي وقت من الاوقات مع اقوى واعمق مافي انفسنا . فتقاليـد المجتمع السياسي المنظم الذي ننتمي اليه وقوانينه يمكن مثلا ان تتعارض مع تعاليمنـا الدينية او ربما تسبب مظالم واضطهادات تثور عليها ضمائرنا . ولايرضى

هيكل وغيره ان نسلم في مثل هـذه الاحوال ونخضع فقط . بل هو ومسايروه يرون ان باخضـاع انفسنا وباخضاعهـا فقط نصبح احراراً . هذا هو التناقض الحقيقي (انظر صفحة ٤٠ من كتاب هوبهوس) .

ففي رأي هيكل والدكتور بوزنكيت وغيرهما ان الحرية تساوي التقاليد والقوانين والانظمة السائدة التي تسهر عليها الدولة واذا كانت الحال كذلك فاجبار المرء على الخضوع لهـذه التقاليد والانظمة والقوانين وغير ذلك انمـا هو تحرير المرء - اي ان الاجبـار بهـذا المعنى يصبح تحريراً فاذا قيل لهم نعم نتفق معكم على ان الحرية ليست سلبية بمعنى انعـدام الضغط والمانع فقط ولـكن اليس ارتفـاع الضغط والمانع هما من ضروريات الحرية الايجابية التي تريدونها ؟ الا تعتقدون انه بذهاب هذا الشرط يصبح طريق الاستبداد معبـداً لان في هـذه الحالة كلما يتـذمر المرء من ضغط او اجبار يعتقد في قرارة نفسه وفي اعماق وجدانه ظلماً غير مبرر ؟ فيأتي اليه هيكل وبوزنكيت ويقولان له « ياأخي انك لاتعرف حقيقة ارادتك وحقيقة مصلحتك احسن من السلطة القائمـة التي تعرف ارادتك ومصلحتـك الحقيقية وانك اذا خضعت لها فانك بعملك هذا تفسح المجال لارادتك الحقيقية ولمصلحتـك الحقيقية ان تتغلب على ارادتك الموقتة الطائشة التي ليست مبتنية على نظام معقول » فاذا قال لهم « ولكني اشعر بشقاء وبؤس وفاقة وعدم ارتياح وجداني بالخضوع لهذا الظلم الذي لايرتضيه ضميري ولايرى له مبرراً » يجيبونه « ان شقاءك وبوءسك وفقرك من الضرورات المكملة للكائن المطلق الذي يجب ان تضحي بسعادتك لاجل كماله وسعادته .

وقد التجـأ الدكتور بوزانكيت في بحثـه لنظرية هيكل الى فقرة

شهيرة وردت في كتاب العقد الاجتماعي لروسو حيث قال روسو « ان كل من يرفض اطاعة الارادة العامـة (Volonte Generale) يجب ان يجبر بواسطة قوة المجموع على اطاعتها وليس معنى هذا يجب ان يجـبر ليكون حراً » مامعنى هذه العبارة ؟ الجواب ان الاجبار لا ينافي الحرية في بعض الاحيان . وتلك الاحيان هي التي يفسح فيها المجال للارادة الحقيقية ان تتغلب على الارادة الطائشة الموقتة . فاجبار المرء في هذه الحالة ليس اجبار ارادته الحقيقة العاقلة بل اجبار ارادته الزائفة التي هي غير مرتبطة بنظام معقول وتحرير ارادته الحقيقة من ضغط الارادة الطائشة وقيودها. ولا يصح ان يسمى حرا الا المرء الذي يسير وفق ارادته الحقيقية العاقلة اما المرء الذي يسير وفق ارادته او ارادته الطائشة فهو ليس حرا بل هو عبـد واجباره بقصد تحرير الارادة الحقيقية العامـلة يكون هو الحرية بعينهـا .

وبما ان الارادات الحقيقية المعقولة متشابهة في جميع الافراد السليمين لوجدانية العقل والمنطق - اي انهم جميعاً يسيرون وفق ارادة حقيقة معقولة واحدة - لذلك توجد ارادة عامة واحـدة (Volonte Generale) تسهر على تسيير الافراد في الاتجاه المعقول فاذا تأخر شخص أو شذ - اي تغلبت عليه ارادته الطائشة - فان الارادة العامة الحقيقية (التي تكون كامنة مغلوبة على امرها فيه ناطقة مسيطرة في غيره) تأتي لمعونته ونجدته وتنقذه من سـلطان الارادة الطائشة الموقتة باجبارها على الخضوع للارادة الحقيقية المعقولة اي تجعله حرا . هذا بالنسبة لهيكل وبوزانكيت هو المبرر لاستعمال القوة الاجبارية في الدولة - اي ان القوة الاجبارية التي تمارسها السلطة العامة هي بمثابة (او بالاحرى هي) القوة الاجبارية

التي يمارسها الفرد على نفسه لاخضاع شهواته وارادته الغير المعقوله لكي يتمكن من تسيير نفسه بنفسه وفق نظام حيوي معقول . وبما ان هذه الارادة متمثلة في الانظمه والقوانين السائدة لذلك يكون الخضوع لهذه القوانين والانظمه هو تحرير النفس . وهنا يجمل بي ان اقتبس العبارة التاليه من كتاب الدكتور بوزانكيت (النظريه الفلسفيه للدوله) الصفحه ١٣٩ .

« ان طبيعتنا بصفتنا افراداً عاقلين[Rational beings] تستلزم خضوعنا لارادة عاقلة حقيقيه وسواء اعترفنا بهذه الارادة او لم نعترف فانها موجودة كائنه فينا . وكل مجموعه منظمه من المؤسسات التي تمثل لنا بصورة عامه الظروف والاحوال اللازمه لتمكين هذه الارادة الحقيقيه من القيام باعمال تتكون من مجموعها حياة كاملة مقبوله لها حق علينا ولها علينا واجب الاخلاص والاطاعه لانها تمثل حريتنا . »

وعليه يمكن تلخيص ما وصلنا اليه لحد الآن بالعبارة التالية التي اقتبسها من هوبهوس ايضاً : —

« ان الحرية الاخلاقية هي في خضوعنا للارادة الحقيقية . والارادة الحقيقية هي الارادة العامة وهذه الارادة متمثلة في النسيج الاجتماعي (Social Fabric) ومع ان هذا النسيج لا يمثل تماما الارادة العامة بل يمثلها تمثيلا ناقصاً قابلا للتحسين لكنه بصورة عامة تمثيل كاف من الوجهة العملية واذا . لم تكن التقاليد الاجتماعية تعبر تعبيراً كاملا عن انفسنا فانها على كل حال اوسع تعبير موجود في اي وقت من الاوقات . والوعاء الذي يحمل هذه التقاليد او بالاحرى المبدأ المنظم الذي يمد هذه التقاليد بالحيوية والمعنى والنظام هو الدولة . فالدولة اذن هي

النفس الحقيقـة التي يذوب فيها الفرد . وهـذا هو السبب الرئيسي في الالتزام الاخلاقي السياسي (Political and moral obligation) وباختصار نحن احرار عندما نخضع عمـالنا لارادتنا الحقيقيـة التى هي الارادة العامة وهذه الإرادة متجسمة خير تجسيم في الدولة . هـذه هي النقاط الرئيسية في نظرية هيكل والمثليين .

(١) الارادة الحقيقية و(٢) الارادة العامة و(٣) ارادة الدولة

اذن توجد عندنا ثلاث خطوات وهي ارادتنـا الحقيقيـة التي هي الارادة العامة وهذه تساوي ارادة الدولة .

لنبحث في كل واحدة من هذه بالتفصيل :

ذكرنا ان الحرية هي خضوعنـا لارادتنـا ولـكن لأي ارادة من ارادتنا . لارادتنا العاقلة بالطبع . ماهي هذه الارادة العاقلة الحقيقيـة وكيف نميزهـا عن اراداتنا الـكثيرة الاخرى . وهل اراداتنـا الاخرى غير حقيقية .

الجواب هو ان عنـد الانسان ارادات كثيرة يناقض بعضها بعضاً : زائل موقت وبعضها دائم ثابت ، بعضها معقول يؤيده العقل وبعضها غير معقول يستسخفه العقل . ثم ان اراداتنا معرضة للتصادم مع ارادات غيرنا فكيف الحكم تجاه هذه التصادم ؟ العقل بالطبع لايقبـل بهـذا التصادم بين مختلف ارادات فرد واحد من جهة وارادات افراد آخرين من جهة اخرى . لذلك لو دققنا اراداتنا المختلفة الكثيرة في خلال مـدة لا بأس بها لتبين لنا ان هناك فوقها ارادة واحدة عاقلة لا محل فيها لهذا التناقض بين مختلف ارادات الفرد من جهة ومختلف ارادات الافراد الآخرين من جهة اخرى . وهذه الارادة هي الارادة الحقيقيةالتي نريدها حقيقة نحن

وان لم يخطر في بالنا في ساعة من الساعات اننا نريدهـا . وهي زيادة على ذلك الارادة التي ينبغي لنا ان نريدها لانها الارادة التي يقضي بها العقل والمنطق الانساني . والارادات الاخرى هي غير حقيقية ولا يعقل اننـا نريدها وان كان يظهر اننا نريدها . اي ان هناك ارادات كثيرة يريدها الانسان في الظاهر ولايريدهـا في الحقيقـة لانها تخالف العقـل وهناك ارادات لايريدها الانسان في الظاهر وربما لاتخطر بباله ولكنه لو اختلى بنفسه وفكر لوجد انه يريدها في الحقيقة وعندمانجبر الانسان على ارادة معقولة فانما نحن نرجع اليه ارادته الحقيقية التي ربما (كما قال بوزانكيت) ترجع له بشكل لايعرفه ويفقهه ولكنها في الحقيقة ارادته الكامنة

توجد في رأي هوبهوس عدة اعتراضات على هذا التمييز بين الارادة الحقيقية والارادة الغير الحقيقية .

اولا ان الارادات الظاهرية الزائلة هي حقيقيـة بقـدر الارادات المعقولة الحقيقية. فكونها زائلة اوتافهة اوطائشة لايعني انها غيرحقيقية لانه توجد حقائق زائلة تافهة غيرمعقولة . كما توجد حقائق دائمة معقولة فالارادات الزائلة التافهة هي حقيقية وهي اراداتنا وان كانت تافهة زائلة متناقضة . لان التناقض في رغبـات الانسان موجود وقسم من حقيقته وهو حقيقي بقدر ما ان الارادة العاقلة المتوازنة حقيقية .

ثانياً ان اصرار هيكل وبوزانكيت وغيرهما على ان الارادة العاقلة هي ارادة الفرد وان كان لايريدها في ساعة من الساعات اوحتى طيلة عمره هو اصرار خاطئ مبتني على اعتبار الانسان في حياته وغرائزه وسلوكه واساليبه التي لاتوافق المنطق غير حقيقي ولا يكون حقيقياً الا متى سلك في حياته سلوكا مبتنياً على منهج اوقاعدة منطقية معقولة . هذه فكرة

خاطئة جداً اولا لان السلوك غير الموافق للعقل هو حقيقي بقدر السلوك الموافق للعقل . ثانياً ان ارادة الانسان التي لاتنطبق على منهج معقول هي حقيقية بقدر الارادة التي تستند الى نظام معقول . ثالثاً ان الارادة المعقولة التي لا يريدها الانسان والتي نرغمه على قبولها وعلى انتهاجها ليست ارادته . واذا ما ارغمناه على العدول عن ارادته الاولى الغير العاقلة الى ارادة ثانية عاقلة فان العدول معناه ان الانسان تغير عن سابقه ولم يبق على حالته الاولى . لانه اذا اقتنع بقبول الارادة العاقلة فانه يكون بعمله هذا قد ارادها بنفسه واذا لم يقتنع فلا يمكننا ان نعتبر الارادة العاقلة المفروضة عليه ارادته . فالتمييز اذن بين الارادة الحقيقية والغير الحقيقية هو تمييز خاطئ من اساسه . لان كل ارادتنا حقيقية سواء اكانت تافهة زائلة ام دائمة قيمة معقولة .

الارادة العامة :

الخطوة الثانية في نظرية هيكل هي بما ان جميع الارادات الحقيقية (التي ربما لا يريدها كل منا في الظاهر والتي هي على الرغم من ذلك موجودة كامنة في كل فرد منا) متشابهة . لذلك توجد ارادة واحدة عاقلة حقيقية بالرغم من تعدد الافراد الذين هم في الظاهر مستقلون بعضهم عن بعض . وهذه الارادة العامة نظراً لتمثلها وتمركزها في الدولة تكون الدولة ذاتاً او شخصية كاملة وما الافراد فيها الا اجزاء في هذا الجسم الحيوي والارادة العامة الحقيقية هي لذلك ارادة هذا الجسم او هذه الذات الحية .

وكما ان ارادة الفرد هي التي تقوم بعملية تنسيق اعمال الانسان

والتأليف بين غرائزه وتسييرها في اتجاه واحد معقول كذلك ان الارادة العامة للشخص او الكائن العظيم — الدولة — تقوم ايضاً بعملية تنسيق ارادات الافراد الذين هم اجزاء فيها والتأليف بينها وتوجيهها في اتجاه واحد معقول يرتضيه العقل . واذا ماقامت الدولة باجبار احد الافراد على عمل من الاعمال يجب ان لا نعتبر هذا ضغطاً خارجياً . كلا بل هو اجبار داخلي لان الدولة كما سبق واوضحنا انما تمثل بارادتها العامة وباعمالها ارادتنا الحقيقية فكما انه لايجوز ان نعتبر زجر الانسان لغرائزه سلباً لحريته كذلك يجب ان لا نعتبر زجر الارادة العامة للفرد قتلا لحريته فالفرد في هذه الحالة انما تزجر ارادته الطائشة الغير عاقلة .

من هذا يتبين لنا الحد الذي تطرف اليه هيكل وبوزنكيت في ادماج شخصية الفرد بالدولة فبموجب نظريتهما ليس استقلال الفرد الا شيئاً وهمياً غير موجود في الحقيقة وشخصية الفرد وذاته انما هي جزء متم من كل وذلك الكل اوسع واعظم وافخم وأهم من الجزء بل شخصية الفرد هي واسطة لاغاية والغاية الحقيقية هي شخصية الدولة التي تتمثل فيها الارادة العامة التي هي الارادة الحقيقية لكل فرد .

لا اتمكن ان ادخل في جميع تفاصيل الانتقادات الكثيرة التي وجهت الى هذه النظرية فانها كثيرة معقدة ولكني سأقتصر على النقاط الرئيسية منها .

ان الانتقاد المهم في هذا الباب هو انه على فرض ان ارادات الافراد الحقيقية متشابهة متماثلة فهذا لايعني انهم اصبحوا وحدة وذاتية واحدة كشخصية الانسان ة لان كثيراً من الاشياء تتشابه في كثير من صفاتها

ولكن هذا التشابه لا يعني انها اصبحت وحدة بمجرد هذا التشابه . فيجوز أن ينسق الانسان الاشياء تنسيقاً مبتنياً على اشتراكها في بعض الصفات ولكن هذا التنسيق لا يعني ان الاشياء المنسقة على أسس تعود للمنسق قد اصبحت وحدة تشبه وحدة الفرد . كذلك الافراد فانهم بالرغم من تشابههم في كثير من الامور (ومجاراة لهيكل وبوزانكيت) في ارادتهم الحقيقية فان كل واحد منهم يبقى فرداً مستقلا له ذاتيته التي تشعر بانفصالها واستقلالها والتي ترفض كل اندماج بالمعنى المذكور . ولو كانت الدولة وحدة او شخصية بالمعنى المذكور لامكنها ان تشعر مع كل فرد في كل الامة وآماله وافراحه واتراحه كما يشعر الفرد بالالم عندما يصاب جزء من اجزاء جسمه بمصاب ولكن الدولة لا تشعر بمثل هذا مطلقاً فمجرد اشتراكنا في بعض الصفات واتحادنا في بعض الامور لا يعني اندماجنا والقضاء على ذاتيتنا المستقلة وان الاصرار على اعتبار الفرد جزءاً من كائن اعظم اي الدولة والغاء استقلال شخصيته بالقضاء على ذاتيته يفسح الطريق ويمهده لجميع انواع الظلم والاستبداد . فاذا كان في المجتمع شيء ثمين فذلك الشيء هو الفرد الذي ضميره هو المقياس الوحيد للاعمال الاجتماعية . فالفرد شخصية مستقلة ومحاولة دمجه بغيره وتشكيل شخصية كبيرة من مجموع الافراد شخصية تذوب فيها شخصيات الافراد هي محاولة فاشلة تماماً . وكذلك ان تبرير ممارسة القوة الاكراهية التي تستخدمها الدولة في اجبار الفرد باعتبارها اكراه من نفس الفرد لنفسه او اكراه الكل للجزء او اكراه الجسم الكامل لعضو من اعضائه او اكراه الارادة العاقلة الحقيقية للارادة الناقصة الطائشة ، كل هذا تشبيه في غير

محله والتبرير المبتني عليه هو لهذا السبب تبرير خاطئ .

فاكراه الدولة للفرد هو اذن اكراه من غيره له لا من نفس الفرد لنفسه . بقي علينا اذن تبرير هذا الاكراه لا على أساس الوحدانية بين الفرد والدولة او وحدانية ارادة الفرد الحقيقية وارادة الدولة بل على اساس آخر . لايلغي استقلال شخصية الفرد بل يعتبرها المحور الحقيقي والحكم النهائي في الامور الاجتماعية . وهذا لاساس هو كما يلي :

ان كل اكراه هو تقليص للحرية ومن السخف اعتبار الاكراه عنصرا من عناصر الحرية ولكن تقليص الحرية في جهة يوسع عليها في جهة اخرى . فتقليص حريتي في بعض الجهات هو توسيع لحرية الآخرين من جهات اخرى وبما ان الامر متبادل كذلك تقليص حرية الآخرين هو توسيع لحريتي من جهات أخرى . وهذا التقليص المتبادل الذي هو التأليف بين الحريات يفسح (حتى من الوجهة الرياضية) فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار جميع افراد الدولة اكبر مجال لحرياتنا .

ولا بد لي أن أترجم هنا الفقرة التالية الواردة في الصفحة ٦٠ من كتاب هوبهوس : —

« لا تتألف الحرية السياسية في الحقيقة من تشابه الارادات او الافكار بل من احتمال الاختلافات واعتبارها مؤدية الى حياة أثمن واخصب من الحياة التي تؤدي اليها المشابهة التامة . فالحرية باعتبارها شيئاً قابلا لان يشترك فيه جميع اعضاء المجتمع تستلزم منع مايقف عثرة في سبيل ذلك الاشتراك فالمجتمع يكون بصورة عامة مجتمعاً حراً لا لسبب قلة قوانينه أو كثرتها بل لان قوانينه بشكل يفسح المجال للنمو الشخصي والاجتماع الحر المشترك بتحديد ذلك النمو الذي يكون على حساب

الآخرين . وكذلك ان المجتمع الحر انما يكون حراً ليس لوجود عقل عام مشترك يكيف الفرد ويصوغه بل لوجود مجال كامل لجميع العقول ان تنمو وتتكامل ولا يحصل هذا المجال الا اذا تحققت بالجهود المنظمة تلك الشروط او الظروف الاساسية التي تؤمن تبادل الاراء بشكل حر »
ثم قال في الصفحة (٦١) :

«وهناك معنى آخر للحرية السياسية وهذا المعنى يقضي بالمواطنة النشيطة الفعالة (Active Citizenship) فلا يحق للفرد ان يطالب بان يكون القرار العام مماثلا لقراره . هذا شيء مستحيل ولكن يجب للفرد ان يطالب بأن يؤخذ رأيه بنظر الاعتبار . فله ان يطالب بان يلعب دوره في المسائل العامة لانه يتحمل حصته من المسؤولية . وبقدر مايشترك بادلاء الرأي والتصويت فانه يكون قد اشترك في اعطاء القرار ولو كان قرار المجموع في بعض القضايا يأتي ضد رأيه ، فانه حر ليس لان الارادة العامة ارادته بل هو حر لان له من المجال للتعبير عن رأيه بقدر ما للاخرين ، واعطاء الفرد اكثر من هذا ينتج ظلماً وعسفاً واقل منه ينتج عبودية »

اسباب الالتزام السياسي ووجوب اطاعة القوانين

لم نحن ملزمون باطاعة الدولة في رأي هيكل وبوزانكيت وغيرهما وما هي حدود طاعتنا ؟

قلنا ان الارادة الحقيقية هي الارادة المعقولة التي تسير وفق منهج معقول وهذه الارادة تساوي بدورها الارادة العامة وهذه الارادة العامة تتمثل في التقاليد والانظمة والقوانين والمؤسسات الاخرى التي تحرس عليها الدولة وتعطيها حيوية وفعالية وانتظاما ومعنى ، اذن ارادتنا الحقيقية العاقلة تمثل في الدولة . والعقل بالطبع يقضي بان نطيع

ارادتنا الحقيقية العاقلة . هذا هو السبب في وجوب اطاعتنا الدولة لانها تمثل ارادتنا الحقيقية العاقلة .

يقول المثليون ان العادات والتقاليد والمؤسسات الموجودة في مجتمع هي بمثابة تعبير عن عقل شبحي اوروحي . وهـذه يقـارنها هيكل بالتجردات الفكرية للعقل الذاتي (Abstractions of the Subjeative Reason) قال هيـكل في كتابه فلسـفة القوانين « يجب ان نضع مقابل هـذه الارادة الفردية فكـرة اخرى اساسيـة هي ان الارادة الشبحية او المائلة (Objective will) هي إرادة عقليـة في أُصلهـا سواء أُأعترف بها الافراد وارادوها ام لا ».

قال هوبهوس ساخراً من هذه الفكرة « ليستاذن تشبثات المفكرين بأن يتصوروا ويؤسسوا نظاماً اجتماعياً معقولا الا سفاسف اوخيالات العقل الذاتي (S.ıbjective reason) فان المؤسسات الواقعية لاي مجتمع او دولة هي العقل الشبحي وفيها من المحاسن التي يصبو اليهاالعقل الانساني مايفوق تصورات الفلاسفة وخيالات المصلحين السياسيين . وعندما نفكر في المتناقضات الحقيقية الموجودة في الاخلاق الاجتماعية المتعارفة وفي رداءة القوانين وخشونتها وفي عناصر الانانيـة والقسوة الموجودة في عـلاقات الطبقـات بعضها ببعض وفي البلاد الميكانيكية الموجودة في اعلى مؤسسات الحـكومة وفي الشقاء الجسيم الذي قامت عليه صروح سائر المدنيات التاريخية فاننا نميل عندئذ الى القول بان تحليل المثليين هذا لايستحق استهزاء الفيلسوف فحسب بل استهزاء كل من يملك ذرة من العقل » فاعتبار المؤسسات والتقاليد والقوانين القائمة بمثابة العقل الشبحي المجسم لارادة واحدة عاقلة هو خطأ كبير جداً . وليست

حياة الدولة والمجتمع قائمة على تفكير عقل واحد ومسيرة بارادة عاقلة واحدة تمثل ارادتنا الحقيقية العاقلة . كلا بل ان التحليل الحقيقي الواقعي يرينا ان الدولة قائمة على تزاحم ارادات شخصية او طبقية متناقضة تضرب بعضها بعضاً . وان الذي يدرس العلاقة بين القوانين والآراء العامة ويراقب مساعي الجماعات التي تجتهد ان تنفذ اراداتها على رغم انوف الاكثريات الشعبية في صلب القوانين يجد ان التحليل المثلي مخطئ خطيئات فاحشة .

فبينما يعتقد المثلي ان غاية الدولة هي تمكين الفرد من ان يعيش عيشة صالحة من جميع الوجوه اذا به يجتهد ان يرى تلك الحياة الصالحة متمثلة في لدولة كما هي . اما المفكر العقلي (Rational) فانه يتفق مع المثلي على ان هدف الدولة ومثلها الاعلى يجب ان يكون بتمكين الفرد من ان يحيا حياة صالحة يكون بها احسن ما يمكنه ان يكون ولكنه يرفض ان يعترف ان تلك الحياة متمثلة في الدولة القائمة بل هو يفحص الدولة ويحللها تحليلا مجرداً واذا ما حللها بدقة فانه يجدها ليست ناتجة عن ارادة واحدة بل هي نتيجة تفاعل ملايين الارادات في خلال اجيال طويلة وانه يوجد في هذه الارادات عناصر اجتماعية وعناصر مثلية عليا واشعة من العدل وانوار من الشفقة ولكن يوجد – الى جنب ذلك – في تلك الارادات نفسها انانية وغرور وقساوة وصلابة فردية ونوعية وهذه العناصر تتفاعل ومن تفاعلها تحصل الدولة ».

فاذا كانت الحالة كذلك واذا كانت الدولة لا تمثل الكمال والعدل وغير ذلك واذا كان من الممكن ان تستغلها فئات او طبقات او افراد او غير ذلك فأي حق لها بطلبها اطاعة اوامرها ونواهيها وقوانينها وانظمتها

اطاعة مطلقة عمياء لا حساب فيها ولا تدقيق . اما لاسكي وسائر الاشتراكيين الماركسيين فانهم يتطرقون ويذهبون الى ابعد من هذا ويقولون ليس فقط ان الدولة غير مبتنية على ارادة واحدة حقيقية تستهدف الصالح العام او انها نتيجة تفاعل ارادات كثيرة تستقر استقراراً موقتاً في الدولة القائمة بل انه يوجد دائماً في كل دولة جهة متغلبة تسير الماكنة وفق مصلحتها وان هذه الجهة تتساهل بجهات اخرى في الامور الثانوية ولكن إمتى ما تهددت مصلحتها فان تساهلها يذوب وينقلب الى شدة وقسوة ويعتقدون ان الجهة المتغلبة تكون دائماً الجهة المسيطرة على وسائل الانتاج والتوزيع .

لاشك ان هذه الفكرة متطرفة كثيراً وتبسط العمليات الاجتماعية والتاريخية بسطاً يقرب من السخافة على انه لاريب ان فيها عنصراً من الصحة مهما كان ضئيلا .

وما هو موقفنا لو وجدنا ان الدولة لا تمثل ما نصبو اليه او انها فعلا تخالف ما يرتضيه ضميرنا واننا إلا نشعر بوجوب الاطاعة بل نشعر بوجوب عدم الرضوخ ؟

والجواب ان الحكم النهائي في هذا الباب هو ضمير الفرد لا اكثر ولا أقل . ولكن كيف ذلك ؟ هل نجعل اذن ضمير الفرد حكما على جميع هذه التشكيلات الاجتماعية التي نشأت وترعرعت بجهود ملايين الافراد في خلال عصور عديدة ونحن نعرف ان ضمير الفرد شيء ناقص هو نتاج المحيط الذي ينشأ فيه الفرد وانه يطوح بصاحبه في كثير من الاحيان؟ الى التهور والخروج على تشكيلات معقولة ارتضاها المجموع . كيف يمكن في الحقيقة ان نجعل ضمير الفرد فوق الدولة ونمنحه سلطة مخالفة

لقوانينها وأوامرهاونواهيها ؟ ! ليس هذا الا طريق الفوضى والخراب ؟
الجواب هو اننا بين امرين اما ان نعتبر الفرد هو الوحدة القياسية في الحياة الاجتماعية وهو الغاية والنهاية من جميع هذه التشكيلات . واما ان نعتبره جزءاً أو عضواً صغيراً من جسم أو كائن أكبر أي الدولة ويكون ذلك الكائن الاكبر هو الغاية والهدف المقصود من جميع التشكيلات الاجتماعية وليس الفرد الا واسطة له . ففي الحالة الاولى (أي عندماتكون التشكيلات كلها بمافيها الدولة مستهدفة خدمةالفرد) لامناص من ان نوكل الدولة وسائر التشكيلات الى حكم الفرد وشعوره تجاهها . لاننا اذا لم نلتفت الى ما يحكم به ضمير الفرد نكون بعملنا هذا قدجعلنا الدولة نفسهاغاية لاواسطة ثم من الوجهةالاخلاقية نرى انضميرالفرد هو أساس القوانين الاخلاقية وعدم الاعتداد بضمير الفرد في الدولة معناه عدم الاعتداد بالقوانين الاخلاقية التي هي كما نعرف أعم من سائر القوانين الاخرى والتي هي في الحقيقة أعلى ما يجب أن يخلص اليه الفرد. نعم يجب على الفرد قبل ان يعطي الحكم بالمخالفة ان يزن الامور وزناً متقناً ويفكر ان الخضوع لقانون واحد أو عدة قوانين لا يرتضيها ضميره خير من أن يثور على النظام والاستقرار الاجتماعي الذي هو أضمن للسعادة على نواقصه من الفوضى التي تتسبب من مخالفته . ولكنه بعد الوزن الدقيق والتفكير العميق اذا قرر ضميره ان المخالفة ضرورية لا مناص منها عندئذ يصبح من الواجب عليه ان يخالف .

هذا بالطبع هو التحليل النظري البعيد . اما من الوجهة العملية فلا يحدث هذا الامر في الحياة الاعتيادية لأن عادة الطاعة وحب الاستقرار متأصلة في نفوس الناس وهم لا يشقون عصاها الا اذا استفزوا بمخالفات

لا تحتمل وظلم لا يطاق . ولا خوف في الحقيقة على النظـام والاستقرار والقوانين والدولة بصورة عامة من تنصيب ضمير الفرد حكماً نهائياً لان ضمير الفرد صبور جداً وحليم جداً وقانع جـداً لا يتململ ولا يتدخل الا في الاحوال القاسية التي يضطر فيها الى التدخل .

ولـكن وجوده حكما ولو شبحاً بعيداً هو أمر ضروري جداً في الحياة السياسية والاجتماعية لانه يذكرنا دائما بوجوب الرجوع الى الفرد لمعرفة قيمة الدوله وقيمة التشكيلات الاجتماعيـة حيث ان مجموع الافراد هم الذين في النهاية يقررون قيمة الدولة فالدولة الجيدة الصالحـة هي التي تجعل نفسها صالحة وجيدة في عيون أفرادها لا في عيون أفراد آخرين وفي ضمائر أفرادها لا في ضمائر أفراد آخرين والدولة الجيدة الصالحة هي التي يحكم لها افرادها بصلاحهـا وجودتها ومع ان طريقة الرجوع الى الافراد لمعرفة احكامهم من أعقد الامور التي يبحث فيها علم السياسـة لـكن هذا الرجوع لضمير الفرد ضروري لا مناص منه اذا كنا نريد ان نجعل من الدولة واسطة لا غاية .

وهنا لا بد من ترجمة فقرة من كتاب هارولد لاسكي (الدولة نظرياً وعملياً) :—

« ان المحل الوحيد الذي يجب ان نبحث فيه عن مشروعية القانون هو ضمير الفرد . فالقانون مشروع بالنسبة لي اذا نال رضا وجـداني . واذا قال قائل ان هذه الفكرة تفتح طريقا للفوضى فجوابنا هو الاعتراف بالتهمة . ولـكنها ليست تهمـة خطيرة لانه في حياة الدول باب الفوضى مفتوح دائما والناس لا يقبلون ابدا ان يعترفوا بالسلطة المطلقة . واذا قيل بأن وجدان الفرد معرض للخطأ كوجـدان الافراد الذين بيدهم السلطة

فالجواب هو ان هذا القول صحيح ولكن المواطن اذا سلم وجدانه باعتبار انه معرض للخطأ ذاب كل معنى للمواطنة وامسى الفرد في الحقيقة غير مواطن بل آلة صماء . ولا توجد في الحقيقة طريقة امضى في جعل الدولة فعالة في تحقيق واجباتها غير معرفتها بأن اوامرها ونواهيها معرضة للرفض اذا خالفت ضمائر مواطنيها باعتبار ان تلك الاوامر مخالفة لواجب الدولة ووظيفتها » .

هذا هو المبرر الوحيد للمساعي الكثيرة التي بذلت ولا تزال تبذل لتحقيق مختلف النظم الديمقراطية . ومع ان هذه المساعي كانت ولا تزال تلاقي صعوبات كثيرة جداً ولكنها بالرغم من تلك الصعوبات تستحق كل تقدير وعطف لانها مبتنية على اساس اعتبار الفرد الغاية النهائية من الدولة والتشكيلات الاجتماعية ولا يمكننا ان نتأكد من ان الدولة سائرة لتحقيق هذا الهدف الا اذا اعطينا الحكم النهائي لوجدان الفرد.

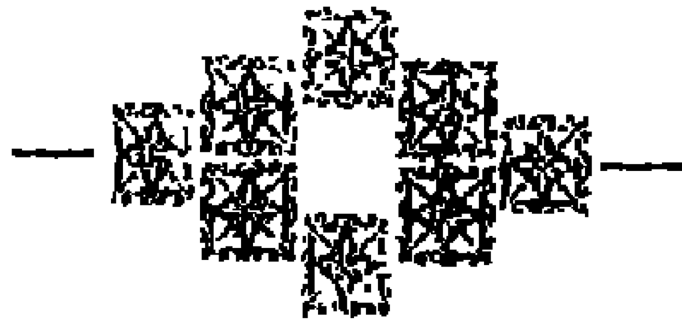
اما اذا لم نعط الفرد هذا الحق فان الدولة تصبح آلة مستبدة مسخرة لا لسعادة المجموع بل لسعادة من يسيطرون على ما كنتها ويكون الفرد فيها جزءا عديم الاهمية في كل لا يلتفت الى اجزائه . وهذا احد الاسباب الكثيرة في ان نظرية هيكل وبوزانكيت وغيرهما من المثليين المتطرفين لا تقر بالمساعي الديمقراطية بتاتاً . وبالطبع لا يسعني في هذه المحاضرة ان ادخل في بحث جميع تفاصيل نظرية هيكل وخاصة في تطبيقها عمليا ولكني اقتصر على ذكر القيمة الضئيلة التي يعلقها هيكل وبوزانكيت وغيرهما على الفرد من جهة وعلى المجموع من جهة اخرى فالدولة يجب ان تسير في مهمتها غير ملتفتة الى اعتراضات الفرد او المجموع لان مهمتها التي هي مبتنية على الارادة الحقيقية المعقولة هي انبل واثمن بكثير من ان تستمع

الى شكاوي الافراد واحكامهم واعتراضاتهم . وليست قيمة الدولة اذن بانماء مواهب جميع افرادها انماء متناسقا متآلفا بل قيمتها بوضع ذلك النمو وذلك التقدم في الفرد والمجموع موضعا ثانوياً بالنسبة الى الكائن الاكبر الخيالي الذي يشملهم جميعاً ولكنه ليس هم ، وحتى عنصر التفكير والعقل في الفرد فانه يجب ان يبقى كامنا لا يمد الفرد يده اليه لان الفرد غير قادر على استثماره الاستثمار المطلوب بل يجب ان يترك استثماره الى رجال الدولة لانهم اقدر على استثمار عقل الفرد من الفرد نفسه ووظيفة الفرد والمجموع على حد قول موسوليني هي ان « يعتقد ويطيع ويحارب » .

ان هذا المذهب هو المصدر الروحي للفلسفة السياسية الفاشيستية ولفكرة الدولة الشاملة (Totalitarian State) وبالطبع هذا هو القسم المتطرف من المذهب المثلي وهناك جهات معتدلة يمثلها بصورة خاصة توماس هل كرين مؤلف « كتاب مبادىء الالتزام السياسي »
(Principles of Political Obligation by T. H. Green)
ذلك الكتاب العظيم الذي مع احتفاظه ببعض الآراء المهمة في نظرية هيكل فانه يختلف عنه في امور كثيرة وخاصة من الوجهة العملية . فنظرية كرين نظرية انسانية تفسح مجالا كبيراً للديمقراطية ولا تعترف بأن الدولة تمثل فعلا العقل الشبحي الذي هو اعلى من العقل الذاتي (Subjective reason) وانها الكائن الاكبر الذي يجب ان يضحى الافراد له بل هي ترى ان اكبر واجب على الدولة هو ان تعمل ايجابيا لنمو افرادها بالاطاعة ولتكاملهم بشكل متآلف متناسق لا يضحي فرداً لفرد اومجموعا لطبقة وان على هذا الاساس وحده يحق للدولة ان تطالب افرادها بالاطاعة

والاخلاص وهذا الاساس هو المبرر الوحيد لممارسة الدولة سلطتها الا كراهية على الافراد وهو ملتقى تبادل الواجبات والحقوق بين الافراد والدولة .

فالدولة اذن سلطتها محدودة بهذا الاساس فاذا قامت عليه فسلطتها مبررة واذا انحرفت عن استهدافه فان سلطتها تكون غير مبررة والحكم الذي يحكم فيما اذا كانت هي قائمة به املا هو وجدان الفرد ليس الا .



الدكتور متى عقراوي :

مشروع التعليم الاجباري

في العراق

تؤلف الامة المتعلمة الحية قوة معنوية هي خير ما يدعم الجيش المنظم في الدفاع عن البلاد

بعض الارقام

عدد سكان العراق	٤ر٠٠٠ر٠٠٠
عدد الاطفال في سن الدراسة الابتدائية (على اساس ١٢٪ من السكان)	٤٨٠ر٠٠٠
عدد الطلبة والطالبات الموجودين الآن في المداراس الابتدائية الرسمية والاهلية	٩٠ر٠٠٠
عدد البنين والبنات الذين لا يدخلون المدارس وينشأون على الامية	٣٩٠ر٠٠٠

تنبيه : هذه الارقام جميعاً موضوعة على سبيل التقدير .

« خير ضمان لحياة هذه البلاد يقظة الامة برمتها وهـذا لا يتم الا بالتعليم الابتدائي الاجباري » .



الدكتور متى عقراوي

المقدمة

مضى على كاتب هذه السطور ردح من الزمن وهو يفكر قضية التعليم الاجباري وتعميم التعليم الابتدائي في العراق . وكان يتطرق الى هذا الموضوع في دروسه في دار المعلمين الابتدائية يوم كان مديراً لها . والقى على الجمهور بضع محاضرات في الموضوع نفسه في اوقات مختلفة ، ثم كتب فيه عدة مقالات في جرائد العاصمة ، كما انه عالجه بصورة مقتضبة في احدى مقالاته المنشورة في مجلة المعلم الجديد .

وبما ان الجمهور العراقي اخذ يهتم بهذه القضية الخطيرة بدليل تطرق عدد من المفكرين من الزعماء اليها ، وبدليل دخولها طور المناقشة في المجلس النيابي غير مرة وبطريقة اهتمام الصحافة بها . وهذا ماشجعنا على وضع رسالة موجزة في الموضوع على ان يجد فيها المفكرون بعض الفائدة، وعلى أمل ان تصبح احدى وسائل بث فكرة التعليم الاجباري في البلاد وزيادة اهتمام الجمهور بها .

وقد بينا في خلال بحثنا ان التعليم الاجباري من خير الوسائل التي تذرعت بها الامم الغربية وفي رأسها ألمانيا لبناء كيانها القومي واننا اذا اردنا ان نسير في هذا الطريق فنحن بحاجة الى ان نضرب في ستة تقريبا عدد الطلاب المسجلين الآن في مدارسنا الابتدائية الرسمية وكذلك عدد المعلمين وعدد المدارس كما اننا بحاجة الى ميزانية للمعارف تكاد تبلغ ستة اضعاف ميزانية المعارف الحاضرة او بين المليونين ونصف والثلاثة ملايين دينار . ومثل هذا المبلغ لا يمكن ان تقوم به الميزانية العامة فلا بد اذن

من فرض الضرائب المحلية والضرائب الخاصة للمعارف وهذا بدوره غير ممكن الا اذا رافق توسع المعارف انعـاش اقتصاديات البـلاد وزيادة في ثروتهـا على غرار البـلاد الغربيـة ، وقد بينا ان مبـدأ التعـليم الاجباري يحتاج الى الانتهاء من تطبيقه الى نحو الثلاثين سنة اذا سار ناسيراً معتدلا بشرط ان نبدأ بالتنفيذ من الان وبشرط ان تقوم وزارة المعارف وحدها بذلك ولـكن تتعاون عليه دوائر الدولة المختلفة والسلطات المحلية والبلديات فيقوم كل منها بقسطه وقد اقترحنا ان تفتح شعبة للتعليم الاجباري في وزارة المعارف يقوم مديرها بزيارة جميع انحاء العراق قرية قرية وزاوية زاوية وبعد ان يطلع على سير التعليم الاجباري في البلاد الغربية المهمة يضع خطة مؤسسة على الاحصاء والاستقراء العلمي لتوسيع التعليم الابتـدائي في السنوات العشر القادمة كخطوة اولى في سبيل تنفيـذ المشروع . واخيراً اقترحنا ان يبدأ بتطبيق مبـدأ التعليم الاجبـاري من الآن على المدن الصغيرة والقرى التي فيها مدارس كافية لجميع طلبتها ثم التوسع من هذه الى القرى الصغيرة من جهة والمدن الـكبيرة فالـكبرى من الجهة الاخرى . على ان هذا لا يجب ان يوقف فتح المدارس في المدن الكبرى ايضاً بل بالعكس يجب ان يسير التوسع فيها بمقتضى مشروع التعليم الاجباري يداً بيد مع القرى . غير ان تطبيق قانون التعليم الاجبـاري فيها نهائياً لا بد ان يتـأخر لـكثرة المدارس المطلوب فتحها في كل من المدن الـكبرى بحيث لا يمكن ان تصبح المدارس كافيـة لقبول جميع الطلبة والطالبات إلا بعد مدة من الزمن .

ولم نتطرق الى موضوع مكافحة الامية بين الراشـدين رغم علاقته الشديدة بالتعليم الاجباري لأنه موضوع واسع قائم بذاته ويحتاج الى

معالجة خاصة .

وما حملنا على كتابة هذه الرسالة إلا قناعة راسخة بأن حياة هـذه البلاد وتـكوين كيان رصين ومتين لها ، وتحسين الحالة الصحية فيها ، ورفع مستوى معيشة أهلها ، وايجاد ثقافة عصرية زاهية فيها كل ذلك يتوقف الى حد بعيد على انتشار التعليم العـام الاجبـاري فيها بحيث لا يبقى فرد واحد من ابنائها وبناتها غير متعلم تعليماً ابتدائياً على الأقل .

واذا كان البعض من غير المطلعين يرون البحث في هذا المشروع ضرباً من الخيال فاننا نرى فيه مشروعاً حيوياً لبلادنا قابلا للتنفيذ اذا بدأنا بالتفـكـير به من الآن واعددنا له العدة وقمنا بتنفيذه بالتدريج ، بحيث لا يداهم الشيب هـذا الجيل من الشبان حتى يكونوا قـد أتموا رسالتهم الى امتهم بأن نشروا التعليم الابتدائي العام فيها ووضعوها على اساس متين راسخ لا تزعزعه تقلبات الايام .

وهذه خير أمنية يتمنى كاتب هذه السطور وهو من ابنـاء الجيل الحاضر ان يراها في حياته بعد أمنية رؤيه بلاده العراقيـة والعربيـة متحدة مستقلة .

الفصل الاول

كيف نشأت فكرة التعليم الاجباري

فكرة التعليم العام لجميع ابناء الامة فكرة انتشرت انتشاراً واسعاً في البلدان المتمدينة في العصور الحديثة . على ان البلاد الغربية ليست الاولى في تطبيقها وقد يدهش القارئ اذا علم ان اول تطبيقها كان على يد شعبين شرقيين هما العبرانيون والعرب . اما العبرانيون فقد سنوا قانوناً في القرن الاول للميلاد في القدس بجعل التعليم اجبارياً لكل الاولاد فوق السن السادسة . ولا نعلم مقدار تطبيق هذا القانون وكم كان نصيبه من التنفيذ [1] . واما العرب فقد ذكر دوزي اشهر من كتب في تاريخ العرب في الاندلس عند الغربيين ان جميع الناس تقريباً في الاندلس في أبان مجدها كانوا يحسنون القراءة والكتابة [2] . والارجح ان انتشار العلم ومعرفة القراءة والكتابة في بغداد في العصر العباسي لم يكن اقل منه في الاندلس . وكان الدافع لنشر القراءة والكتابة عند العبرانيين الدين وضرورة تعليم التوراة للجميع وهذا السبب هو عين الذي دفع العرب والمسلمين الى تعميم القراءة والكتابة رغبة في تعليم القرآن الكريم لكل مسلم أضف الى ذلك ولع العرب بالأدب ورواية

---

(١) انظر دائرة معارف التربية Enyclopedia of Educatian لبول منرو تحت عنوان Jewish Education

(٢) انظر Dozy, R, Histoire des Musulmans d' Espagne Tomc II, Livre III ,p 184 .

الشعر واعتبارهما زينة الانسان ومن مؤهلاته للكمال .

وكان الدين ايضاً العامل الاكبر لنشر التعليم في اوربا بعد الاصلاح الديني في القرن السادس عشر فقد الح مارتن لوثر مؤسس الحركة الاصلاحية التي عرفت بالبروتستانتية على وجوب تعليم القراءة لكل مؤمن لكي يتمكن من قراءة التوراة والانجيل . لذلك كانت الامم البروتستانتية اسبق الامم الى نشر التعليم العام من غيرها في اوربا . وكانت المانيا مهد الحركة الاصلاحية هي البادئة ولم تكتف منذ البدء بمجرد فكرة تعميم التعليم بل زادت عليها فكرتين مهمتين الاولى ان هذا التعليم العام يجب ان يكون اجبارياً والثانية انه وظيفة مهمة من وظائف الدولة . وهكذا كانت ولاية فايمار اولى الولايات الالمانية التي سنت قانوناً للتعليم الاجباري سنة ١٦١٩ وتبعتها ولاية كوتا سنة ١٦٤١ فمملكة بروسيا اعظم الولايات الالمانية اذ سن ملكها فريدريك وليم الاول قانوناً للتعليم الاجباري سنة ١٧١٣ وتم تعديله واصلاحه سنة ١٧٦٣ على يد الملك فريدريك الكبير باني عز بروسيا والذي فكر في نشر التعليم العام واسطة لتقوية بروسيا برفع مستواها الاقتصادي .

على ان قوانين التعليم الاجباري في المانيا مع ما افادت به من نشر التعليم لم تطبق بحذافيرها بل كان نصيبها الاهمال الى حد ما وذلك لتهاون السلطات المحلية في تطبيقها من جهة ولسوء حالة المانيا الاقتصادية في ذلك الحين وعلى الأخص في الأرياف وعدم وجود ثروة عامة كافية تساعد على تطبيق التعليم الاجباري من الجهة الاخرى .

ثم كانت نكبة المانيا اذ خذلت جيوش بروسيا امام جيوش نابوليون فسقطت بروسيا تحت قدميه وفرضت عليها في معاهدة تلسيت

سنــة ١٨٠٧ شروط قاسيــة واحتل مئة وخمسون الفــا من الجنود الافرنسيين الاراضي البروسية ومن ضمنها برلين واشترط على حكومة بروسيا ان تتحمل نفقاتهم . فعظم ذلك على الألمان ومفـكريهم وكانوا يحسبون انفسهم امة ذات مدنية خاصة ، لها آدابها وفنونها وقام فيها فلاسفة وشعراء وكتاب وموسيقيون عظام . وهكذا خلق احتلال نابليون لألمانيا رد فعل قوي فقام فيختة (Fichte) احد فلاسفتها المشهورين وصرخ صرخته العظيمة في خطابه الى الامة الالمانية التي القاها في برلين سنة ١٨٠٧ — ١٨٠٨ فقال فيها ان الوسيلة الوحيـدة لتخليص المــانيا وانهاضها من كبوتها هي التمسك بالقومية الالمــانية والثقافة الالمــانية ونشر الروح الوطنية . والطريقة الوحيدة لذلك هي تعميم التعليم بين جميع طبقات الامة وصحب ذلك اصلاح نظام بروسيا الاقتصادي على يد البارون فونستاين كبير وزرائها وذلك باصلاح نظام الاراضي الزراعية والضرائب الزراعية مما ساعد على انماء الثروة في البـلاد وانعاش الزراعة ومكن السلطات المحلية من تحمل نفقات التعليم .

ولقيت فـكرة فيختة رواجاً عظيماً وسنت القوانين المشددة لجعل التعليم اجبارياً من بين السادسة الى الرابعة عشرة من العمر واعطيت الحـكومات المحلية السلطة لفتح المدارس تحت رقابة الحـكومة المركزية وبعد ان كان اصحاب الحرف والجنود والضباط المتقـاعدون والقسس يحترفون التعليم فتحت دور خاصة لاعداد المعلمين أول مرة في تاريخ التربية واصبحت هذه الدور اعظم المراكز لبث روح الوطنية الالمــانية والتمسك بالقومية الالمانية . ولم تأت سنة ١٨٤٠ حتى كان نظام التعليم العام الاجباري في المانيا خير النظم في العالم أجمع ونهضت المــانيا بعد

ذلك نهضتها الجبارة بواسطة التعليم حتى قيل وبحق ان الامبراطورية الالمانية بنيت على سواعد المعلمين اولا والجيش ثانياً وهكذا القت المانيا درساً على العالم في التعليم الاجباري وفي كيفية تكوين امة بواسطته واصبح ما قامت به في هذا المضمار اسطورة من اساطير التاريخ الرائعة .

وسنت فرنسا اول قوانينها للتعليم الاجباري لمدة ثلاث سنوات في اثناء الثورة الافرنسية في سنة ١٧٩٢ غير ان تقلبات الحكم الكثيرة في فرنسا بين ملكيات وجمهوريات وما رافقها من ثورات وحركات رجعية حال دون تطبيق مبدأ التعليم الاجباري حتى كانت الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين فقام جول سيمون يدعو الى التعليم الاجباري بين سني السادسة والثالثة عشرة ولكن لم يسن قانون لذلك الا سنة ١٨٨٢ . وقد اعتمدت فرنسا على تعليمها الابتدائي العام لتثبيت الحكم الجمهوري في البلاد من جهة ولبث الروح الوطني وتعزيز القومية الافرنسية ومحاربة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية من جهة اخرى .

وكانت انكلترا تعتمد في نشر التعليم على المؤسسات الخيرية والكنائس ولم يكن للحكومة يد كبيرة فيه حتى جاءت سنة ١٨٠٨ اذ قامت لجنة برلمانية بالتحقيق في وضع المعارف في البلاد وأبانت حالته السيئة وحينئذ اعطيت سلطة قانونية للمجالس المحلية بفتح المدارس وبدئ بتطبيق مبدأ التعليم الاجباري بصورة خفيفة اولا ثم جعل من سن الخامسة الى سن الرابعة عشرة سنة ١٨٧٦ ولكن ترك فيه مجال كبير للاعفاء وما زالت انكلترا تحسن قوانينها في التعليم الاجباري بين حين وآخر حتى كانت سنة ١٩٣٥ اذ زادت على سن التعليم الاجباري سنة

اخرى بجعلها السن التي يسمح للطالب بترك المدرسة الخامسة عشر بدلا من الرابعة عشرة :

اما في الولايات المتحدة الاميركية فليس للحكومة المركزية سلطة تذكر على المعارف وانما اودعت المعارف الى السلطات المحلية والى حكومات الولايات . ويرجع تاريخ تطبيق مبدأ التعليم الاجباري أول مرة الى سنة ١٦٤٢ في ولاية ماساجوستس لما كانت الولايات المتحدة مستعمرات انكليزية . على ان التطبيق الحقيقي لم يبدأ الا في اواسط القرن التاسع عشر اذ سنت الولاية نفسها قانوناً للتعليم الاجباري سنة ١٨٩٠ حتى كانت جميع الولايات الشرقية والوسطى والغربية قد سنت القوانين للتعليم الاجباري لأعمار تتراوح بين السادسة والثالثة عشرة او الرابعة عشرة وتأخرت الولايات الجنوبية عن سائر الولايات بسن هذه القوانين اذ سنها آخر واحدة منها سنة ١٩٠٨ .

ويمكننا ان نلخص هذا البحث التاريخي الموجز بقولنا انه اذا كان الدين في السابق الحافز لنشر التعليم فان الحافز الاعظم في العصر الحديث هو الروح القومي واقتناع الامم ان التعليم الاجباري لجميع افراد الشعب عامل اساسي في استقلال الامم وحفظ كيانها وقد برهنت المانيا ذلك عملياً اذ نهضت من نكبتها العظمى بواسطة التعليم واقتبست سائر الامم عنها مبدأ التعليم الاجباري . كما ان التعليم الاجباري اصبح الواسطة المهمة التي تستعملها الدولة في بث مبادئها بين جميع طبقات الشعب فاستعملته المانيا في بث ما ادعته بالثقافة الالمانية والوطنية الالمانية فاستعملته فرنسا لبث الروح الجمهوري والقومي معاً . وتبعت الدول الحديثة هذا الطريق فقامت ايطاليا تنشر

المبادئ الفاشستية بالتعليم وقامت روسيا تبث المبادئ الشيوعية بها ايضاً .

وامران آخران يمكننا ان نستنتجها من تدقيق تاريخ التعليم الاجباري عند الامم الكبرى اولها ان التطبيق لمبدأ التعليم الاجباري لم يصبح ممكناً الا بعد ان ازدادت الثروة العامة في البلاد الغربية وثانيها ان الدول استعانت بالسلطات والمجالس المحلية على تطبيق القوانين فقامت تعزز مكانتها وتتطلب منها فتح المدارس او تحمل قسم من نفقاتها وهذا ما فعلته المانيا وانكلترا واميركا وما فعلته فرنسا بدرجة أقل .

الفصل الثاني

لماذا نريد التعليم الاجباري ؟

ان في ما قامت به الدول الغربية الكبرى من نشر التعليم الابتدائي العام وجعله اجبارياً واستخدام ذلك كأحد الاسس المهمة لرقيها وترسيخ قدمها لدرساً لنا نحن الذين ننزع الى التقدم والرقي والحياة الحرة والى تبوء مركز سام بين الامم المتمدنة وعلينا اذا شئنا الرقي ان نقتدي بها بأسرع وقت . واذا كانت دول الغرب قد سبقتنا اشواطاً بعيدة في نشر الثقافة العامة فعلينا ان لا نبقى متأخرين عنها بل يجب التعجيل للحاق بها ومحاولة التساوي واياها في رفع مستوى الثقافة والتعليم .

١ — كانت الامم تحكم في العصور الغابرة حكماً استبدادياً مطلقاً لذلك كانت تقوم وتتعاظم بقيام افراد نابغين عظماء يحكمونها وتسقط بذهاب هؤلاء الافراد وضعفهم او ضعف احفادهم . اما اليوم

فقد انقضى كل ذلك واصبحنا في عصر تحكم الامم فيه نفسها بنفسها وتعتمد في بناء كيانها على تنبه الشعب بأجمعه وعلى شعوره بأنه يكوّن كتلة واحدة تجمعها روابط عامة تربط افرادها بعضهم ببعض وتكوّن هذه الكتلة النابهة المتحدة خير ما يقف في وجه كل اعتداء يقع على الامة من الخارج من جهة ، وخير ما يضمن حسن الحكم وسيره في مصلحة المجموع في الداخل من الجهة الاخرى . لذلك اعتنت الدول الحديثة بنشر التعليم بين جميع طبقات شعوبها وبتأسيس الحكم على اساس متين من شعب مهذب مثقف يقدر الحكم ويشعر بكيانه كأمة ورأت في ذلك ضماناً لكيانها وحافظاً لاستقلالها وحريتها ورفاهيتها :

ومن ينظر الى البلاد العربية اليوم يجد انها اجزاء من امة واحدة سعى بعضها لنيل استقلاله فناله . وهي اليوم تعمل على توطيد هذا الاستقلال وحمايته مما قد يهدمه من طوارئ الزمان . ولا تزال بعض اجزائها الاخرى تجاهد في سبيل استقلالها وتعمل على تحرير نفسها من النفوذ الاجنبي والبلاد العربية عامة والعراق خاصة ، واقعة من حيث الموقع الجغرافي بين الشرق والغرب ، فهي همزة الوصل بينهما وبها تمر اهم الطرق التجارية وطرق المواصلات البحرية والبرية والجوية بين آسيا واوربا وافريقيا ، هذا فضلا عن غنى مواردها . لذلك كانت في جميع العصور ولا تزال مطمح انظار الدول التي تحاول الاستيلاء عليها وما علينا الا ان ننظر الى التطاحن الدولي لتقسيمها والسيطرة عليها في القرن الماضي وهذا القرن لنتحقق الخطر الذي يحيق بها كما تحقق لنا ذلك بالفعل باحتلال هذه البلاد من قبل الجيوش الاجنبية . وقد كنا قبل الحرب العامة غافلين عن كل ذلك ولم ينتبه منا الى الخطر المحدق إلا فئة قليلة حاولت

انقاذ بلادها ولكن فت في عضدها عدم تنبه الامة العربية وتأخرها وسيادةالامية فيها . والآن ، والجشع الاستعماري قد بلغ اقصاهودعايات الاستعمار قد ملأت الفضاء والتطاحن الدولي ينذر بنشوب حرب اخرى افظع من الاولى تشتعل بها كل البسيطة ، على البلاد العراقيـة والعربيـة اجمع ان تستعـد للطوارئ . واي استعداد خير من تعلم الشعب بأجمعه وتنبهه بحيث يشعر بكيانه وبالخطر المحدق به ؟ وعلينا ان نصيح بملء افواهنا ان خير ضمان لحياة هذه البلاد هو يقظة الامة بأجمعها وهذا لا يكون الا بالتعليم الاجباري العام .

ان البلاد بحاجة الى جيش عظيم منظم بكل عدده وعـدده ولكن الجيش الحقيقي هو الشعب النابه المتعلم الشاعر بكيانه الحريص عليه فانه يشكل قوة معنوية عظيمة هي خير مايدعم الجيش المنظم . وما ماتت امة كان سوادها مثقفاً متعلماً ، وهذه بلاد اوربا في الحرب الماضية خير دليل على ذلك . فقد قاومت بلجيكا الصغيرة مقاومـة عنيفـة دفاعاً عن نفسها ونجحت في حفظ كيانها ، ومزقت المانيا بعد انكسارها المعاهدات التي كبلت بها باقل من عشرين سنة ، وتكونت جيكوسلوفاكيا من لاشيء ، وقامت بولونيا بعد فوات قرن ونصف قرن على استعبادها . كل ذلك بفضل تنبه الشعب والروح الذي نفخ فيه بواسطة التعليم .

٢ — ليس التعليم الاجباري العام واسطة لحفظ كيان الامة امام الطوارئ الخارجية فحسب بل هو خير آلة لتوحيدها في الداخل ، هو هو البوتقة التي بها تصهر جميع عناصر الامة لتكون كتلة واحدة ذات شعور واحد وامل واحد وايمان بمستقبل واحد . هو خير مايوجد شعور ابنـاء البـلاد ويجعلهم ينظر بعضهم الى البعض نظر ابناء امة

واحدة لا فرق بينهم مهما اختلفوا في النزعات والمذاهب والعناصر او الغنى او الفقر او البداوة او الحضارة او الاقليم .

٣ — ان التعليم العام من اهم الوسائل — وان لم يكن هو الوسيلة الوحيدة — لتعليم افراد الشعب حقوقهم وواجباتهم كمواطنين وبالتالي لضمان سير الحكم في البلاد سيراً حسناً . ان نظام الحكم في العراق يستند الى المبدأ الدستوري الديمقراطي وللفرد في هذا النظام حقوق يتطلبها من الدولة كما ان الدولة تتطلب منه القيام بواجبات معينة مقابل ذلك. والمواطن الحقيقي هو الذي يفهم هذه الحقوق والواجبات ويمارسها ويحرص عليها. وعلى نظام الحكم الذي يضمن هذه الحقوق ويدافع عن المواطن وعن سلامته بكل قواه والتعليم هو الواسطة المهمة لتلقين الافراد روح المواطنة الحقيقية .

٤ — اذا اتجه التعليم العام اتجاهاً صحيحاً يساعد على رفع مستوى المعيشة في البلاد وعلى تعويد الناس على المعيشة الصحية ومكافحة الامراض ووفيات الاطفال الهائلة عندنا . ان التعليم الصحيح يجب ان يعلم الناس كيف يعيشون عيشة مرفهة صحية وذلك يكون بجعله تعليما منطبقاً على حياة الافراد والجماعات معالجاً لمشاكلهم اليومية على قدر الامكان . فالطرق الزراعية في العراق قديمة وعقيمة وكذلك الطرق الصناعية ومع انه ليس في الامكان اصلاح هذه الطرق اصلاحاً تاماً بواسطة التعليم الابتدائي الاجباري لان هذا من شأن دوائر الصناعة والزراعة في الدولة ومن شأن المدارس الزراعية والصناعية الا انه في الامكان تمهيد الطرق لذلك بواسطة التعليم الاجباري وذلك بادخال بعض الامور الزراعية والصناعية البسيطة في المناهج الابتدائية وتطبيقها بصورة عملية .

وكذلك قل عن الصحة فان للمدارس الابتدائية رسالة صحية تحملها الى افراد الشعب فتعلمهم كيف يعيشون عيشة نظيفة بعيدة عن الاوساخ وتعلمهم العادات الصحية الحسنة وشيئاً عن انواع المساكن الصحية والامراض السارية والعدوى وتعقيم المياه وفائدة المؤسسات الصحية والتطعيم وتربية الاولاد تربية فنية صحية لتنتشلهم من الموت وتقلل من وفياتهم وتحفظ للامة جيلها المقبل وغير ذلك من الامور الصحية • ان الشعب المهذب كالفرد المهذب لا يرضى بان يعيش عيشة وسخة في محيط وسخ لذلك كان التعليم من الوسائل المتخذة لرفع المستوى الصحي في البلاد ووقايتها من الامراض .

٥ — والتعليم العام اساس متين لكل رقي اجتماعي ومبدأ لكل اصلاح اجتماعي حقيقي. ان الشعب المتعلم يجعل امر الاصلاح فيه ميسوراً ومهمة المصلح فيه اقل مشقة وهو يكون ارضاً خصبة للحركات الاصلاحية المفيدة وبعكس ذلك الشعب الجاهل فانه يكون كتلة ثقيلة الوطأة تقف سدا حائلا امام كل اصلاح . ولنأخذ اية قضية اجتماعية تحتاج الى عمل المصلحين فيها نجد ان التعليم شرط اساسي لها. فطالما سمعنا الكتاب والمصلحين الذين عالجوا قضية المرأة مثلا يقولون علموا المرأة اولا قبل ان تبدلوا اوضاعها . ونحن نقول علموا الرجل والمرأة تجدوا

ان قضية المرأة تحل نفسها بنفسها . فالرجل المهذب تهذيباً حقيقياً ينظر الى المرأة نظرة احترام وتزداد قيمة المرأة بنظره اذا كانت متعلمة وتشاركه في السراء والضراء وتكون معينة له لا عبئاً عليه . وتهذيب المرأة تهذيباً صحيحاً يرفع منزلتها الاجتماعية ويعلمها وظائفها العامة في

الحياة ويصقل اخلاقها ويوسع افق تفكيرها . والبيت المؤلف من رجل مهذب وامرأة مهذبة يكون عادة محيطاً روحياً هو خير البيئات لتربية الاطفال تربية روحية مؤسسة على الفضيلة والاخلاق . وبذلك تصلح حياتنا الاجتماعية وترتقي الاخلاق اذ يصبح البيت مأوى للرجل يجد فيه سعادته ويقضي فيه اوقاته بدلا من ارتياد المقاهي ومحلات اللهو المحرمة .

ومايقال في اثر التعليم في رفع مستوى المرأة والعائلة وحسن تربية الاولاد ورفع الحياة الاجتماعية يقال في اثره في مكافحة العادات البالية والخرافات والآفات الاجتماعية الاخرى وفي اثره في تربية جيل جديد يأخذ بالافكار والعادات الجديدة واساليب العيش الحديثة المؤسسة على العلم وعلى حسن ما انتجه الفكر البشري وهكذا نؤسس مجتمعاً جديداً عصرياً .

٦ — ان التعليم الابتدائي العام هو الوسيلة الوحيدة التي لدينا لاكتشاف نوابغ هذه الامة واستخراجهم من زوايا الاهمال وفتح المجال لهم لابراز نبوغهم واستغلال مواهبهم في خدمة الامة. فكم فتى او فتاة وهب او هبت من قوة الفكر والذكاء او القابلية الفنية او الجسمية او الصناعية مايكون منه اومنها خير عميم لنفسه اولنفسها وللبلاد ولكن ذلك الفرد مهمل خامل في احدى زوايا العراق تضيع مواهبه على الامة وعلى الجماعة التي يعيش فيها ويعلم الله ان البلاد بحاجة الى كل ذرة فيها من الذكاء والمقدرة الكافية ان كان لتكوين زعامة ذكية قديرة تقودها ، او ان كان لانشاء اختصاصيين يستغلون ثروتها العامة الكامنة وان كان لابراز فنانين حاذقين يجعلون حياتهم مملوءة بالجمال والذوق . واذا كان التعليم الثانوي والعالي والصناعي

والمهني والفني هو الذي يدرب هؤلاء ويجعلهم مهرة في فروعهم وفنونهم فان التعليم الابتدائي العام هو الواسطة لاكتشافهم من خباياهم واعدادهم لتعليم اعلى وذلك لانه يتغلغل بين جميع طبقات الامة فلا يدع فتى وفتاة الا ويعرف مقدار ما فيهما من مقدرة وقابلية.

٧ — واخيراً ليست هذه الامة امة مستحدثة بل هي امة ذات تاريخ عريق في القدم ولها ثقافتها التي ورثتها من الاجيال السابقة ولها مزاياها التي اصطبغت بها والتي تميزها عن غيرها من الامم. لها ادبها الذي يصور لها ماضيها وحاضرها ويضم في قلبه مثلها العليا. لها فنونها من موسيقى وبناء وزخرف. لها عاداتها ومزاياها الاخلاقية التي تحرص عليها من صدق وشهامة وحسن ضيافة ورعاية جار ونصرة ضعيف وحرمة نساء. ان هذه الامور مما يعطي هذه البلاد شخصيتها ويميزها في اعين الامم الاخرى. وما عاشت امة فقدت ميزاتها. لذلك من الواجب نشر هذا الميراث الادبي والفني والاخلاقي والاجتماعي بين جميع ابناء الامة ليتمسكوا به ويتصفوا به ولينموه ويزيدوا عليه ويقوموا ما اعوج منه ويوسعوا ما كان منه ناقصاً. وهل من وسيلة لذلك خير من التعليم العام؟

هذه اهم الاسباب التي تحملنا على المطالبة بالتعليم الاجباري وعلى التمسك بنظرية التعليم الابتدائي العام لجميع ابناء الامة وبناتها. وعندنا ان كل سياسة للمعارف في العراق لا تستهدف تعليم الشعب بكامله تعليماً ابتدائياً وتبدأ بوضع الخطط وتنفيذها بالتدرج هي سياسة ناقصة ولا تحل لنا مشكلتنا التعليمية الكبرى.

وبعد فما بالنا نحاول ان نثبت لقراء العربية شيئاً اصبحت الدول الغربية على اختلاف نزعاتها ومذاهبها السياسية تعتبره امراً بديهياً مفروغاً

منه ؟ فهذه بريطانيا الملكية الدستورية ، وهذه فرنسا والولايات المتحدة الجمهوريتان الديمقراطيتان ، وهذه المانيا وايطاليا الدولتان الفاشستيتان ، وهذه روسيا الجمهورية الشيوعية ، وهذه اليابان التي جمعت بين الانظمة الغربية وتقاليدها القديمة ، هذه جميعاً تؤمن بمبدأ التعليم الابتدائي الاجباري وتطبقه وتعتبر تهذيب الشعب بأسره امتن اساس لها واقوى ضمان لسلامتها ورفاهيتها. واذا قيل انه ليس للعراق الصغير ان يتشبه بدول عظيمة كهذه اوردنا سويسرا وبلجيكا والدانيمارك وتشيكوسلوفاكيا وفنلندا واسوج ونروج فانها كلها تطبق نظام التعليم الاجباري وكلها على صغرها من ارقى دول العالم ثقافة . بل هذه بلغاريا التي بالرغم مما اصابها من الخذلان في سياستها قامت بتعليم شعبها تعليماً عاماً بحيث اصبح نظامها التعليمي من احسن الانظمة التعليمية بين دول البلقان .

وهنالك دول قد اقرت مبدأ التعليم العام ولكنها لا تزال في طور تطبيقه ، فهذه بلاد المكسيك قد فتحت في الثماني او تسع السنوات الاخيرة ما يزيد على الاثني عشر الف مدرسة وهي سائرة سيراً حثيثاً في منهاجها التربوي . وهذه مصر شقيقتنا اقرت نظاماً دعته نظام التعليم الالزامي وهي جادة في تطبيقه . وقد ادخلت تركيا التي لم تمض عشرون سنة على انسلاخها عنها بعد تجد في مدارسها الابتدائية ما يزيد على الثمانمائة الف طالب وطالبة وهذا بالنسبة الى عدد سكانها هو نحو ثلاثة اضعاف ما ادخله العراق في مدارسه الابتدائية بالنسبة الى عدد سكانه .

ولعل في هذا كله ما يكفي لاقناع القارئ بأهمية قضية التعليم الاجباري وبأنه قد آن للعراق حكومة وشعباً ان يعالجها بصورة جديه فيضع الخطط لها بأسرع وقت ويقوم بتنفيذها بالتدريج وبقوة .

الفصل الثالث

المهمة العظمى

اما وقد درسنا نشوء فكرة التعليم الاجباري وتطورها ورأينا ماهي عليه من الاهمية والخطورة فلنبحث في المهمة العظمى التي تجابهنا اذا اردنا تطبيق نظام التعليم الاجباري في العراق . وبمعنى آخر لنر ماهو المطلوب منا تطبيقه كشعب وكحكومة وكوزارة معارف وكم نحتاج من المدارس والمعلمين والاموال وكم هو عدد الطلاب المنتظر دخولهم المدارس الابتدائية وما هو الوقت المقدر لانجاز كل ذلك .

ليس لدينا احصاء مضبوط للسكان في العراق وانما يقدر عدد السكان بصورة تقريبية باربعة ملايين نسمة . ومن العادة ان يحسب عدد الفتيان والفتيات الذين هم في عمر المدارس الابتدائية (بين السادسة والثانية عشر) على اساس عشرة اواثنى عشر في المائة من مجموع السكان . فان كان الاول (اي عشرة في المائة كان مجموع الفتيان والفتيات الذين هم في العمر المدرسي نحو اربعمائة الف وان كان الثاني (اي اثنى عشر في المائة) كان مجموعهم نحو الاربعمائة والثمانين الفاً يجب ان نسعى اذا كنا نريد تطبيق نظام التعليم الاجباري ان ندخلهم جميعاً المدارس الابتدائية .

واذا احصينا ماعندنا من الطلبة والطالبات حتى السنة الاخيرة في المدارس الابتدائية الرسمية لوجدنا عددهم لايزيد على الخمسة والسبعين الفاً وثلاثة ارباع هؤلاء لايكملون دراستهم الابتدائية بل يتركون المدرسة بين الصفين الاول والسادس . فاذا أضفنا اليهم الموجودين في المدارس

الابتدائية والاولية الاهلية والاجنبية لما وصل المجموع الى اكثر من التسعين الفاً . اي ان مافي المدارس الابتدائية الرسمية من الطلاب اليوم يتراوح بين خمس وسدس مايجب ان يكون فيها لوساد نظام التعليم الاجباري . وبعبارة اخرى ان اربعة اخماس الفتيان والفتيات الذين هم في عمر المدرسة او خمسة اسداسهم لا يزالون ينشأون على الامية في هذا القرن العشرين وعددهم الحقيقي هو نحو الثلاثمائة والتسعين الفاً .

تلك هي مهمتنا العظمى . هي ان نعلم هذا الجيش اللجب من الطلبة والطالبات ونفتح لهم مايكفيهم من المدارس موزعة على جميع زوايا العراق ونزود هذه المدارس بعدد كاف من المعلمين ونوجد لها الاموال الضرورية لتمشيتها وسد نفقاتها .

وكم من المدارس تحتاج الى تطبيق هذا المنهج ياترى ؟ ان عدد المدارس الابتدائية والاولية الرسمية الموجودة في العراق يزيد على الستمائة ومعدل مافي المدرسة الواحدة من الطلبة هو نحو مائة وعشرين طالباً فان اتخذنا هذا المعدل كاساس لحساب عدد المدارس الواجب فتحها لتراوح ذلك العدد بين ٢٦٠٠ و ٣٢٥٠ مدرسة ابتدائية فوق الستمائة الموجودة لدينا — اي مايتراوح بين الاربعة والخمسة اضعاف ماعندنا من المدارس .

وكذلك اذا اردنا ان نحسب عدد المعلمين الذين تحتاج اليهم المدارس على اساس معلم واحد لكل خمسة وثلاثين طالباً لتراوح عدد المعلمين المطلوب ايجادهم بين ٨٨٥٠ و ١١١٤٠ معلماً جديداً ماعدا الالفين وخمسمائة معلم هم في المدارس اليوم وهذا ايضاً يتراوح بين اربعة اضعاف وخمسة اضعاف ماعندنا من المعلمين الآن .

وما يقال في المدارس والمعلمين يقال في الميزانية ايضاً فان ميزانية

المعارف كانت الى نهـاية السنة المـدرسية ١٩٣٦—١٩٣٧ نصف مليون دينار او تزيد قليلا . فاذا كان مانحتاج اليه يتراوح بين الاربعة والخمسة اضعاف ماعنـدنا الان لوجب ان نزيد ميزانيتنـا الحاضرة الى مليونين ونصف مليون دينار .

هذه هي على وجه التقريب المهمة العظمى التي يجب ان نأخـذها على عاتقنا اذا كـنا نريد تطبيق التعليم الاجباري في العراق . فاذا اردنا تلخيصها جامعين ماعندنا اليوم من الطلبة والطالبات والمدارس والمعلمين والميزانية الى مايجب ان نفتحه في المستقبل من المدارس ونعده للمدارس من المعلمين وندخله من الطلبة والطالبات في هذه المدارس ونعده من الاموال لتمشيتها على اساس التعليم الاجباري لكان الملخص كما يلي :—

مجموع عدد الطلبة والطالبات الذين يجب ان يكونوا في المدارس الابتدائية من ٠٠٠ر٤٠٠ الى ٠٠٠ر٤٨٠ .

مجموع المدارس الابتدائية التي يجب ان تكون عندنا من ٣٢٠٠ الى ٣٨٥٠ مدرسة .

مجموع عدد المعلمين لهذه المدارس ١١٣٥٠ الى ١٢٦٤٠ معلماً .

مجموع الميزانية الضرورية للمعارف بجميع تشكيلاتها ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ دينار .

اي مايتراوح بين خمسة وستة اضعاف ماعندنا الآن، هذا ماعدا ماقد يحدث من ازدياد في الطلاب وفي المدارس والمعلمين المطلوبين لتعليمهم بين الآن وانتهاء المدة التي يمكن تطبيق هذا المنهج العظيم فيها لأن من البديهي ان منهجاً كهذا لايمكن تنفيذه في خمس او عشر سنوات لالعجز ميزانية الدولة في الوقت الحاضر عن القيام بتنفيذه فحسب بل لعدم امكان

اعداد المدارس الكافية والمعلمين في هذه المدة القصيرة . ومع انه يمكن تنفيذ المشروع ببذل المساعي العظيمة غير الاعتيادية في خلال عشرين سنة الا اننا نعتقد ان ثلاثين سنة هي المدة التي تتناسب مع اوضاع العراق وقابلياته الاقتصادية والاجتماعية .

على ان قولنا هذا ليس معناه اهمال قضية التعليم الاجباري في الوقت الحاضر والانتظار الى ان تمر مدة الثلاثين سنة ثم نطبقها باجمعها حينئذ والظاهر ان هذا هو مايعنيه معظم الذين يفكرون في التعليم الاجباري لأن فكرة التعليم الاجباري في اعتقادهم على ما يظهر فكرة غير قابلة التطبيق الآن وتحتاج الى وقت طويل وهم يستنتجون من ذلك انه يجب ان نؤجل العمل من اجلها الآن وهذا دليل على التفكير السطحي في هذا الموضوع الخطير .

ونحن نعتقد عكس ذلك ان تطبيق التعليم الاجباري قضية حيوية وهو من جملة القضايا الاساسية التي تتوقف عليها حياة البلاد واذا كانت تحتاج الى ثلاثين سنة لاكمال تطبيقها فذلك على شرط البدء بها من الآن بدرس القضية درساً دقيقاً ووضع خطه واسعه يبدأ تنفيذها بالتدريج فلا تمر ثلاثون سنه حتى يكون قد انتهى تنفيذها واصبح نظام التعليم الاجباري سائداً جميع انحاء العراق . اما اذا اهملنا الموضوع واجلنا البدء بتنفيذه فسوف تمر ثلاثون وخمسون سنه بل اكثر دون تحقيق هذه الامنيه العظيمه للبلاد .

يجب ان لا يفوتنا ان كل مدرسة جديدة تفتح في هذه البلاد هي خطوة في سبيل تحقيق التعليم العام . كما ان اول تأسيس المدارس العراقية في اواخر الحرب العظمى يمكن ان يعتبر بوجه من الوجوه خطوة في

سبيل تطبيق التعليم الابتدائي العام . ولا شك ان ازدياد عـدد الطلبة والمدارس والمعلمين المطرد منذ ذلك الحين الى الآن قد قربنا من الهدف العالي الذي نتزع اليه . ولـكن ليس هذا المقصود من كلامنا هنا . فقد مر علينـا عشرون سنة ونحن لم نسر اكثر من ربع او خمس الطريق وقد جاءت سنة لم تفتح فيها اكثر من ثلاث عشرة مدرسة في العراق كله (اي اقل من مدرسة واحدة لـكل لواء) كما انه لم تـكن هنالك سياسة معينة لفتح المدارس الجديدة وتوزيعها او خطة تمتد على عدد من السنين لهـذا الغرض . ومن البديهي اننا اذا بقينا نسير على هذه الطريقة فستمر ثمانون اومائة سنة دون ان نصل الى التعليم الاجباري وفي ذلك ما فيه من الضرر على البـلاد اجمع وهو ما لا يرضـاه العراقيون الذين برهنوا في مواقف متعددة على رغبتهم في ان تتبوأ بلادهم مركزها بين الدول المتمدنة .

اذاً من الواجب البـدء بالعمل في سبيل تحقيق فكرة التعـليم الاجباري من الآن وذلك يتوقف على ثلاثة امور مهمة اولهـا التسليم بأهمية هذه القضية العظمى تسليما فعلياً وتقرير مبدأ التعليم الاجباري كخطة عامة من خطط الدولة الاساسية لا تتبدل مهما تبدلت الحكومات والاحزاب والمذاهب السياسية فهذه قضية عامة لا شأن للسياسة فيها .

وثانيها — وضع الخطط المفصلة لتنفيذ مشروع التعليم الاجباري مؤسسة على درس احوال العراق الراهنة وتوزيع سكانه ومدنه وقراه وتعاون دوائر الدولة المختلفـة مع وزارة المعـارف في تطبيقهـا لأن مشروعاً عظيماً مثل هذا يستلزم اشتراك كثير من دوائر الدولة في بذل الجهد من اجله والا كان نصيبه الاخفاق .

وثالثها — ايجاد الاموال اللازمة لسد نفقات المشروع . ان قضية

امكانية تطبيق التعليم الاجباري هي من حيث الاساس قضية ايجاد المال اللازم فانه اذا توفر المال لن يصعب على الاختصاصيين في التربية من العراقيين وضع الخطط له . وسنبحث في القسم التالي عن المصادر التي يمكن ان يستمد منها المال لأجل التعليم في العراق .

الفصل الرابع

كيف نجد الاموال المقتضية للتعليم الاجباري ؟

اذا نظرنا الى البلاد الاجنبية الراقية نجد انها تعتمد عادة في ايجاد الواردات للتعليم على مصدرين مهمين : الميزانية العامة للدولة وهي تحت تصرف الحكومة المركزية ، والضرائب التي تجبيها السلطات المحلية وتخصص قسما منها للمعارف وتخصص الاقسام الاخرى لسائر المرافق التي تقوم بتنظيمها .

ونحن في العراق يمكننا لو شئنا الاعتماد لا على هذا المصدرين وحدهما بل على مصدرين آخرين تساعدنا احوالنا الخاصة على استغلالهما وهما واردات النفط والضرائب الخاصة بالمعارف التي تجبيها الحكومة المركزية وتخصصها للمعارف وسنبحث في هذه الواردات بشيء قليل من التفصيل .

اولا - الميزانية العامة

تعتمد المعارف العراقية الآن على مصدر واحد فقط لسد نفقاتها وهو الميزانية العامة وقد بلغت مخصصات المعارف في هذه السنة نحو الستمائة وعشرين الف دينار وفي الامكان ان يزداد هذا المبلغ الى المليون او المليونين وربع دينار كحد اقصى اذا بقيت الميزانية العامة على حالتها او ما يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين في المائة من الميزانية

العامة وربما لا تتمكن ان تتحمل ميزانية الدولة اكثر من هذا الا اذا نمت ثروة البلاد في السنين المقبلة الى حد تزداد فيه الميزانية العامة زيادة مطردة . اما اذا بقي الوضع على ما هو فستجد المعارف نفسها بعد بضع سنوات امام امر واقع وهو انه لا يمكن زيادة مخصصاتها من الميزانية العامة زيادة تذكر بعد ذلك ، وانه لا بد من التطلع الى مصادر اخرى لنشر التعليم حسبما تقتضيه مصلحة البلاد . ومبلغ مليون دينار ليس الا نحو ثلث ما نحتاج اليه لنشر التعليم الاجباري فاذا بلغ الى المليون وربع دينار لم يكن الا اقل من نصف المبلغ اللازم . فمن الواضح اذاً ان الواجب يقضي على رجال المعارف ورجال الدولة عامة ان يفتشوا عن مصادر اخرى لواردات المعارف .

ثانياً — الضرائب المحلية

لا نعرف بلداً مستقلا غير العراق تعتمد معارفه على الميزانية العامة فقط . بل المتعارف عند سائر الامم ان تشترك السلطة المركزية مع التشكيلات المحلية في تحمل نفقات المعارف وتوضع لهذه الغاية ضرائب محلية يخصص كلها او قسم منها للمعارف . واغلب ما يكون هذا الاشتراك في تحمل النفقات مناصفة بين السلطتين كما هي الحال في انكلترا مثلا اذ تدفع وزارة المعارف نصف النفقات تقريباً وتقوم السلطات المحلية والمؤسسات الخيرية بايجاد النصف الآخر . وقد تقوم السلطات المحلية بأكثر من النصف كما هي الحال في معظم الولايات المتحدة الاميركية . والسلطات المحلية في المانيا تتحمل جانباً لا يستهان به من نفقات المعارف . واذا قيل ان هذه الامثلة لا تنطبق على العراق لأن الادارة في البلاد المذكورة

مؤسسة على مبـدأ اللامركزية .والعراق مركزي في ادارته اوردنا مثل فرنسا التي هي اشد الدول الاوربية مركزية في ادارتها وتتحمل السلطات المحلية فيها جانباً كبيراً من نفقات المعارف وعلى الأخص ما يتعلق بأبنية المدارس وتجهيزها باللوازم والاثاث الكامل ونفقـات الخدم . واهم ما تتكلفه خزينة الدولة المركزية هو رواتب المعلمين . كما انه يمكننا ايراد مثل تركيـا التي تقوم السلطـات المحلية فيها بجميع نفقات التعليم الابتدائي .

واذا اراد العراق ان يضع نفسه في مصاف الامم الراقية او يسير على سياسة جدية لتعليم جميع ابنـاء الشعب فلا مناص له من الأخـذ بهذه الطريقة عينها لأن الاعتماد على الميزانية العامة وحدها كما بينا امر غير عملي وله حد معين .

على انه تقف امام فرض الضرائب المحلية في العراق عقبتان كبيرتان هما ضعف التشكيلات المحلية وقلة الثروة المحلية .

ان التشكيلات المحلية في العراق وعلى الاخص التشكيلات البلدية لم تبلغ من القوة مبلغاً يؤهلها لتحمل اعباء التعليم العام ونفقاته كما تفعـل السلطات المحلية في البلاد الاجنبية . وبدلا من ان تقوى البلديات وتنمو في الخمس عشرة السنة الماضية ، وبدلا من ان يتدرب ابناء المواقع المختلفة على ادارة شؤونهم والقيـام بحاجاتهم ، وبدلا من ان تدب الحياة في النواحي والاقضيـة فيقوم اهـلوها باصـلاح شؤونهم ، باتوا يعتمـدون على الحـكومة المركزية ويبقون خاملين مالم تدفعهم هذه الى شيء من العمل او تمدهم بالمـال . وبدلا من ان تنمو السلطات المحلية الى حد تتمكن فيه من تحمل قسم من مسؤوليات المعارف المالية نراها اليوم ضعيفة لاتتمكن

من القيام بحركة ذات اهمية في هذا الباب .

والعقبة الثانية في سبيل فرض الضرائب المحلية هي ضآلة الثروات المحلية وهذه بدورها نتيجة نظامنا الاقتصادي وتاريخنا الاقتصادي وليس البحث في الشؤون الاقتصادية من اختصاصنا ولكننا نريد ان ننوه عن الامر بصورة مختصرة لاتصال بعض الامور الاقتصادية اتصالا شديدا بمستقبل التعليم وامكان توسعه . وقد سبق ان بينا في الفصل الاول كيف ان التعليم الاجباري في المانيا رغم قدم التشريع فيه في تلك البلاد لم يصبح ممكنا الا بعد الاصلاحات الاقتصادية التي اجراها فون ستاين في بروسيا وعلى الاخص في الاراضي الزراعية اذ ازدادت بذلك ثروة الافراد والثروة العامة بحيث اصبح في الامكان الاستناد اليها في تحمل مصاريف التعليم الاجباري. ولو نظرنا الى سائر دول اوربا اوامريكا التي تطبق نظام التعليم الاجباري ودرسنا تاريخ نشوء هذا التعليم فيها لرأينا انها ما تمكنت من ذلك الا بعد ان استقامت اقتصادياتها وزادت ثروتها وارتفع مستوى المعيشة فيها . وهذا هو الطريق الذي يجب علينا ان نسلكه في العراق لايجاد الدراهم لا لتعليمنا الاجباري فقط بل لجيشنا الاجباري ومشاريعنا الصحية والعمرانية .

نظرة الى تاريخ العراق الاقتصادي الحديث ترينا مشكلة العراق الاقتصادية باجلى وضوح . فقد كان العراق في القرون الاخيرة وحدة اقتصادية كاملة مستكفياً حاجاته الداخلية بزراعته وصناعته التي كانت مؤسسة على نظام الصنائع القروية اليدوية الصغيرة . وكان التوازن فيه مستتبا بين الانتاج الصناعي والانتاج الزراعي . ثم جاءت الثورة الصناعية في اوربا بالاختراعات الحديثة وبدأ اثرها يظهر في العراق في

اواخر القرن الماضي واحدثت في العراق نفس ما احدثته في اوربا وهو مزاحمة المنتوجات الصناعية اليدوية برخص الاسعار وللكثرة فاخذت الصنائع اليدوية تتضاءل سنة بعد سنة . وقد ظهر ذلك بكل جلاء بعد الحرب العظمى اذ شاهدنا صناعة الحياكة اليدوية في الموصل مثلا تكاد تمحى بكاملها وبقي اصحابها عاطلين وهكذا قضي على الصناعة العراقية او كاد واصبح العراق يعتمد على البلاد الاجنبية لاستيراد ما يحتاجه من المصنوعات . فحلت المنسوجات القطنية والصوفية الاجنبية محل ما كان يحاك من هذه في العراق ، وحلت الاحذية الاجنبية محل الاحذية العراقية ، والاواني المعدنية والزجاجية والصينية محل اواني النحاس والفخار . واختل بذلك توازن العراق الاقتصادي واصبحت صادراته لا تربو على الاربعين بالمئة من وارداته . ولم تتقدم الزراعة بصورة كافية لتعوض عما فقده العراق من صناعته .

ومن البديهي انه اذا اراد العراق تحسين وضعه الاقتصادي فعليه ان يحاول اعادة التوازن الاقتصادى بين منتوجاته الصناعية والزراعية وذلك بتأسيس مصانع من الطراز الحديث لانتاج اهم ما يستهلكه العراق من المنتوجات الصناعية على الاقل وبذلك يوفر العراق بعض الثروة التي تتبدد منه الي الخارج في الوقت الحاضر .

ويجب في الوقت نفسه زيادة الانتاج الزراعي وتحسينه فان العراق بلاد زراعية ومهما ارتفت الصناعة فيه فهى ستبقي من الان الى مدى بعيد اقل شأنا في حياة البلاد الاقتصادية من الزراعية . ولتحسين الزراعة في العراق ثلاث طرق مهمة : (الاولى) ـ تحسين الاساليب الزراعية فانها لا تزال قديمة والاخذ بالاساليب الحديثة التى تنتج اضعاف

اضعاف ما تنتجه الاساليب القديمة . (والثانية) ـ تحسين انواع المحصولات العراقية وادخال اصناف جديدة لتزرع في العراق وتباع في الاسواق العالمية . (والثالثة) ـ معالجة مشكلة الاراضي بطريقة تكفل زيادة استفادة افراد الفلاحين من حاصلاتهم وبالتالي عنايتهم باعمار الاراضي وذلك دون مساس بالحقوق المكتسبة في هذه الاراضي . وعندنا ان حل مشكلة الاراضي بطريقة مرضية هو اساس انعاش الزراعة في البلاد .

وانما تبسطنا قليلا في بحث انعاش العراق الاقتصادي اثناء البحث في موضوع تربوي كموضوع التعليم الاجباري لاقتناعنا بان مشروع التعليم الاجباري لن يصبح تطبيقه بكامله ممكنا ما لم تزدد ثروة العراق ازديادا محسوسا يكفل ايجاد الواردات الكافية لتنفيذه ان كان عن طريق الضرائب العامة او الضرائب المحلية . وهناك امر آخر يجعل للمشكلة الاقتصادية مساسا شديدا بالمعارف وهو هذا العدد الهائل من الطلاب الفقراء الذين نجدهم في مدارسنا في المدن وبدرجة اعظم في القرى بحيث يكاد يكون جميع الطلاب في القري معدمين لا يتمكنون من شراء كتبهم المدرسية حتى ولا الدفاتر والاقلام لدراستهم على رخصها ومعظمهم يأتون الى المدارس حفاة لا تكسو اجسامهم إلا ثياب بسيطة ممزقة وهذا من اعظم ما يعرقل توسع المعارف في البلاد . فاذا كان هذا حال الطلاب الذين يداومون في المدارس فكم هو ياترى عدد الطلاب الذين يمنعهم فقرهم من الدوام بتاتا ؟ اذا فتحسن الحالة الاقتصادية ورفاهية افراد الامة وزيادة الثروات المحلية شرط لازم لتقدم المعارف .

على ان انعاش البلاد الاقتصادي وزيادة الثروات المحلية والثروة العامة امر يستغرق زمنا طويلا فهل ياترى" يجب ان يقف تقدم المعارف وفرض الضرائب المحلية الى ذلك الحين ؟ والجواب كلا . فاولا لقد سبق أن بينا إن مشروع التعليم الاجباري يستغرق نحو الثلاثين سنة . اذن يجب ان يسير الانعاش الاقتصادي مع التطبيق التدريجي للتعليم الاجباري جنبا الى جنب . وثانيا مع انه لا يمكن تطبيق الضرائب المحلية بمقياس واسع فى الوقت الحاضر الا انه من الممكن القيام بذلك بمقيـاس محدود يتوسع سنة بعد سنة واننـا نعتبر اهتمام الحكومة العراقية بايجا المواد الجديدة للبلديات خطوة سديدة على شرط ان تستعمل البلديات مواردها الجديدة لا فى تبليط الشوارع وتنظيف المدن فقط بل ان تصرف قسما من ميزانيتها على تهذيب الاطفال الذين يعيشون ضمن نطاق البلديات . وهذا ما تفعله كل البلديات فى البلاد المتمدنة تقريبا : وثالثا لا بد من القول ان التعليم اذا اتجه اتجاها عمليا فى المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية وفى المدارس الزراعية والصناعية هو من اعظم الوسائل لانعاش البلاد الاقتصادي بحيث يؤثر التعليم في تسريع هــذا الانعاش . وبالعكس ان زيادة الانعاش تخلق ثروة يمكن استعمالها في زيادة التعليم وتوسعه .

ثالثا — الضرائب الخاصة بالمعارف

كثيرا ما تلجأ الحكومات الى فرض الضرائب الخاصة باسم المعارف رغبة منها في زيادة مخصصاتها وفي الامكان تطبيق ذلك في العراق بفرض بعض الرسوم وعلى الاخص على الحاجيات الكمالية باسم المعارف على ان

لا تحسب هذه واردات للخزينة العامة بل تفصل على حدة وتخصص للمعارف فقط ومثل هذه الضرائب الرسوم على الكحول والكبريت والبنزين والعطور والجرائد وغير ذلك ولا يقف في سبيل الحصول على هذا النوع من الواردات سوى تمسك مشرعينا بان جميع الضرائب والجبايات يجب ان تحسب واردا للخزينة ضمن الميزانية العامة وهي نظرية لا بأس بها من بعض الوجوه ولكنها كمعظم النظريات تصبح عقبة في سبيل التقدم اذا ما غالينا في التمسك بها . وفي الامكان البدء بفرض هذه الرسوم بالتدريج بحيث لا تمر عشر سنوات الا وتكون واردات المعارف منها لا يستهان بها وقد تتجاوز الربع مليون دينار .

رابعا — واردات النفط

تبلغ واردات الحكومة من النفط ما يزيد على المليون دينار عراقي سنويا . وفي الامكان ان يستفاد من هذه الواردات للقيام بنفقات المعارف وتوسعها وعندنا ان حصة المعارف من واردات النفط يجب ان لاتقل عن نسبة ميزانيتها الى الميزانية العامة او بين الاثنى عشر والخمسة عشر بالمئة من واردات النفط وهذا يضمن واردا مطردا للمعارف يمكن ان يستعمل ان لم يكن لمقتضيات توسيع التعليم في البلاد ففي انشاء الابنية المدرسية على احدث طراز بحيث لاتبقى معظم المدارس في ابنية مأجورة او غير صالحة كما هي الحالة الان . ولنا وطيد الامل ان نصيب المعارف من واردات النفط في المستقبل سيكون اكبر من نصيبها منها في مشروع الخمس سنوات الاولى .

هذه اهم المصادر التي يمكن ان تعتمد عليها المعارف في مشاريعها

وهي كما يراها القارئ مهمة لا يستهان بها وكافلة لنشر التعليم في العراق اذا كانت هنالك عزيمة صادقه للاصلاح واياد قوية مدبرة .

الفصل الخامس

بعض مشاكل التعليم الاجباري

يعترض تطبيق نظام التعليم الاجباري في العراق عدد من المشاكل والصعوبات التي لا بد لكل باحث في هذا الموضوع من ان يدرسها ويحللها اذ من الواجب اخذها بعين الاعتبار حين التطبيق . واهم هذه المشاكل اربع : اولاها توزيع السكان وفقدان الاحصاءات . وثانيتها فصل تعليم البنين عن البنات . وثالثتها اعداد المعلمين . ورابعتها المنهج . وهنالك مشاكل اخرى منها احضار الابنية اللازمة لما لا يقل عن الثلاثه الاف مدرسة ما عدا الستمئة المفتوحة الان لتعليم بقية الاطفال المحرومين من التعليم في الوقت الحاضر . ومنها تحوير تشكيلات المعارف الحاضرة تحويرا جوهريا اذ من المستحيل ان تقوم الدائرة المركزية بجميع شؤون التعليم عند ما يكون لديها ثلاثة الاف مدرسة بنفس الطريقة المركزية التي تقوم بها الان ولا بد من ادخال شيء من اللامركزية على التشكيلات الحاضرة لضمان سير الامور سيرا منتظما . على اننا لا نريد الدخول في تفاصيل هذه القضية على اهميتها وسنحصر كلامنا في المشاكل الاربع التي ذكرناها .

اولا — توزيع السكان ونقص الاحصاءات

من الضروري لتطبيق التعليم الاجباري وجود احصاءات مضبوطة

مفصلة للسكان حتى تمكن معرفة محلات تجمع السكان المهمة الكبيرة منها والصغيرة ولا يمكن وضع خطة فنية لنشر التعليم وتوسعه دون ذلك والا كانت الخطة عرضة لكثير من الاخطاء . على اننا في العراق لا نملك حتى الان احصاء دقيقا ومفصلا للسكان حتى اننا لا نعرف بالضبط عدد سكان اهم مدينة عندنا وهي بغداد دع عنك سكان القرى والجماعات الصغيرة . وفقدان الاحصاءات لا يعرقل سير خطة المعارف فقط بل خطط الدولة باجمعها من ادارة واقتصاد وجندية وصحة وغيرها .

وفي طريقة توزيع السكان وطراز معيشتهم عقبة اخرى في سبيل التعليم الاجباري فلدينا ما لا يقل عن الربع مليون من السكان من القبائل الرحل الذين لا يستقرون في محل ولا يمكن تأسيس مدارس ثابتة لهم . وهنالك قبائل اخرى قد استوطنت بعض الاستيطان واخذت تزاول الزراعة لاكتساب رزقها ولكن جانبا منها لا يزال يتنقل من مكان لاخر لاسباب مختلفة وقد تنتقل جماعة من الفلاحين بكاملها وتنقل بيوت قصبها او تهجر اكواخ الطين التي كانت تسكنها حاملة سقوفها الخشبية معها . ومن مشاكل توزيع السكان ايضا صغر القرى او الجماعات او بعدها بعضها عن بعض بحيث يتعذر في كثير من الاحيان فتح مدرسة لجماعة بمفردها لصغرها او فتح مدرسة مشتركة بين عدة جماعات او قرى لبعدها بعضها عن بعض . وقد تكون الجماعات والقرى قريبة الواحدة من الاخرى فلا تبعد عن بعضها اكثر من نصف او ربع ساعة ولكن جهل السكان وقلة تقديرهم للتعليم او منافسة العشائر بعضها لبعض تجعلهم يمتنعون عن ارسال اولادهم الى مدرسة بعيدة قليلا عنهم مع ان مشي الطلاب ربع ساعة ونصف ساعة وحتى ساعة كاملة للوصول الى مدارسهم

امر متعارف في معظم البلاد الغربية وذلك لاستحالة فتح مدرسة لكل جماعة او قرية صغيرة .

ثانيا — فصل تعليم البنين عن البنات

ان المتعارف في البلاد الغربية ان يدرس البنون والبنات دراستهم الابتدائية في مدرسة تجمع الجنسين فيتلقون دروسهم على نفس المعلمين والمعلمات وفي غرف واحدة ويكون المنهج مشتركا او باختلاف بسيط في تدبير المنزل والرياضة وما شاكل ذلك . وتكون هيئة التدريس مختلطة ايضا في المدارس الابتدائية تجمع المعلمين والمعلمات اللهم الا في القرى الصغيرة التي لا تتحمل اكثر من معلم واحد فيتولى المدرسة اذ ذاك معلم بمفرده او معلمة بمفردها .

اما في العراق وفي كثير من البلاد الشرقية فان الاحوال الاجتماعية تقضي بفصل تعليم البنين عن البنات في الدراستين الابتدائية والثانوية . وما دام التعليم في المدن التي تتحمل فتح عدة مدارس للبنين والبنات لا ينتج عن هذا الفصل مشكلة ادارية او زيادة في النفقات فلا بأس بذلك ولكن الامر غير ذلك عندما تباشر وزارة المعارف — كما باشرت منذ عدة سنوات — فتح المدارس في القرى والارياف وعلى الاخص اذا ارادت الوزارة تطبيق نظام التعليم الاجباري فانها مضطرة حينئذ ان تفتح مدرستين مستقلتين في كل قرية او مجموعة من القرى ولو كان عدد الطلاب والطالبات ضئيلا . وهذا بالطبع سيكلف الميزانية نفقات اكثر من النفقات التي تتكبدها الدول الغربية عادة . ويعقد هذه المشكلة قلة وجود المعلمات اللواتي يرغبن في الذهاب الى القرى بحيث تقاسي وزارة

المعارف الامريين في اقناع المعلمات للخروج خارج المدن الكبرى وهذه دار المعلمات في بغداد تخرج في كل سنة العشرات من المعلمات اللواتي يفضلن البطالة على التعليم في الخارج . ولذلك اصبح فتح مدارس البنات في القرى وحتى في بعض المدن الصغيرة وتعيين المعلمات لها مشكلة من المشاكل .

وقد عالجت مصر هذه المشكلة حين قيامها بمشروع التعليم الالزامي بعض العلاج فجملت تعليم البنين والبنات في نفس الابنية ولكن في اوقات مختلفة فتفتح المدارس للبنات في الصباح وللبنين بعد الظهر .

ثالثاً — اعداد المعلمين

ان تعميم التعليم الابتدائي على جميع ابناء البلاد وبناته يستدعي اعداد مالايقل عن العشرة الاف معلم ومعلمة وغير الالفين والخمسمائة الموجودين في الوقت الحاضر . فاذا اريد تطبيق التعليم الاجباري في ثلاثين سنة وجب زيادة عدد المعلمين بمعدل ثلاثمئة وخمسين معلماً في السنة وليس اعداد هذا العدد الكبير من المعلمين هيناً اذ انه يحتاج الى توسيع دور المعلمين الى ضعف ماهي عليه الآن بما فيها من اساتذة وابنية ومختبرات ومكتبات واثاث واقسام داخلية وغير ذلك . ولاعداد المعلمين خطورته واهميته اذ بدونه تضطر وزارة المعارف الى استخدام من لا استعداد لهم ولاتدريب على التعليم كما اضطرت في السنوات الاخيرة فتكون النتيجة حتماً التوسع بالكمية مع خفض في كيفية التدريس ومستواه بينما المطلوب هو الجمع بين الجهتين الكمية والكيفية . وهذا لايكون الا بوضع الخطط لاعداد العدد الكافي من

المعلمين لتوسعات المعارف المنتظرة . وقد سبق ان تكلمنا اعـلاه عن مشكلة المعلمات فلا حاجة الى التكرار .

رابعاً — المنهج

ان اختـلاف سكان العراق بين بدوي وريفي وحضري واختـلاف طبيعة الارض بين جبلية وسهلية مما يحتم علينا تكييف المناهج حسب هذه الاحوال وعلى الاخص عندما يراد تطبيق التعليم الاجباري . فلو كانت المدارس موجودة في المدن فقط لكان يصح ان يستعمل نفس المنهج للكل اذ ان المدن العراقية تتشابه كثيراً ولكن الامر ليس كذلك فحياة ابن الريف غير حياة ابن المدن ووسائل كسب المعيشة مختلفة بين الاثنين وكذلك قل عن بعض نواحي الحياة الاجتماعيـة والصحية . واذا كنا نريد ان يكون التعليم متصلا اتصالا وثيقاً بحياة الشعب ومؤسساً عليها لابد لنا من جعل المناهج تطابق هذه الاحوال وتماشيها . وعندنا ان اعطاء منهج واحد لكل الجهـات مهما اختلفت اوضاعها امر يقلل من قيمـة التعليم وفائدته وتأثيره في حيـاة الشعب اذ يجعله مقتصراً على العموميات دون الالتفات الى الاحوال الراهنة كما انه يدخل الى التعليم جموداً غير مستحب .

على ان مبدأ تكييف المنهج حسب اختـلاف المحيط يجب ان لا يحول انظارنا عن الاتفاق الاساسي الموجود في بعض نواحي الحياة في جهات العراق المختلفة كما انه يجب ان لا ينسينا ما تحتاج اليه البلاد من وحدة في الشعور والتوجيه العام وهذا يتطلب ان تكون بعض اجزاء المنهج موحـدة لجميع مدارس العراق كاللغـة العربية والتاريخ والجغرافيا

والمعلومات المدنية وهكذا يجب ان يكون في المنهج من الصلابة ما تقتضيه مصلحة البلاد ووحدتها ومن المرونة ما تقتضيه حاجات الجهات المحلية والاوضاع المختلفة .

هذه اهم المشاكل التي نلاقيها عندما نحاول تطبيق فكرة التعليم الاجباري في بلادنا عالجناها بصورة مختصرة وسطحية

الفصل السادس

كيف نبدأ

لقد حاولنا فيما سبق من الكلام ان نشرح اهمية التعليم الاجباري وفائدته للامة واثره في تكوين شعب راق ثم بحثنا في المصادر التي يمكن ان تستقى الاموال منها لتنفيذ المشروع واخيرا بينا بعض المشاكل والصعوبات التي سنجابهها ولا شك عند ما نريد ان ندخل جميع ابنائنا وبناتنا في المدارس الابتدائية .

وخلاصة ما سبق لنا بيانه اننا نحتاج لتطبيق التعليم الاجباري الى ما لا يقل عن الثلاثة الاف مدرسة جديدة واعداد اكثر من عشرة الاف معلم جديد واضافة مايزيد على المليوني دينار الى ميزانيتنا الحاضرة كل ذلك في مدة لا يجب ان تزيد على الثلاثين سنة . اي ان علينا ان نفتح من حيث المعدل ما لا يقل عن المئة مدرسة ابتدائية جديدة في كل سنة واعداد نحو ٢٥٠ معلما جديدا في السنة واضافة نحو الخمسة والسبعين الف دينار الى ميزانية المعارف في كل سنة ما عدا مخصصات ابنية المدارس والانشاءآت .

ولا بأس فى ان نعيد هنا المبادئ الاساسية للعمل في سبيل التعليم الاجباري التي ذكرناها في آخر الفصل الثالث وهي : اولا اقرار التعليم الاجباري كمبدأ اساسي في الدولة وكخطة عامة لها تدعمها وزارة المعارف ببياناتها وخططها وتعليماتها ويدعمها مجلس وزراء الدولة بان يقرها كسياسة عامة للدولة وان لزم الامر يدعمها مجلس الامة بان يقرها قانونا للدولة . وثانيا متى تقرر ذلك توضع الخطط المفصلة لكيفية السير لتنفيذ المشروع للسنوات العشر الاولى على الاقل . وثالثا بما ان مشروع التعليم الاجباري يصبح حينئذ جزءا لا يتجزأ من خطة الدولة العامة لا يقل شأنا عن مشاريع الاعمال الرئيسية وعن التجنيد الاجباري فيجب ان يدخل في صلب المناهج الوزارية باجمها وعلى اختلافها كاحدى الخطط الهامة التي تهتم بها كل وزارة ويجب ان يفرض على دوائر الدولة المختلفة التعاون مع وزارة المعارف فى ابرازه الى حيز التنفيذ فتهتم وزارة المالية بايجاد الموارد الكافية له وتهتم وزارة الداخلية اولا بتقديم الاحصاءات المفصلة عن كل بلدة وجماعة وعشيرة . وثانيا بجعل موظفيها من متصرفين وقائمقامين ومديري نواحي يعاضدون المشروع بكل ما اوتوا من قوة وسلطة سواء من حيث حث الناس على ارسال اولادهم ، او من حيث جمع التبرعات للطلاب الفقراء او من حيث ايجاد الابنية او العرصات للمدارس في بعض الاحيان ، وغير ذلك . وثالثا بجعل البلديات تساهم في المشروع وتخصص مبالغ في ميزانياتها له . ورابعا بتقوية التشكيلات المحلية من مجالس ادارة وبلديات وغيرها بحيث يصبح لديها من السلطة والمواد ما يمكنها من

مساعدة المشروع . ويجب ان تقوم دوائر الصحة بمساعدة المعارف ببذل الاسعافات الطبية للمدارس . وتقوم دوائر الزراعة بمساعدة المعارف في تأسيس الحقول المدرسية ، كما تقوم وزارة الدفاع بمكافحة الامية بين الجنود ، ودوائر السجون بمكافحة الامية بين المسجونين وهكذا تقوم كل دائرة بقسطها وتتجه الدولة بكاملها الى تعليم جميع ابنائها . والحق انه لا حدود لما يمكن ان تسديه الدوائر الاخرى من المساعدات لمشروع التعليم الاجباري .

وترانا نلح بان مهمة تطبيق التعليم الاجباري لا يجب ان تنفرد بها وزارة المعارف لاننا نعلم ان انفراد هذه الوزارة بها دون ان تأتيها المساعدات الجدية من دوائر الدولة يجعل امر تطبيقها مستحيلا .

والان لنتساءل كيف يمكن ان نبدأ ؟

للعمل في مشروع التعليم الاجباري وجهتان : الادارية والمالية ، هذا بالطبع بغض النظر عن ناحية المنهج واعداد المعلمين وغير ذلك من الامور الفنية البحتة التي ذكرناها في الفصل السابق .

اما من الوجهة الادارية فان اول خطوة يجب القيام بها هي فتح شعبة خاصة للتعليم الاجباري في وزارة المعارف تؤلف في اول امرها من مدير ومعاون والعدد اللازم من الكتاب وتكون اول مهمة لهذه الشعبة ان تقوم بدراسة تحضيرية للموضوع من جميع جهاته فتدرس احصاءات السكان على قدر ما هي موجودة وتوزيع المدن والقرى الجغرافي وما تحتاج اليه كل مدينة وقرية من المدارس او الاحوال الاجتماعية السائدة التي قد تساعد المشروع او تؤخر تنفيذه ومن

الواجب ان يكون القسم المهم من هذه الدراسة مباشرا وذلك بتجوال مدير التعليم الاجباري ومعاونه في جميع انحاء العراق وزياراتهم لمدنه وقراه وعشائره وارياقه مدينة مدينة وقرية قرية وعشيرة عشيرة والاتصال بالموظفين الاداريين وجمع كل ما يمكن من المعلومات التي تتعلق بالمشروع ويجب ان تجري جميع التسهيلات اللازمة وتعطى المخصصات الكافية لاجراء هذه الاسفار بحيث يصبح الشخص الذي يتولى الامر رجلا اخصائيا فيه .

ودراسة مفصلة مثل هذه اقل ما تحتاج اليه من الوقت سنة كاملة والارجح سنتان يجب ان يقدم مدير التعليم الاجباري في آخرها تقريرا ضافيا عن المشروع وطرق تنفيذه مع اقتراحات مفصلة عن الخطة التي يجب ان تتبعها وزارة المعارف في توسيع وسائط التعليم وتطبيق القسم الاول من مشروع التعليم الاجباري خلال العشر سنوات التالية ويكون هذا التقرير معززا بالاحصاءات والخرائط والتقديرات والخطط لاعداد المعلمين وغير ذلك .

وفي الامكان ان يستعين مدير التعليم الاجباري في وضع تقريره بالنظم والقوانين المتبعة في بعض البلاد الاجنبية للتعليم الاجباري وقد يصح ان يقضي بعض الاشهر في تلك البلاد للاطلاع على كيفية تطبيق التعليم الاجباري فيها .

وهكذا اذا ابتدئ بفتح دائرة للتعليم الاجباري في وزارة المعارف في القريب العاجل لن تأتي سنة ١٩٣٩ او ١٩٤٠ الا وتكون الخطط جاهزة بحيث يمكن اخذها بعين الاعتبار في وضع ميزانيات المعارف

في السنوات التي تليها .

والخطوة الادارية الثانية في تطبيق التعليم الاجبارى هي البدء حالا بتنفيذه فى المدن الصغيرة او القرى المستعدة له او التي فيها من التشكيلات المدرسية ما يكفى لسد حاجتها . ان الطريقة العملية لتنفيذ التعليم الاجبارى ليست الانتظار لثلاثين سنة ريثما يتوسع التعليم في البلاد بصورة كافية ثم اعلانه في جميع البلاد دفعة واحدة بل هي البدء بتطبيقه في المحلات التي فيها من المدارس مايكفي حاجتها ثم التوسع منها الى غيرها ثم غيرها بالتدريج ويعلن التعليم الاجبارى في كل منها الى ان يأتي يوم تصبح جميع البلاد فيه خاضعة لقانون التعليم الاجبارى والمادة الثانية عشرة من قانون المعارف الحاضر تسمح لوزارة المعارف ان تعلن التعليم الاجباري في بعض الاقضية والالوية دون الاخري وانما تحتاج المادة الى تطبيق ليس الا مع بعض التعديل كتحديد سن التعليم الاجباري وفرض الغرامات والعقوبات على المخالفين وما اشبه ذلك .

وها نحن اولا نورد بعض الامثلة لكي نوضح كيف يمكن تنفيذ هذه الفكرة ـ اي البدء بالتنفيذ المحلى للتعليم الاجبارى والتوسع بذلك بالتدريج الى ان يصبح في الامكان تعميمه لجميع البلاد . ولنأخذ قرية الكميت في لواء العمارة مثلا فان فيهـا الان مدرسـة ابتدائية كاملة للبنين ومدرسة اولية للبنات وهاتان المدرستان تسدان حاجة قرية الكميت التعليمية ما دام عدد سكانها كما هو . كما ان الرغبة متوفرة عند الاهالي لتعليم اولادهم ولذلك فان تطبيق التعليم الاجباري في الكميت لا يتطلب الا اكمال مدرسة البنات وهذا قابل التنفيذ خلال سـنة او

سنتين وعلى كل حال في الامكان تطبيق التعليم الاجباري على الصبيان حالا .

او خذ مدينة المسيب كمثل آخر فان فيها الان مدرستين ابتدائيتين الاولى للبنين والثانية للبنات وهي لا تحتاج لتطبيق التعليم الاجبارى فيها على البنين الا زيادة مدرستين اوليتين وهذا ممكن عمله خلال الثلاث او الاربع سنوات القادمة .

وما يقال عن الكميت والمسيب يمكن ان يقال عن زاخو وتلعفر وراوندوز وكويسنجق وكفري وحلبجة وتكريت وسامراء وشهربان وخانقين والنعمانية ومندلي وبدره والهندية والمحمودية وعانة وهيت والرمادي والفلوجة والسماوة وعلي الغربي وقلعة صالح وسوق الشيوخ والشطرة وقلعة سكر والقرنة وابي الخصيب وغيرها وكذلك يمكن ان يقال عن القرى التي هي اصغر منها والتي تكفيها مدرسة واحدة هي في كثير من الاحيان موجودة الان ولكن دوام الطلاب فيها متضعضع فان طبق مبدأ التعليم الاجباري اصبحت مكتظة بالطلاب .

وهذه النقطة الاخيرة مهمة جدا وفيها فائدة كبيرة وهي الاستفادة الكاملة مما عندنا من التسهيلات في المدارس . فكم من مدرسة في القرى الصغيرة على الاخص فيها صفوف كافية وفيها معلمون كافون ولكن طلاب صفوفها لا يزيدون على الستة او السبعة لكل صف ولو كان هناك تعليم اجباري لامتلأت الصفوف وما حالتنا الحاضرة الا نوع من الاسراف في المال اذ لا يستفيد من المصاريف التي تدفع على المدارس الا عدد قليل من الطلاب .

ولنفكر في هذا الامر من ناحية اخرى وهي ترك الطلاب للمدارس في الصف الثاني والثالث او مابعدهما بحيث لايبقى في الصف الثاني من الذين كانوا في الصف الاول الا نحو الخمسين بالمئة و لايبقي في الصف الثالث الا نحو ٣٨ بالمئة ولا يأتي الصف السادس الا ويبقي نحو ١٥ بالمئة فقط من الذين كانوا في الصف الاول . وفى هذا مافيه من الاسراف فان عشرات الالوف من الطلاب اليوم يدخلون المدارس ولكنهم لايلبثون فيها اكثر من سنة او سنتين فتكون استفادتهم من المدرسة ضئيلة وينسون ماتعلموه فتذهب المصاريف التي تصرف عليهم سدى .

ولا سبيل لملافاة هذا النقص والاسراف الهائلين الا بجعل التعليم اجبارياً على الاقل في المدارس المستعدة له وهكذا يتضح للقارئ ان الطريقة العملية لتطبيق التعليم الاجباري هي اعلانه رسمياً في المحلات التي تكون فيها تشكيلات المدارس كافية او يمكن اكمالها بمدة قصيرة ثم التوسع واعلانه في المحلات الكبرى فالكبرى من جهة والقرى الصغيرة من الجهة الاخرى الى ان تصبح البلاد باجمعها خاضعة له مع الزمن .

ولا نود ان يفهم القراء من كلامنا هذا اننا بقولنا بوجوب البدء باعلان التعليم الاجباري في المدن الصغيرة والقرى التي فيها مدارس كافية لسد حاجتها انما ندعو الى الاهتمام بالتعليم في القرى والمدن الصغيرة فقط والى اهماله في المدن الكبرى . فليس هذا مانقصده . بل نحن نعتقد ان السعي لتحقيق التعليم الاجباري يجب ان يشمل المدن الكبرى والصغرى والقرى معاً وان خطته يجب ان توضح للجميع على السواء . ويجب ان يسير توسع التعليم وافتتاح المدارس الابتدائية الجديدة في المدن الكبرى جنباً الى جنب مع القرى والمدن الصغرى . هذا مايقضي

به المنطق وما تقضي به مصلحة البلاد .

غير ان كبر بعض المدن في العراق سيؤدي حتماً الى تأجيل اعلان التعليم الاجباري فيها لان الاستعدادات لفتح المدارس الكافية لالوف الطلاب والطالبات فيها لا يمكن ان تكمل فوراً في سنة واحدة وبعد ان تستغرق عدة سنوات مهما كانت عناية وزارة المعارف بها . على ان هذا لا يمنع فتح عدد من المدارس فيها في كل سنة الى ان يصبح مافيها من المدارس كافياً لسد حاجتها التعليمية .

ولنأخذ مدينة بغداد مثلاً ولنسأل متى يمكن اعلان التعليم الاجباري فيها ؟ واليك الجواب بصورة تقديرية :

لوفرضنا ان سكان بغداد يبلغ عددهم ٣٥٠ر٠٠٠ نسمة لكان عدد الطلاب والطالبات الذين هم من عمر الدراسة الابتدائية يتراوح بين ٣٥ر٠٠٠ و ٤٢ر٠٠٠ طالب وطالبة ، ولكان العدد الضروري من المدارس لتعليم هؤلاء الاطفال يتراوح بين ١٤٠ و ١٧٠ مدرسة على انه ليس في بغداد الان اكثر من ستين مدرسة اولية ابتدائية واذاً فمن الواجب فتح ٨٠ مدرسة الى ١١٠ مدارس جديدة قبل امكان اعلان التعليم الابتدائي الاجباري . ومهما ارادت وزارة المعارف ان تسرع في فتح المدارس في بغداد لاجل ان تعلن التعليم الاجباري فيها فلن تتمكن من فتح هذا العدد الكبير من المدارس باقل من ١٢ او ١٥ سنة بينما يمكن اعلان التعليم الاجباري خلال سنة واحدة في قرية كالكميت فيها الان مدرسة واحدة للبنين واخرى للبنات تسد حاجتها .

فيتضح من ذلك ان الحاجة الى فتح المدارس في المدن الكبرى لا تقل عن الحاجة اليها في المدن الصغرى والقرى وان الفتح في تلك يجب ان

يتمشى مع هذه وذلك استعداداً لاعلان التعليم الاجباري فيها باقرب وقت ممكن .

وللبدء بتنفيذ مشروع التعليم الاجباري ناحية مالية ايضاً نود ان نعالجها باختصار .

لقد سبق ان بينا للمعارف اربعة مصادر مهمة للواردات وهي الميزانية العامة وواردات النفط والضرائب الخاصة والضرائب المحلية فاذا اردنا ان نضع خطة تتضمن القسم الاول من مشروع التعليم الاجباري للعشر سنوات القادمة وجب ان نبين من اين تتمكن المعارف ان تجد الاموال الكافية لذلك خلال هذه المدة .

لا بد من القول قبل كل شيء انه من الصعب البدء بفرض الضرائب المحلية من الان بكميات كبيرة ولا بد لذلك من ان تتقدم البلاد اقتصادياً ويزيد انتاجها وتنمو ثروتها كما انه لابد من تقوية المجالس المحلية والبلديات . على اننا في بحثنا هذا نفترض ان هذا الامر سائر سيره الاعتيادي وان الحكومة والشعب سينتبهان اليه ويعملان من اجله بحيث يمكن ان ننتظر نتائج محسوسة في هذا الباب في السنوات العشر القادمة . وهكذا اننا نفترض انه اذا لم يمكن البدء الان بفرض الضرائب المحلية فسيكون ذلك بعد خمس او ست سنوات بصورة خفيفة وبعد عشر سنوات بصورة جدية .

واذاً فمن الواجب ان تستقي المعارف وارداتها في العشر السنوات القادمة من المصادر الثلاثة الاخرى التي ذكرناها ومع انه من الصعب التكهن في الامور المالية الا انه لابد من القول ان المعارف ستحتاج سنة ١٩٥٠ الى ميزانية سنوية لاتقل عن المليون ونصف مليون دينار او

بزيادة نحو خمسة وسبعين الف دينار على الميزانية الحاضرة في كل سنة ويجب ان تتحمل الميزانية العامة مليون دينار او يزيد من ذلك في السنة ويقسم الباقي بين الضرائب الخاصة على الكماليات وبين واردات النفط . اما بعد سنة ١٩٥٠ فلابد ان يكون جل الاعتماد على الضرائب المحلية لزيادة مخصصات المعارف .

* * *

هذا مجمل ماأردنا بيانه في موضوع التعليم الاجباري وامكان تطبيقه في العراق عسى ان يكون فيه لبلادنا المحبوبة بعض الفائدة وكل ما يتمناه هذا الكاتب هو ان يرى فكرة التعليم الاجباري تتغلغل في افكار الجمهور وفي افكار زعماء هذه البلاد وقادتها حتى اذا ما اختمرت اثمرت ثمرتها واتت بالخير العميم لابناء هذه البلاد وضمنت للعراق مستقبله وحياته .

ولابد لهذا الكاتب ان يقر ان ماسطره في هذه الرسالة لم يكن الا سوانح اولية اتت بنتيجة الدراسة والاختبار المبدئيين وانها بالطبع قابلة للجدل والمناقشة وعرضة للخطأ كما انها تحتاج الى زيادة في التحقيق والتفصيل . وله ملء الامل انه اذا قامت وزارة المعارف بتأسيس شعبة للتعليم الاجباري سوف تتمكن بفضل الوسائل التي لديها من نشر دراسة اعمق واكثر تفصيلا من هذه الرسالة الاولى .

ان العراق النزوع الى العلى والمجد والرقي والشعب العراقي النابه الذي شهد له حتى الاجانب بنباهته وشهد له التاريخ بالاعمال المجيدة وبالحضارة العظيمة لن يرضى الا ان يكون ، بلداً وشعباً ناهضاً ومثقفاً له منزلته السامية بين الامم المتمدنة . وما نهضة العراق الا مبدأ نهضة الامة العربية ومبدأ لارجاع مجد العرب الغابر وتأسيس حضارة عربية عصرية .



الاستاذ عبد المجيد محمود القره غولي

الاستاذ عبد المجيد محمود القره غولي

النزاع الحبشي الايطالى

(القيت في اوائل الحرب الحبشية الايطالية الاخيرة)

لقد قسمنا البحث في النزاع الحبشي الايطالي الى ثلاثة شعب رئيسية :

اولا : القسم التاريخي ويتفرع الى

« ١ » علاقات ماقبل الحرب ، وتناولنا البحث في :

أ — توحيد الامبراطورية الحبشية

ب — المصالح الاجنبية وبحثنا فيها امتياز السكة الحديدية الفرنسية والاتفاقية الانكليزية الايطالية في سنتي ١٨٩١ و ١٨٩٤ والامتيازات التي حصلت عليها انكلترة في ١٩٠٢ والاتفاقية الثلاثية في ١٩٠٦ وقضايا الحدود

« ٢ » وضع الحبشة الدولي من ١٩١٣ — ١٩٢٤ وقد بحثنا في دخول الحبشة عصبة الامم في ١٩٢٣ والمواعيد التي اعطيت لايطاليا اثناء الحرب العظمى في ١٩١٥ والمخابرات الانكليزية الايطالية في ١٩٢٥ والمعاهدة الايطالية الحبشية في ١٩٢٨ وقانون الاتجار بالاسلحة في ١٩٣٠ والاتفاق الفرنسي الايطالي في ٩٣٥

ثانياً : وضع الحبشة الحالي ويتفرع الى

(١) الوضع الداخلي في الحبشة ويبحث في الاخلاص للحكومة المركزية والكنيسة ، والاصلاحات الادارية ، والجيش ، والرقيق ، والثروة الطبيعة ، والتجارة الاجنبية

(٢) المصالح الخاصة الاجنبية في الحبشة وتكلمنا فيه عن المصالح البريطانية والمصالح الفرنسية واليابانية والايطالية

ثالثاً : مجرى النزاع ويتفرع الى

(١) حادثة والوال وفيها تكلمنا عن لجنة الحدود الانكليزية الحبشية في ١٩٣٤ الواقعة في ٥ كانون الاول ١٩٣٤ ، وشكوى الحبشة ، وشكوى ايطاليا

(٢) الطرق الدبلوماسية لحل النزاع وفيها بحثنا عن مناشدة الحبشة للعصبة الموافقة على المفاوضات . وتكوين منطقة حيادية والمناشدة الحبشية الثانية والموافقة على تعيين لجنة تحكيم وتعيين الحكمين والنزاع امام مجلس العصبة في ايار ١٩٣٥ وغير ذلك من الابحاث التي سنمر بذكرها

لقد حاولنا ان يكون البحث عن هذا الموضوع شاملا وصفة الشمول هذه تفرض علينا الاختصار ونتقدم بالبحث حسب التقسيم الذي وضعناه فنقول

اولاً — القسم التاريخي

(١) علاقات ماقبل الحرب

توحيد الامبراطورية الحبشية : في سنة ١٨٦٩ اسس الايطاليون اول مستعمرة لهم في المقاطعة المعروفة الان (بالاريتريا) بعد ان اشتروها

من سلطان هذه المقاطعة . كما انهم استعمروا في ساحل البنادير مقاطعة (تعرف الان بالصومال الايطالي) بعد ان استأجروها من سلطان زنجبار في سنة ١٨٩٢

ان وجود الايطاليين في الارتريا على مقربة من حدود بلاد الامبراطور يوحنا (سابقاً رأس التيكو) كان مبعث قلق له وكان يخشى ان يقوم الايطاليون بمحاولات في المستقبل للتسيطر على البلاد الحبشية في الداخل .

أن اول علاقة ودية حدثت بين ايطاليا والحبشة بدأت منذ ان اعتلى منليك ، ملك شوءا ، عرش الامبراطورية في ١٨٨٩ . أن منليك كان من اكبر الشخصيات التي انجبتها الحبشة وله مركز سام في تاريخ افريقيا واول امبراطور استطاع ان يسيطر على باقي الرؤوس بقوة وحزم وسيادته عليهم كانت مطلقة غير منازع فيها ، وقد استطاع ان يشيد لبلاده بعد جهود عظيمة استقلالا غير مشوب فيه وساعده على ذلك عوامل عديدة (١) ماجبل عليه من صفات الرجولة والزعامة (٢) انه سليل بيت الملك سليمان (٣) شجاعة رجال جيش شوءا (٤) ما كسبه من ظفر وانتصار عظيم على الايطاليين في عدوة .

معاهدة يوكيالي في ١٨٨٩ : لقد ايد الايطاليون اعتلاء منليك العرش وبعد الاعتلاء دخل معهم في مفاوضات كان يقصد بها ان يحدد موقفه منهم وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة يوكيالي في ١٨٨٩ التي سببت توتر العلاقات بين الطرفين للاختلاف الحاصل على تفسير بعض المواد التي لم تكن متشابهة في النسختين الايطالية والامهرية ، لغة البلاد الرسمية . لقد كان الايطاليون يدعون ان معنى هذه المواد ان

توضع الحبشة تحت حمايتها لانه جاء فيها « على الامبراطوران يضع نفسه تحت مشورة الحكومة الايطاليــة عندما يريد الدخول في اية مفاوضة مع ايةحكومة» . وبناء علىهذا الاختلاف ـأيادعاء الايطاليين بالحماية ومنليك بالاستقلال وتقدم الجيش الايطالي في مقاطعة التيكر مما حمل الامبراطور على ان يفضح هذه المعاهدة لدى الدول العظمى في ١٨٩٣

واقعــة عدوة ١٨٩٦ : — لقــد استمر تقدم الايطاليين في البــلاد الحبشية وكأن هذا التقدم اريد به ان يزيد في اتحاد الاحباش ويبعث فيهم روح التضحيةوالاقدام . وفيوقعة عدوة في شهر آذار ١٨٩٦ انتصر جيش الاحباش الذي كان يقدر بنحو مائةالف جندي انتصاره المجيد وحطم الجيش الايطالي الذي كان يقدر بنحو١٥ ألف محارب . انهذا الاندحار الايطالي الشائن وما لقيه الاسرى من مضض الحبس الذي زاد على السنة كانت ايطالية تردد صداهما بصورة مستمرة من اقصاها الى اقصاها حتى الواقعة الاخيرة في عدوة .

توطيد استقلال البلادالحبشيةمن١٨٩٦ـ١٩٠٨. انتهت الحرب وعقدت معاهدة سلمية في أديس أبابا سنة ١٨٩٦ وقد ألغت هذه المعاهدة معاهدة يوكيالي واعترفت ايطاليا باستقلال الحبشة التام . وبعد هذا وجه منليك جهوده الى الاصلاحات الداخلية واخضاع العشائر وتثبيت حدود بلاده مع الدول الاجنبيــة العظمى . لقد حارب رأس مانـكاشا حاكم التيــكر ورأس مكونن حاكم هرر مع الامبراطور بنية خالصة لتخليص بلادهم من الخطر الايطالي ولـكن بعد انتهاء الحرب لم يظهر حاكم التيكر بمظهر الموالي او الخاضع للامبراطور مما اضطر الامبراطور اخيراً الى محاربته واخضاعه وكذلك اخضاع جميع القبائل الغربية والجنوبيــة الى حــدود

السودان من جهة واوغادين من الجهة الاخرى كما ان منليك منح حكما ذاتيا لبعض القبائل التي كانت موالية له واخلصت له في حروبه مع ايطاليا على ان تدفع جزية سنوية وتكون مرتبطة به بروابط حربية وقد كان اكثر هذه القبائل من مقاطعتي الجيما . وبعد ان فرغ منليك من كل هذا قام بتثبيت حدود بلاده (التي بقيت الى يومنا الحاضر على الشكل الذي وضعه الا اذا استثنينا تغيراً او تغيرين بسيطين) مع الدول العظمى التي تمتلك جميع البلاد المجاورة الى حدود بلاده وهذه الدولة هي بريطانيا وفرانسا وايطاليا .

المصالح الاجنبية

امتياز السكة الحديدية الفرنسية : ــ ان الدول الاوربية المجاورة لبلاده منليك كانت دائما ابداً تتحين الفرص لايجاد منافذ فيها للاستغلال التجاري . ففي سنة ١٨٩٤ اخذت شركة افرنسية امتياز مد سكة حديدية من جيبوتي الى هرار لمدة ٩٩ سنة . واستطاعت ان تمد بين ١٨٩٦ ــ ١٩٠٢ مقدار ٣٠٦ كيلو مترات ، ٩٠ منها داخلة في الصومال الفرنسي . ان مالية هذه الشركة لم تكن كافية للقيام بعملها ولهذا طلبت مساعدة بعض المتمولين الانكليز . ان هذا الطلب اثار حزب الاستعمار الفرنسي وطالب الحكومة بالحاح التدخل في هذه القضية واستطاع ان يحملها على التعاقد مع الشركة على ان تساعدها سنوياً بمبلغ ٥٠٠ر٠٠٠ فرنك وعندما طرق هذا الخبر سمع الامبراطور شعر بأن الامتيازات التجارية التي تعطى لشركات ليس لها صفة حكومية تذهب هكذا الى قبضة الحكومة وان الاستيلاء على هذه الامتيازات

هو مقدمة للتدخل الاجنبي في شؤون البلاد . وقد ادت هذه الحادثة الى ان يكون الامبراطور كثير الحذر فى منح الامتيازات . ومهما يكن من امر ، فقد اجاز الامبراطور للشركة ان تستمر على عملها وتوصل الخط الى اديس ابابا . واستمر العمال في بناء السكة من ١٩٠٦ الى ١٩١٧ وقد بلغ طول الخط ٧٦٦ كيلو متراً . وفي المعاهدة الثلاثية في ١٩٠٦ اتفقت الدول الثلاث على ان تقوم شركه افرنسية بتكميل مد الخط الى اديس ابابا وتكون هي صاحبة الشأن فيه . ويقوم الانكليز بمد خط آخر من هناك الى السودان ويقوم الايطاليون بمد خط الى الاريتريا او الصومال الايطالي .

الاتفاقيتان الانكليزية والايطالية في ١٨٩١ و ١٨٩٤ : ــ غير انه في هذا الاثناء ، في سنتي ١٨٩١ و ١٨٩٤ عقدت اتفاقيات بين الانكليز والايطاليين لتحديد منافع الطرفين في هذه البلاد . وفي هذه الاتفاقيات اعترفت انكلترا بأن تكون جميع الحبشة تقريباً تحت النفوذ الايطالي الامر الذي حققه الايطاليون (على مايدعون) مع الامبراطور منليك في معاهدة بوكيالي والتي اتت بعد هاتين الاتفاقيتين في ١٨٩٨ والغيت بعد ذلك كما اوضحنا .

امتياز بريطانيا في ١٩٠٢ ــ فى ١٩٠٢ : عقدت معاهدة بين الانكليز والاحباش لتثبيت الحدود ما بينهما وفي هذه المعاهدة حصلت بريطانيا على بعض امتيازات في المناطق التي اعتبرت تحت نفوذ ايطاليا . حيث جاء فيها : على الحكومة الحبشية

(١) ان لا تسمح لاية سلطة ان تقوم باي عملية من شأنها ان تحول مياه النيل الازرق وبحيرة تانا عن مجاريها الاصلية الى النيل الكبير

(٢) ان تؤجر الحكومة الحبشية لحكومة انكلترا مكانا يتخذ محطة تجارية (اصبحت هذه المحطة في الاخير في غامبيلا)

(٣) ان تحتفظ الحبشة بحق انكلترا في مد سكة حديدية في المناطق الحبشية لربط السودان بيوغاندا .

المعاهدة الثلاثية فى ١٩٠٦

عندما اصبحت مناطق نفوذ كل من الدول الثلاث ,انكلترا وفرانسا وايطاليا في الحبشة مرتبكة ومشوشة ومشتبك بعضها ببعض تم الاتفاق ما بينها على عقد معاهدة ثلاثية حول الامر . وقد حلت قضية مناطق النفوذ في المادة الرابعة منها . وقد امضاهامنليك بعدتردد كثير وبعد جهود كبيرة بذلتها السلطات الثلاث لاقناعه بأنها لا تهدداستقلال بلاده بناء على المادة الثالثة التي جاء فيها « تتعهد الدول الثلاث على انلا تتدخل ابداً في قضايا الحبشة الداخلية » ونص هذه المادة هو كما يلي :

« على الدول المتحالفة الثلاث ان تقف موقف الحياد عند حصول اضطرابات داخلية وان تمتنع عن ايةمداخلة فى هذه القلاقل وان تحصر اعمالها بعد اتفاق الجميع فيما يخص المحافظة وحماية سفارات واملاك وارواح الاجانب والمنافع العامة التي تخص الدول الثلاث . ولا يجوز لاية دولة التدخل بأي شكل كان مالم يحصل الاتفاق بينهاوبين الدولتين الاخرين »

اما المادة الرابعة التي اتت بحل قضية مناطق النفوذ فهي :

« عند حصول اضطرابات داخلية من شأنها ان تقضي على وحدة الحبشة فعلى الدول المتحالفة الثلاث فرانسا وبريطانيا وايطاليا بذل كل الجهود للمحافظة على هذه الوحدة ؛ ويتحتم عليهم الاتفاق سويةحسب

القواعد التي وضعت في المادة الثالثة للمحافظة على :

١ ـ مصالح بريطانيا ومصر في حوض النيل ولا سيما فيما يخص تنظيم مياهه ومياه الفروع التي تصب فيه (مع أخذ المصالح المحلية بنظر الاعتبار) وبدون ضرر بالمصالح الايطالية المذكورة في الفقرة (٢)

٢ ـ مصالح ايطاليا في الحبشة فيما يخص الاريتريا والصومال الايطالي (شاملا البنادير) ولا سيما فيما يخص علاقة هـذه الممتلـكات وارتباط بعضها ببعض من غربي اديس ابابا .

٣ ـ مصالح فرانسا في الحبشة فيما يخص الممتلـكة الفرنسية على الساحل الصومالي وفيما يخص المنطقة اللازمة لتشييد السكة الحديدية من جيبوتي الى اديس ابابا .

وهذه الاتفاقية التي هي من اقوى الأسلحة الدبلوماسية المؤثرة على الحبشة لا تزال مطبقة لحد الآن .

تثبيت الحدود

لقد ثبت منليك حدود بلاده بالمعاهدات التالية ولا نرغب ان نأتي على تفاصيل هذه المعاهدات بل اكتفينا بذكرها باختصار

في آذار ١٨٩٧ : معاهـدة مـع فرانسا فيما يخص حـدود الصومال الفرنسي

في ايار ١٨٩٧ : معـاهدة مـع بريطانيا فيما يخص حدود الصومال الانكليزي وفيها تأيد بقاء هرار وغادين للحبشة على ان تتعهد الحبشة بعدم ممانعة القبائل في الصومال البريطاني من الرحيل الى الداخل قصـد ايجاد المراعي واعطائها حق استعمال مياه بعض الآبار في ١٨٩٧ . اتفاقية مع ايطاليا فيما يخص حدود الصومال الايطالي ولم تسجل هذه الاتفاقية

ولكنها ذكرت فيما بعد في معاهدة ١٩٠٨ المتعلقة بالحدود ايضا .

في تموز ١٩٠٠ : معاهدة مع ايطاليا فيما يخص حدود الاريتريا

في ايار ١٩٠٢ : معاهدة مع انكلترة مختصة بحدود السودان

في ايار ١٩٠٢ : معاهدة مع انكلترة وايطاليا فيما يخص الحدود بين السودان والحبشة وبين السودان والارتيريا

في كانون الاول ١٩٠٧ : اتفاقية مع بريطانيا تتعلق بحدود الشرق الافريقي البريطاني

في ايار ١٩٠٨ : معاهدةمع ايطاليا تتعلق بحدود الصومال الايطالي

في ايار ١٩٠٨ : معاهدة مع ايطاليا تتعلق بحدود الاريتريا

لقد اشير في النزاع الحاضر الى بعض هذه المعاهدات وخاصة الى التي عقدت مع ايطاليا . وكذلك وجه النظر الى المعاهدة التي بدأت المفاوضات في ١٨٩٧ وصودق عليها في ١٩٠٠ حول حدود الاريتريا عند ما شكت ايطاليا بان الحبشة تضغط على المستعمرات الساحلية بنيته ايجاد منفذ بحري لها . غير ان الحبشة ردت على هذا الزعم بانه لو ان لها هذه القضية لحققتها عندما تغلبت على ايطاليا في موقعة عدوة .

وضع الحبشة الدولي سنة ١٩١٣—١٩٣٤

طمست الحبشة بعد موت منليك في ١٩١٣ في بحر من الفوضى والاضطرابات الداخلية التي نشأت عن اعتناق الامبراطور الليج ياسو (على ما يقال) الديانة الاسلامية ولم تستطع الدول المداخلة في شؤون الحبشة في حينه لانشغالها في الحرب العامة وقد خلع الامبراطور بعد قتال شديد في ١٩١٦ وحكمت البلاد من بعده، سميتازوديتو ابنة الامبراطور منليك حتى وفاتها في ١٩٣٠ وقد كان يحكم البلاد فعليا خلال هذه المدة نائب الامبراطور

ووارث العرش الراس تفرى ابن الراس ماكونن .

قبول الحبشة في عصبة الامم : — لقد دفعت بالحبشة عوامل متعددة الى تقديم طلب الى العصبية لتكون عضوا فيها ولا سيما خشيتها من مطامع الدول الاستعمارية في بلادها وقد اتى طلب انضمامها الى العصبة في ١٩٢٣ كشيء فجائي . وقد سبب هذا الطلب بعض الجدل في اللجنة السادسة التي خولت حق تقديم تقرير حول لياقة الحبشة للعضوية — وان كان هـذا الطلب قبل فيما بعد بأجماع ٤٥ امـة بعد ان تعهدت الحبشة بالقيـام بكل ما تنص عليه قوانين العصبة وانظمتها وضرورة تنفيذ الشرطين اللذين علق عليهما امر قبولها عضواً وهما ـ ١ ـ القضاء على الرقيق و ٢ — الاستيلاء على تجارة الاسلحة . لقد ذهب ممثلو الدول في هذه اللجنة حول القبول الى مذهبين وكان يقود المذهب الاول بريطانيا وسويسرا واستراليا القائل بضرورة ارسال لجنة تفتيشية الى الحبشة للتأكد من قابليتها في المحافظة على ما اخذت على نفسها من شروط وتعهدات . وكان المذهب الثاني وعلى رأسه فرانسا وايطاليا لا يرى لزوما لارسال هذه اللجنـة ويفضل قبول الحبشة بدون تأخير ويقول ان هذا القبول مما يسهل عليها السبيل للقضاء على الرقيق وانه احسن وسيلة لتقوية الحكومة الحبشية واضـاف على هذا ممثل ايطاليا وقال وليس هنالك من حاجة لوضع شرط خاص متعلق بقضية الاتجـار بالاسلحـة . وقـد تغلب في الاخير اصحاب المـذهب الثـاني وقبلت الحبشـة عضواً في العصبـة بجهود ايطـاليـا بالدرجـة الرئيسية .

الوعود التى اعطيت لايطاليا اثناء الحرب العامـة في ١٩١٥ : بالرغم مما قدمته حكومة ايطاليا الفاشيستية من مساعدة للحبشة في دخولها

العصبة فان الحكومات الايطالية السابقة سواء أكان ذلك في وقت الحرب ام بعده لم تنفك عن امل التوسع في افريقيا ومما زاد هذه الامال المادة ١٣ من معاهدة لندن السرية التي حملت ايطاليا على الانفصال من التحالف الثلاثي وانضمامها الى الحلفاء . وقد جاء في هذه المادة : —

« في الاحوال التي تقوم بها فرانسا وانكلترا بتزييد مستعمراتها في افريقيا على حساب المانيا فهاتان الدولتان توافقان ايضا مبدئيا على ماتطلبه ايطاليا من عوض متساو ولا سيما فيما يخص ، لصالحها ، الحل المتعلق بالقضايا الناشئة عن الحدود الايطاليا في الاريتريا والصومال وليبيا وفي المستعمرات التي تعود الى فرانسا وبريطانيا » .

المفاوضات الانكليزية الايطالية اثناء مؤتمر السلم في ١٩١٩ :— كان مؤتمر السلم في تشرين الثاني ١٩١٩ يعالج قضايا استعمارية كثيرة ومنها ما قامت به ايطاليا من مفاوضات مع انكلترا استناداً الى المادة ١٣ المذكورة آنفا وكانت هذه المفاوضات كما يلي :

١ — على ايطاليا تأييد بريطانيا بخصوص طلبها امتياز لانشاء خزان بحيرة تانا كما ان عليها تأييدها عند طلبها امتيازاً لتشييد طريق للسيارات من بحيرة تانا الى السودان

٢ — وعلى بريطانيا ، بالمثل ، تأييد مطاليب ايطاليا حول الحصول على امتياز سكة حديدية تربط الاريتريا بالصومال وتمر بغربي اديس ابابا

٣ — تحتفظ ايطاليا لنفسها مكانة الحقوق في المنطقة الايطالية .

لقد ترشح اخيراً ان انكلترا لم ترحب بما قدمته ايطاليا لها وذلك لانها تعارض قويا لاية فكرة تسمح بان يكون لاية دولة اجنبية اي نوع من الاستيلاء على منابع النيل الرئيسية الذي هو العامل الحيوي لرفاهية بل

لوجود مصر والسودان :

لقد خابت جهود ايطاليا ولم تتـوفق الى الحصول على مطـاليبهـا في معاهـدة فرسايل وقـد ظهرت النتيجـة على عـكس ما كانت تتأمـله فمستعمرات المانيا في افريقيا ذهبت كلها الى ايدي الانكليز والفرنسيين والبلجيكيين . وكلما استطاعت ان تعمله ايطاليا بناءعلى المادة ١٣ من معاهدةلندن هو فتح المفاوضة حول تصفية وتعـديل قضية الحدود مابين : ـ

١ ـ المستعمرات الفرنسية في شمال غربي افريقيا وليبيا

٢ ـ الصومال الايطالي وكينيا

٣ ـ مصر وليبيا

لقدحسمت القضية الاولى بسهولة في ١٢ ايلول ١٩١٩ وفيها اعطت فرانسا لايطاليا حق الاستيلاء على الابار الواقعة فى طريق ممر القوافل من بحيرة (غاد) الى البحر الابيض المتوسط .وانتهت القضية الثانية بعد مفاوضات طويلة في ٥ تموز ١٩٢٤ حيث اعطت انـكلترا (الجوبلنـد) الى ايطاليا . ولم تنتهـي القضية الثالثة الا بعد الاتفاقية التى عقدت بين ايطاليا ومصر في ٦ كانون الاول ١٩٢٥ والحقت بمبادلة مذكرات بين مصر وايطاليا ، وبين بريطانيا وايطاليا في ٢٠ تموز ١٩٣٤ حيث ادخل فيها تحديد بعض الاقسام التي لم تكن محدودة من قبل بين ليبياوالسودان

ولم تتنازل الحـكومة الفرنسية عن بعض المقاطعات لايطاليا بمقتضى معاهدة لندن الا في شباط ١٩٣٥ في اتفاقية روما(التي سنذكرهاقريبا)

المخابرات التي دارت بين انـكلترا وايطاليـا في ١٩٢٥ : لقد قامت حكومة العمال البريطانية في ١٩٢٤ بعرض مقترحات على الحبشة فيما يخص

مياه بحيرة تانا ولكنها لم تحصل على نتيجة عملية . وقد فتحت حكومة المحافظين التي عقبت حكومة العمال في الحكم المفاوضات مع ايطاليا ووضعت قضية الحبشة على بساط البحث واشير الى اقتراحات ايطاليا في تشرين الثاني ١٩١٩ التي عرضت في مؤتمر السلم في باريس وقرر ان هذه الاقتراحات لا تعارض المعاهدة الثلاثية المنعقدة في ١٩٠٦ . وقد انتهت هذه المفاوضات التي فتحها الانكليز بتبادل مذكرات في ١٤ و ٢٠ كانون الاول ١٩٢٥ . وقد جاء فيها على انكلترا (بعد ما حصلت على تأييد ايطاليا لها فيما يخص أخذها امتيازاً في الحبشة حول بناء خزان على بحيرة تانا وفتح طريق للسيارات بين البحيرة والسودان) تأييد مطاليب ايطاليا حول مد سكة حديدية بين الارتيريا والصومال مارة بغربي اديس ابابا واذا ما اخذت بريطانيا امتياز الخزان وتعهدت ايطاليا بعدم عرقلة سير المياه التي تصب في النيل الكبير فعلى بريطانيا : « ان تتعهد وتعترف بان المناطق التي تمتد فيها السكة الحديدية المذكورة آنفاً والتي تمر بغربي أديس ابابا هي تحت النفوذ الايطالي الاقتصادي المطلق وعلاوة على هذا تتعهد بتأييد ايطاليا عند الحكومة الحبشية عندما تطالب بالامتيازات الاقتصادية في المنطقة المذكورة »

لقد تم هذا الاتفاق بين الحكومتين بدون علم من فرانسا الامر الذي اتى مناقضا للمعاهدة الثلاثية المعقودة في ١٩٠٦ . وقد بذلت الحكومتان جهوداً كبيرة لدى حكومة فرنسا باقناعها على ان ما تم بينهما لم يكن فيه تجاوز بأى شكل كان على حقوق فرانسا ولم يتم هذا الاقناع الا في ٢ آب ١٩٢٦ حيث صرح السر اوستن شامبرلن في مجلس العموم بانه « أصبح لديه القناعه الكافية بان فرانسا قد رضيت أخيراً بما ارسل اليها

من ايضاحات حول الامر .

اما الحكومة الحبشية فقد شمت ان هنالك محاولة جديدة لتهديد استقلال بلادها وعليه فقد ارسلت مذكرات أحتجاجية شديدة الى الحكومتين في ١٥ تموز ١٩٢٦ وكانت هذه المذكرات متشابهة عدا أنه أضيف الى النسخ الانكليزية فقرة (نحن لم نكن نتصور قطعاً ان حكومة بريطانيا تتفق مع حكومة أخرى بخصوص بحيرتنا) اي بمعنى اذا كان هنالك اتفاق حول البحيرة فيجب ان يكون معنا وليس مع احكومة اجنبية لان البحيرة بحيرتنا . وقد احالت الحكومة الحبشية القضية الى عصبة الامم وأثارت حولها ضجة كبيرة دفعت بالحكومتين البريطانية والايطالية الى نشر تفسير للاتفاقية حصرتا فيه مطاليبهما باضيق الحدود الممكنة وحاولتا أن تصيغاه صيغة لا يشم منها رائحة تعد عن استقلال الحبشة . وقد قالتا في هذا التفسير ان هذه الاتفاقية لا تقصد أبداً صدم الحقوق او الاستقلال الحبشي بأي شكل كان وكل ما قصد فيها ان بريطانيا أرادت ان تأمن جانب ايطاليا في منافستها حول الحصول على امتياز بحيرة تانا في الحبشة وكذلك ان تأمن ايطاليا جانب انكلترا فيما يخص طلب امتياز السكة الحديدية المطلوبة . وقد اجابت ايطاليا حول فقرة (مصالح ايطاليا الاقتصادية المطلقة) هذه الفقرة الخطيرة التي اهاجت الحبشة بقولها :

« اما فيما يخص اعتراف بريطانيا بان تكون بعض المناطق الحبشية تحت نفوذ ايطاليا الاقتصادي المطلق فلا يكون الا شيئاً من الارتباط بين حكومتي ايطاليا وانكلترا ولا يستطيع ان يجرد الحبشة من حقها في البت حول الاعتراف به او تمديده حسبما ترتأيه . وهو عبارة عن

ضمان اقتصادي للمشاريع الايطالية لكي لا تزاحمها مشاريع انكليزية اذ ان المزاحمة في هذه الامور تؤدي حتما الى ضرر وعدم نجاح المشاريع التي يقصد منها رقي وتحسين موارد الثورة المحلية التي لا شك تكون في صالح الحبشة وتدعوها الى المؤآزرة والتشجيع » .

وما اعطاه السر اوستن شامبرلن من تفسير في مجلس العموم في ٢ آب ١٩٢٦ كان مشابها للهجة الايطالية فقد قال :

« ان هذه المذكرة لم تحتفظ باية قطعة في البلاد الحبشية لتكون تحت نفوذ ايطاليا الاقتصادى كما انها لم تفرض واجبات على أية حكومة سوى ان الحكومة البريطانية مقابل ماتعهدت به ايطاليا بخصوص بحيرة تانا تعهدت بان لا تزاحم او تساعد على المزاحمة مشاريع ايطاليا الاقتصادية في المنطقة المذكورة ا. »

وقد انتهت هذه الحادثة بتأكيد عصبة الامم للحبشة بانها ستشير الى احتجاجها عندما تسجل الاتفاقية بين انكلترا وايطاليا في سجل المعاهدات الرسمية . ومهما يكن من امر ، فقد اعتبر ان الحبشة قد نجحت في احباط مساعي الدولتين في هذه الاتفاقية

المعاهدة الايطالية الحبشية في ١٩٢٨ : — لقد اصبح الرأس تفري بعد هذا الانتصار اكثر ثقة بقوته في المحافظة على الاستقلال وأقل تصلبا حول منح امتيازات اقتصادية للدول الاجنبية قصد تحسين بلاده . وهكذا في ٢ آب ١٩٢٨ (أي بعد سنتين من مشكلة ١٩٢٦ التي بحثنا عنها الان عقد ميثاق صداقة وتحكيم مع ايطاليا لمدة ٢٠ سنة وقد نظر الساسة الى هذا الميثاق بانه أنتصار للامبراطورية الحبشية وخسارة للسنيور موسوليني ؛ ويعزى هذا الظفر الى ما وضعه الاحباش من

ثقة كبيرة في المفاوض الايطالي السنيور كوليانو غورا ، السفير الإيطالي في اديس ابابا .

لقد جاء في المادة الثانية من هذا الميثاق تتعهد الحكومتان بان لا تقوم أي منهما باي عمل من شأنه الضرر في باستقلال الاخرى وجاء فى المادة الخامسة التي تتدرع بها الحبشة في نزاعها الحالي

« تتعهد الحكومتان بان يلجأ الى الطرق السلمية والتحكيمية بدون ان يلجأ الى استعمال السلاح لحل جميع ما قد ينشأ بينهما من منازعات لايمكن حلها بواسطة الطرق الدبلوماسية الاعتيادية . وتتبادل المذكرات بين الحكومتين حول الاصول التي يعين بها الحكمون »

والحقت هذه باتفاقية لفتح طريق للسيارات من ديسي (الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا من شمال شرقي اديس ابابا و ٢٠٠ ميل من حدود الاريتريا) الى ميناء عساب في الاريتريا على ان تؤجر للحبشة ارض في هذا الميناء تكون مرفأ لها . وتقوم شركة ايطالية حبشية باستغلال هذ الطريق . ان عدم تنفيذ هذه الاتفاقية هو من الاسباب المهمة التي جعلت الطرفين يشكو احدهما منه الآخر ويلقي كل تبعة التقصير على الطرف الثاني في النزاع الحالي . ان هذه المعاهدة تأكدت ثانية من قبل الطرفين ببيان رسمي صدر في روما في ٢٩ ايلول ١٩٣٤

لقد كان الرأس تفري ملكا (نيكوس) في ٧ تشرين الاول ١٩٢٨ وبعد ممات زوديتو في نيسان ١٩٣٠ توج امبراطوراً في ٢ تشرين الاول من هذه السنة ملقباً بهيلاسلاسي الاول وواجداً عائلة ملكية جديدة

ميثاق المتاجرة في السلاح ١٩٣٠ : عندما كان الرأس تفرى نيكوساً دخل في آب ١٩٣٠ بمفاوضات لتنظيم علاقات بخصوص معاهدة المتاجرة

في السلاح . وكانت الحبشة لحين هذا التاريخ خاضعة لمعاهدة بروكسل المنعقدة في ٢ تموز ١٨٩٠ وتحظر هذه المعاهدة توريد السلاح الى بعض المقاطعات الافريقية ومنها الحبشة وذلك حفظاً لارواح الاهلين ومنعاً للرقيق ، غير ان هذه لم تعد تأتلف مع وضع الحبشة بعد أن اصبحت عضواً في عصبة الامم ، وقد دارت هذه المفاوضات بين الحبشة وبانكلترا وفرنسا وايطاليا واتفق الجميع على انهاء المشكلة وذلك بأن فى استطاعة الامبراطور الحصول على الاسلحة والمواد الحربية اللازمة للدفاع عن بلاده من الغارات الخارجية وللمحافظة على النظام والامن العام في الداخل وبهذا يمنع المتاجرة بالاسلحة الاشخاص الذين لم يخولوا هذا الحق . ولا تدخل الاسلحة الى بلاد الحبشة ما لم تكن مختومة بختم الامبراطور او من يخوله هذه السلطة

اتفاقية ايطاليا وفرانسا في ٧ كانون الثاني ١٩٣٥ :— ومن الاتفاقيات التي بقيت الحبشة تحت تأثيرها الاتفاقية التي عقدت بين لافال وموسوليني في روما في كانون الثاني ١٩٣٥ وحلت بعض القضايا الاستعمارية المهمة . لقد اعطت فرنسا ايطاليا ٢٥٠٠ حصة من ٣٤٠٠٠ حصة من سكة حديد جيبوتي ـ اديس ابابا وتنازلت لها عن مقاطعتين صغيرتين واحدة مجاورة لليبيا من الجنوب والاخرى لحدود الاريتريا الجنوبية . لقد علق الساسة على هذه الاتفاقية بانها على ما يظهر في صالح فرانسا اكثر مما هي في جانب ايطاليا . وفسرو ذلك بأنه لعل هناك من التفاهم السري ما سيعوض عنه هذا وهو فسح المجال لمطامع ايطاليا في الحبشة غير ان المسيو لفال انكر هذا التفاهم في البرلمان الفرنسي الامر الذي سبب ضجة كبيرة في الصحف الايطالية دفعها الى القيام

بحملة كره شديدة ضد فرانسا . ان هذه الحملة الصحفية قد تبين لنا انه كان هنالك شيء من التفاهم السري بين الطرفين وفسر كل منهما هـذا التفاهم بشكل يختلف عن تفسير الآخر .

القسم الثانى

— ١ — الوضع الداخلى في الحبشة

الاخلاص للحكومة المركزية : — ما حدث من القلاقل والفوضى في حكم الليج ياسوفي من ١٩١٣ — ١٩١٦ أضاع ما كونه منليك من هيبة للحكومة المركزية في اديس ابابا . لقد مر على البلاد دور فتور وتبلبل بعد خلع الليج ياسوفي ١٩١٦ ودام هذا التبلسبل مدة عشر سنوات ولم يستطع الرأس تفري نائب الملك انيقوم بشيء يذكرمن الاصلاحات بالرغم مما اتصف به من ثقافة وحماس بالنظر الى وجود جماعة من الرجميين هم حاشية الامبراطورة زوديتو وقد انتهى هذاالوضع بموت (هايتاجيوزجيس) شيخ الرجعية المسن ووزير الحربية الذي كان له من السلطة ما استطاع بها ان يحافظ على سياسة ابقاء القديم على قدمه . لقداغتنم الرأس تفري فرصة موت الرجل ليتمتع هو وأصحابه بالسيادة التي كان يتمتع بها الرجل الميت فى حياته . ومن هنا بدأ التطاحن بين الاحزاب والجماعات وكان الرأس امهر من غيره من المتخاصمين في تكتيل الجماعات حوله وكسب ثقة الجيش بجانبه وهكذا خرج ظافراً من حرب الاحزاب واصبح نيكوس (ملكا) في ١٩٢٨ وامبراطوراً في ١٩٣٠ لم يدخر الامبراطور هيلاسلاسي جهداً الا بذله لتوحيد مملكته وبسط النفوذ

والسيطرة على جميع المقاطعات الحبشية . ان المقاطعات المجاورة للعاصمة ومقاطعة هرار التي هي ملكه وملك آبائه واجداده في خضوع تام للامبراطور وقد اصبحت هذه السيادة شاملة غير هذه المقاطعات ايضاً ولا سيما بعد فشل ثورة حاكم غجام في ١٩٣٢ . عزل الامبراطور هذا الحاكم وعين محله اتباعه كما انه عين قسما من اصحابه ومواليه في المقاطعات النائية مثل سيدامو وكافا وولو . الا ان القبائل المحاذية للمستعمرات الفرنسية والبريطانية والايطالية الواقعة في جنوب شرقي الدناكيل واوسا واوغادين ليست تحت السيطرة تماما بالنظر الى ان هذه القبائل لا تزال في ادوار البشرية الاولى وهم عبارة عن رعاة يحلون حول الآبار والمراعي وغزاة عادة الغزو متفشية بينهم . حتى ان في كانون الثاني ١٩٣٥ عبرت احدى قبائل الدناكيل الحدود وغزت قبيلة الايسا الواقعة ضمن الصومال الفرنسي وقتلت احد الضباط الفرنسيين ومع كل هذه المخالفات التي تحتوي على القتل دالغزو وخرق الحدود فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية هذه الحادثة ضمن العادات القبائلية وانتهت بتحكيم العرف القبائلي ، وفطن ان سلطة الامبراطور على القبائل الكائنة في الجبال الغربية ضعيفة حتى ان انساناً زار هذه القبائل في ايار ١٩٣٥ يقول ان رئيس احدى هذه القبائل المهمة لم يسمع الى الان عن النزاع الحاصل بين ايطاليا والامبراطور ويقول ولكن كراهية هؤلاء للاجانب وفطرتهم الحربية تساعد الامبراطور على استقلالهم بالشكل الذي يعود على البلاد بالخير ، ومما لا شك فيه ان تعدي الطليان على الاحباش وتهديدهم لاستقلال البلاد جعلت الاحباش وحتى القبائل النائية متحمسة كلها بروح التضحية في سبيل انقاذ الوطن

الكنيسة : — للكنيسة تأثير كبير في الحبشة . واغلبية سكان الحبشة المعروفين بالكوشيين مسيحية خاضعة للكنيسة القبطية في الاسكندرية ورجال الدين محافظون اكثر من غيرهم ويقاومون كل تغير وتبديل . ان تعدي الطليان الواضح جعل « أبونا » وهو رئيس الكنيسة القبطية ضد اعمالهم ومناوئاً لهم . تقدر نفوس المسيحيين بثلاثة ملايين نسمة ويسكنون المنطقة التي تمتد من شمالي اديس ابابا الى حدود الاريتريا والى ما بعد غربي بحيرة تانا . اما الغالا واكثرهم مسلمون فيشكلون ارقى طبقة من السكان ويسكنون جميع المناطق المجاورة للصومال الفرنسي والبريطاني والايطالي ويشكلون قبائل الغالا والدناكيل والعفار والعروس واوغارين . المذهب الشافعي هو المذهب السائد في قبائل الدناكيل والعفار . والتعاليم السنوسية هي التعاليم المنتشرة بين قبائل العروس واوغادين . كما ان اهالي منطقة الجيما كلهم مسلمون وتقع هذه المقاطعة في الجنوب الغربي من اديس ابابا ومحاطة بجماعة وثنية لا دين لها . تبلغ مساحة الحبشة نحو حوالي ٣٤٧ الف ميل مربع .

الاصلاحات الادارية : — في حفلة تتويج الامبراطور كنت ترى منظراً غريباً هو منظر اصطفاف الرؤوس والديجازماجين (الجنرالية) والفيتورارين (زعماء في الجيش) وغيرهم من القواد ببزاتهم الوطنية الغريبة في الوانها وزركشتها في العاصمة الامبراطورية متهيئين لمبايعة ملك الملوك . وقد اجتمعوا ثانية في العاصمة في ١٦ تموز ١٩٣١ للمصادقة على ما وهبه لهم الامبراطور من عطية وهو الدستور وكان من بين الاوائل الذين أحضروا الدستور هو ابونا . لقد تشكلت الوزارة واجتمع

مجلس الامة لاول مرة في تشرين الثاني سنة ١٩٣٢، ويغير الامبراطور اعضاء المجلس (نوابا وشيوخا) كل ثلاثة شهور مرة بحجة تعويد البلاد على اصول الحكم الحديثة . ان تشكيل مجلس الامة والوزارة وما يحيط بهما من اصول وقواعد كانها أمور اتت قبل اوانها بالنسبة الى العقلية الحبشية .

لقد اشتغل الامبراطور مع البرلمان لتنظيم علاقات الاجانب بالبلاد وحل بعض القضايا الناشئة من هذه العلاقات . وانجز المجلس في اول دورة قوانين الشركات والافلاس والعملة وامتلاك الاراضي من قبل الاجانب . وشكلت لجنة حبشية أيضاً لاصلاح قانون العقوبات والقانون المدني . وعهدت اصلاح دائرة البوليس الى احد المبشرين البلجيكيين . وقد اراد الامبراطور أدخال الاصلاحات بشكل عملي فأوجد ثلاث مقاطعات لتكون نموذجاً لما يريد فجرى تعيين الحكام لها وباقي الموظفين من قبل الحكومة المركزية . ان عمر هذه الاصلاحات لايتجاوز الاربع سنين وعليه فهي لا تزال بدور الطفولة وهذا الذي يفسر لنا لماذا الامبراطور هو الحاكم الفعلي مع وجود هذه التشكيلات . يقوم الامبراطور بالحكم بمساعدة مستشارين أجانب ولاسيما فيما يخص الامور المالية والعلاقات الخارجية . ويجب ان نقر هنا بوجود بعض المقاطعات في الحبشة لا تزال الحالة الوحشية هي المسيطرة فيها .

الجيش : — من اشهر المستشارين الذين لهم علاقة حيوية مع الحكومة هم المستشارين البلجيكيين الذين يقومون بتدريب ما يسمونه بالحرس الملكي ويبلغ عدد هؤلاء ٣٠٠٠٠ محارب مجهزين باحدث الاسلحة الحربيـــة ومدربين على احدث نظام عدا انهم لا يزالوا حفاة . ان

الاحصائيات الحديثة تقدر لنا الجيش النظامي الذي هو شبيه بالحرس الملكي و ١٠٠ الف جندي . وهنالك عدا هؤلاء حوالي ٦٠٠ الف جندي من العشائر . ومهما يكن من امر ، فان تقدير كافة القوات الحبشية الحربية أمر عسير اذ في استطاعة كل زعيم قبيلة ان يأتي بعشيرته عند الحاجة وعلى هذا فيتوقف عدد المحاربين على عدد زعماء القبائل الموالين الى الحكومة .

اما فيما يخص المعدات الحربية فيملك الجيش (وهذه احصائيات أخذت قبل الحرب) ما بين ٢٠٠ و ٢٠٠٠ من الرشاشات ومدافع ضد الطيارات . وخمس دبابات أهديت واحدة منها من قبل دوق (ابروزي) في مايس ١٩٢٧ وبدأت الحكومة تضع نواة لقوة الطيران تحت اشراف مدربين فرنسيين ويوجد مطار في اديس ابابا. لا شك ان هذه المعدات الحربية زيدت زيادة هائلة قبيل الحرب ولا سيما عدد البنادق والمدافع وما شاكل .

الرق : — عندما صرح موسوليني ان الحبشة لا تليق ان تكون امة مستقلة ويجب ان تخرجها العصبة منها لتكفر عن غلطتها في قبولها كان قد دعم هذا التصريح بامور ثلاثة :

١ — ان الحكومة الحبشية لا تستطيع محافظة الامن على الحدود
٢ — انتشار الرقيق في البلاد
٣ — ظلم واستبداد الطبقة الحاكمة بالطبقة المحكومة

وعليه نرى ان نبحث بصورة مختصرة عن وضعية الرقيق في الحبشة وما قام به هيلاسلاسي للقضاء عليه منذ ان تولى الحكم . ان تجارة الرقيق في الحبشة عادة متأصلة ومتحكمة في نفوس الاحباش ولاجل القضاء عليها يجب ان تصرف جهود كبيرة وتحتاج الى زمن طويل .

والحكومة الحبشية مضطرة لاخذ التدابير اللازمة للقضاء على الرقيق بالنظر الى تعهدها القيام بذلك عندما قبلت عضوا في العصبة لقدسنت الحكومة قوانين في ١٩٢٤ و ١٩٣١ تنص على ان يكون كل مولود جديد لاي عبد حرا عند ما يتوفى مولاه . وكان يجب أن تؤدي هذه القوانين الى تحسين الحال غير ان عدم التمكن من تطبيقها على الوجه المطلوب لم يؤد الى النتيجة المتوخاة . وهذا مما دفع الامبراطور الى مضاعفة الجهود لوضع نهاية لهذه العادة وفي سنة ١٩٣٢ شكل الامبراطور مصلحة لتحرير لرقيق في اديس ابابا برئاسة رجل انكليزي وفي آب ١٩٣٤ أفتتح ٦٢ فرعا لها في مختلف انحاء البلاد . وعين لهذه الفروع قضاة مسؤولين عن تحرير العبيد وتنفيذ قوانين التحريم . وبالرغم من كل هذا فان عادة الرقيق لا تزال متبعة في البلاد وحتى ان قسما من الموظفين لا يزالوا يسترقون اولاد عبيدهم الذين يجب ان يكونوا احرار بحكم القانون . كما انه لا يمكن السيطرة التامة على العشائر البعيدة من المركز والتي تتاجر في الرقيق . ان القصد من غزو قسم من العشائر بعضها لبعض وان كان بالدرجة الرئيسية للحصول على المواشي غير انه كنتيجة له تسترق الاسرى . ان موسوليني يأخذ على الحبشة عدم استطاعتها للقضاء على الرقيق ولم يستطع هو ولا باقي الدول القضاء على الرقيق في مستعمراتهم كما تقول ايلزابث مكولم .

موارد البلاد الطبيعية : لما كانت الحضارة بعد لم تتوغل في البلاد الحبشية وحاجيات الاهلين قليلة فتكاد تكون البلاد مكتفية بمواردها الطبيعية وتجارتها الخارجية ليست مهمة وعليه فان ارقام الصادرات والواردات لا يمكن ان تتخذ كمقياس لثروة البلاد . ان الحبشة بلاد

زراعيةوسكانها فلاحون اورعاة . وان قسماً كبيراً من اراضيها خصب وغني بتربته الصالحة لزراعة كثير من الحاصلات الزراعية كالحنطة والشعير والقطن والموز والمطاط وغير ذلك . ان الجيش لا يزال يستعمل الوسائط الابتدائية الاولية في زراعة وتربية الحيوانات . ان اكثر الاراضي الغنيـة لا تزال غير مستثمرة وتحتاج الى ايد ماهرة للاشتغلال . ولا يوجد في البلاد شركات زراعية اجنبية الا بعض الشركات الصغيرة البلجيكية لزراعة القهوة

لعدم مسح كثير من الاراضي الحبشية وعدم فحص التربة فحصاً دقيقاً فلا يمكننا ان نقدر ثروتها المعدنية الا بشكل تخمين ، لقد اصبح استخراج المعادن كالبتواش والميكا والذهب والبلاد بشكل تجاري غير ان المحلات المعروفة لاستخراج هذه المعادن قليلة وصعبة الوصول اليها . ان استخراج البلاتين كما يلي :

سنة	غرام	سنة	غرام
١٩٢٦	٢٢،٣٥٥	١٩٣٠	١٢٧،٤٤٧
٢٧	٥٧،٧٤٧	٣١	١٩٣،٨٣٤
٢٨	١٢٥،٨٠٣	٣٢	٢٤٤،٩٤٧
٢٩	١٠٣،٣٠٥	٣٣	١٩٠،٦٠٣

أن هذه الارقام تمثل لنا معدل ما يستخرج من هذا المعدن الذي يكون ٣٠٫/ من البلاتين الذي يستخرج في العالم . كما ان هنالك احتمالات حول وجود النحاس والفضة والنفط والفحم .

التجارة الخارجية الاجنبية : — لا توجد احصائيات كاملة للتجارة الاجنبية وما سنذكره من الاحصائيات تقتصر فقط على الطرق الرئيسية

المارة من جيبوتي والسودان والصومال البريطاني : — ومايلي الارقام لسنوات ثلاث :

الوارد

الطريق	١٩١٢	٩٢٨_٩٢٩	٩٢٩_٩٣٠
	جنيه	جنيه	جنيه
جيبوتي	٨٤٨,٥٢٧	١,٣٩٩,٩٠٥	٨٢٢,٩٤٣
السودان	٩٥,٧٥٦	١٦٣,٩٣٨	١٠٦,١٤٩
الصومال البريطاني	٤٤,١١٢	٨٤,٧٢١	٥٢,١٣٦
المجموع	٩٨٨,٣٩٥	١,٦٤٨,٥٦٤	٩٨١,٢٢٨

الصادر

الطريق	١٩١٢	٩٢٨_٩٢٩	٩٢٩_٩٣٠
	جنيه	جنيه	جنيه
جيبوتي	٧٦٢,٠٠٢	٨٩٠,٢٨٧	٦٧٩,٦٨٣
السودان	٩٧,٤١١	٢٣٧,٢٩٣	٢٣٤,٠٠
الصومال البريطاني	١٦,٦٤٩	٤٦,٧٠٨	٣٧,٥٣١
المجموع	٨٧٦,٠٦٢	١,١٧٤,٢٨٨	٩٥١,٥١٤

ان التجارة عن طريق الارتيريا تضيف ١٠٪ الى هذا المجموع واما عن طريق الصومال الايطالي فشيء لايذكر وذلك لان الاراضي الجنوبية هي اراض رملية قاحلة الا بعض الوديان التي يسقيها نهر اليوبا وبين شيبلي

ان اهم البضائع التي تستهلكها الحبشة وتوردها من الخارج هي البضائع القطنية وهـذه التجارة في ايدي الجيباتيين . اما الصادرات فاكثرها القهوة والجلود المدبوغة وغير المدبوغة وشمع العسل . ويقدر ثمن القهوة

التي تصدر في سنة اعتيادية بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠الف جنية الى ٥٠٠ الف جنيه وتقدر صادرات الجلود بمبلغ يتراوح بين ٢٠٠ الف جنيه الى ٣٠٠ الف جنيه ولا توجد حركة تجارية مهمة بين الحبشة وانكلترا مباشرة بل اهمية التجارة محصورة بين الحبشة والمستعمرات الانجليزية والفرنسية

٣— المصالح الاجنبية

المصالح البريطانية : (١) ان المصلحة الرئيسية التي تهم بريطانيا في الحبشة هي مياه بحيرة تانا وهنالك تفاهم منذ ١٩٠٢ بين انكلترا والحبشة استطاعت الحكومة الانكليزية بواسطته ان تأخذ الحق بانشاء سد على البحيرة لتنظيم المياه التي تذهب الى مصر والسودان على انه لا يحرم من استعمال هذه المياه سكان منطقة هذه البحيرة من الاحباش ولاجل هذه الغاية قامت شركة هوايت الهندسية الامريكية بمسح البحيرة بطلب من حكومتي الحبشة والسودان في ١٩٣٠ ولما ان تقدم العمل وكثرت التكاليف طلبت المساعدة من حكومة مصر في ١٩٣٣ ارسل فريق آخر لاتمام المسح . دعت الحكومة الحبشية في ١٠ مايس ٩٣٠ حكومات انكلترا ومصر والسودان لعقد مؤتمر في اديس ابابا لوضع اتفاقية حول هذه القضية . غير ان الحكومة البريطانية منعاً لما قد يقع من سوء تفاهم بينها وبين ايطاليا من جراء هذا المؤتمر اجابت الامبراطور بضرورة تأخير عقده الى وقت آخر في حين ان الحكومة المصرية قد وضعت في ميزانيتها لمشروع السنوات الخمس مبلغ ٢١ مليون جنيه تصرف على مشاريع الري ومنها اقامة سد بحيرة تانا

(٢) المحطة التجارية في غاميلا قرب حدود السودان . وقد اصبح

هذه المحطة مركز تجاري مهم جداً منذ معاهدة ١٩٠٢ وقد ازدادت التجارية المارة بها في السنوات الاخيرة كبيرة . كما ان قسما مهما من الحركة التجارية في الداخل يدار من قبل الهنود الصوماليين الخاضعين لبريطانيا .

٣ — ما يتعلق بعبور بعض القبائل من الصومال البريطاني الحدود الحبشية الى مقاطعة اوغادين قصد ايجاد المراعي والمياه .

٤ — ان ما يقارب ٣/٢ حدود الحبشة مجاور الى اراضي بريطانية وذلك من جهات كينيا والصومال والسودان . ولا شك ان ما يحدث منه قلاقل واضطرابات في الحبشة يؤثر على وضع هذه الممتلكات البريطانية وبمعنى آخر ان بريطانيا تخشى من وجود اية سلطة اوربية قوية في الحبشة لئلا تهدد سلامة الامبراطورية باستيلائها (اذا ما اقتضت الظروف) على السودان ومصر فتقطع عليها طريق المواصلات الى الهند .

المصالح الفرنسية:— ان سكة حديد جيبوتي هو المشروع الاوربي الوحيد الكبير الذي يستثمر الان في الحبشة . لقد جابهت الشركة كما قلنا في بدئ تشكيلها صعوبات مالية جمة ناشئة عن اسباب عديدة يعزى قسم منها الى الاضطرابات الداخلية في البلاد والى نشوب الحرب العظمى وقد حدا هذا الوضع الى الاتفاق ما بين الشركة والحكومة الفرنسية في سنة ١٩٢٢ . وقد مر عقب هذا التاريخ دور رفاه ورخاء على الشركة وان كان دخلها في الوقت الحاضر على ما يقال ليس ايضاً كما يرام . ان الحكومة الفرنسية تنازلت الى ايطاليا عن ٢٥٠٠ حصة من مجموع ٣٤ الف حصة حسب اتفاقية روما في ٧ كانون الثاني ١٩٣٥

المصالح اليابانية : — لقد قلنا سابقا ان اليابان تكاد تكون الامة

الوحيدة المستولية على اسواق الحبشة ولذلك فان اهتمامهـا بما يدور فى الحبشة لامر طبيعي . وقد ظهر هذا الاهتمام بشكل رسمي بتصريح وزير الخارجية في ١٩و٢٠ تموز ١٩٣٥ . كما انه قـد تشكلت برئاسة الزعيم تویاما Toyama جمعية سميت بجمعية الاهتمام بقضية الحبشة . وقد ابرق رئيس هذه الجمعية الى اديس ابابا برقية يناشد بها المسؤولين بوجوب المحافظة على الاستقلال . كما ان الحكومتين عقدتا معاهدة صداقة في ١٩٣٠ ولم يصادق عليها الا بعد زيارة احد وزراء الحبشة طوكيو في ١٩٣٢ . وقد اشيع بان اليابان استطاعت بواسطة هذه المعاهدة ان تحصل على امتيازات زرع الافيون وزرع القطن في الشمال بين بحيرة تانا والاريترية كما انه اشيع بحصول عقد زواج بين احـد امراء الحبشة واحدى فتيات العائلات الشريفة اليابانية . وقد اتضح اخيرا انه لا صحة الى هذه الاشاعات

لقد طفحت الصحافة اليابانية كلها بشعور فياض مع الحبشة . كما ان جمعية الاهتمام بالحبشة قـد اوزرت من قبل جمعيـة الوطنيين المتطرفين المعروفة بجمعية الافعوان الاسـود ومن حزب الانتاج اليابانى وقـد اصدرهذا الحزب في ٢٤ تموز ١٩٣٥ قراراً يستنكر به الاعمال الايطالية ويطلب من الدوتشي ان يسحب الجيش .

المصالح الايطالية : — لقد اعترفت انكلترا وفرنسـا الى ايطاليا بان تكون الحبشة تحت نفوذها في معاهـدات لا تزال معمول بها . لقد اعترفت انكلترا في معاهدتي ١٨٩١و١٨٩٤ ان تـكون الاريتريا والصومال الايطالي وكل ما يكون الان الامبراطورية الحبشية تقريباً تحت نفوذ ايطاليا كما ان المعاهدة الثلاثية في ١٩٠٦ منحت لايطاليـا

في حالة انقسام الحبشة على نفسها الاراضي التي تـكون على شكل هلال الـكائنة ما بين الاريتريا والصـومال الايطالي والمـارة بجنوبي بحيرة تانا وغربي منطقة سكة حديد فرنسا . ان مصالح ايطاليا عـدا ما هو مصرح لها بالمعاهدات في الوقت الحاضر قليل نسبة . ولعل من اكـبر اسباب المعاداة بين ايطاليا والحبشة عـدم اكتراث الحبشة لمصالح ايطاليا وترك ايطاليا مرغمة كالمتفرج على الحبشة وكان ليس لها مصالح فيها عند منحها الامتيازات لغيرها من الدول واستخدامها المستشارين من أمم أخرى. وكان من الممكن تخفيف ما تشعر به ايطاليا من الغيظ على مثل هذه الحالة لو انها نجحت بأتفاقيتها مع الحبشة في ١٩٢٨ حول طريق السيارات، اذ لو ان هذا الطريق قد فتح لمركزت ايطاليا نفسها في الحبشة ، ولانتعشت التجارة التي تؤدي حتما الى رفاه مستعمرتها الاريتريا . هذا كل ما يمكننا أن نستخلصه من مصالح ايطاليا في الحبشة كما ينص عليه الحبر على الورق (أي المعاهدات) غير ان هنالك مصالح أخرى تدفع بأيطاليا الفاشيستية الى هـذه الحرب واساسها الحلم بتكوين امبراطورية روما القديمة . لقد قامت ايطاليا بنهضتها الحديثة على اساس أن تجعل بلادها قادرة على انتاج مايحتاج اليه الاهلون من البضائع وأن لا تكون متكلة على غيرها من الامم لسد حاجاتها ولاجل تحقيق هذه الفكرة فانها تحتاج الى : ١ ـ منفذ لنفوسها الذين يتزايدون بنسبة هائلة و ٢ ـ الى المواد الاولية وأهمها المعادن ومواد النسيج لتقوم عليهـا الصناعات المختلفـة المراد انشاؤهـا . ان ما لقيه الاوربيون (الانكليز والفرنسيون خاصة) من رفاه في المعيشة وثروة في الطبيعة في الاقسـام العالية من مقاطعة كينيا يذكر الطليـان دائما

بالنقص الموجود في مستعمرتيهم الارتيريا والصومال ويوحي اليهم الفكرة بأن هذا النقص لا يمكن ان يسد الا باستيلائهم على المقاطعات الحبشية الغنية . لقد جازفت ايطاليا برجالها واموالها الذين ارسلتهم الى شرق افريقيا استعدادا لتنفيذ مآربها . لقد ارسلت اول شحنة من الرجال في ١٧ شباط ومنذ هذا التاريخ الى ٦ تموز يقدر الجيش الذي مر بقنال السويس بـ ٧٥ الف جنـــدي و٢٩ الف عامـل . ان القواد الايطاليين يخمنون تجنيد ٤٠٠ جنـدي حتى تضمن ايطاليـا لنفسهـا الانتصار في الحبشة وتدل الاحصائيات الاخيرة على ان ايطاليا ارسلت ٦٠ ٪ من العدد المطلوب الى مستعمراتها الافريقية . ان الجيش الذي ارسل لحد ٦ آب ماعدا افراد القوة الجوية والسيارات يقدر بما يلي .

(١) سبع فرق من الجيش النظامي	١٠٥و٠٠٠ جندي
(٢) ست » » الفاشيست المشاة	٧٢و٠٠٠ »
سبعة كراديس من » »	٧و٠٠٠ »
(٣) الجيش الاهلي من الاريتريا	٣٠و٠٠٠ »
(٤) » » من الصومال	١٥و٠٠٠ »
(٥) عدد العمال على أقل تقدير	٣٠و٠٠٠ »
(٦) » الحامية الاستعمارية الدائمة	٨و٠٠٠ »
المجموع	٢٦٧و٠٠٠ جندي

لا شك ان تسفير مثل هذا الجيش الهائل واطعامه وامداده باللوازم الحربية والمعدات يكلف الخزينة الايطالية نفقات باهظة جدا . لقد صرح وزير مالية ايطـاليا في ١٨ ايار ان المبـادلغ التي انفقت على الحملة الى افريقيا لحد نهاية نيسان تقـدر بـ ٦٢٠ مليـون ليرة ايطالية ـ اي

حوالي اكثر من عشرة ملايين جنيه . وان الاستمرار على الصرف في هذه السنة (١٩٣٥) وفي سنة ١٩٣٦ سيكون نفقات غير اعتيادية . ولا نستطيع ان نشعر بثقل هذه النفقات أو نقدرها تماماً الآن لان ذلك يتوقف على تغير الحوادث . غير ان الحقيقة المعروفة انهذه المصاريف مضافة الى دين ايطاليا في الحرب العالمية تركت الميزانية الايطالية تئن تحت حمل ثقيل وان دافع الضريبة الذي يدفع كل هذه الاموال ينتظر بفارغ الصبر نتيجة هذه الحملة ويريد تعويضاً عن امواله التي يدفعها وتذهب الى افريقية .

ثالثا : أسباب النزاع

١ - قضيةوالوال :

لجنة الحدود الانكليزية الحبشية في تشرين الاول ١٩٣٤ : — لقد قلنا في معاهدة ايار ١٨٩٧ المعروفة بمعاهدة (رينيل رود) Rennel Rod اعطت الحبشة الحق لانكلترا بان يجوز لبعض القبائل الصومالية ان ترحل وتعبر الحدود الحبشية للحصول على المراعي والاستفادة من مياه بعض الآبار الراجعة الى قبيلة اوغادين . وطبقاً لهذه المعاهدة تشكلت لجنة حدود مكونة من انكليز وأحباش لمهمة تعيين الحدود ما بين الحبشة والصومال وتعيين مناطق الرعي في البلادين. وقد وصلت هذه اللجنة الى والوال في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٤ ووجدت قوة ايطالية مستولية على الآبار . وبمجرد مجيء اللجنة حلقت طيارة ايطالية فوق مخيمها وقامت بحركات مزعجة دلت على ان قائد القوة

الايطالية يحمل روحا غير سلمية ولا يريد الا الاساءة مما اساء رئيس اللجنة الانكليزي استياء عظيما واظهر اسفه الى الكابتن الحبشي (كيما روتا) Cimmaruta على عدم استطاعته الاستمرار على العمل من اجل ما قام به الطليان من اعتداء واضح على اللجنة وابدى رغبته في الرجوع الى ادو Ado باقرب فرصة لكي لاتتعقد المسألة على الحكومة الحبشية .

واقعة والوال في ٥ كانون الاول ١٩٣٤ : — رجع رئيس اللجنة الانكليزي وترك وراءه الحامية الحبشية ملازمة محلها لئلا تظهر اللجنة بمظهر المنهزم. وهناوقع الاصطدام بين القوة الايطالية والحبشية في ٥ كانون الاول ١٩٣٤ ولا يوجد في حينه شاهد عدل من غير الايطاليين والاحباش ليخبرنا بحق من كان المعتدي في هذا الاصطدام وقد كانت حجج الطرفين يناقض بعضها بعضاً (غير ان عصبة الامم قد توصلت في الاخير الى معرفة المعتدي وهو ايطاليا)

دعوى الحبشة : — تستغرب الحبشة من ادعاء ايطاليا بان والوال ليست ضمن الحدود الحبشية في حين انها ٢٠٠ ميل من ساحل البحر وداخل منطقة اوغادين الحبشية وان معاهدتي ١٨٩٧ و١٩٠٨ تضمان والوال بصراحة داخل الاراضي الحبشية

دعوى ايطاليا : — بناء على هذه الحقائق الراهنة ولما كانت ايطاليا لا تستطيع دحضها وحتى تبرر موقفها وحتى لا تعتبر معتدية لتجاوزها الحدود فقد ادعت : (١) — ان ايطاليا توطنت في هذه المنطقة منذ خمس سنين ولو كانت ملكا للحبشة لاعترضت على هذا الاستيطان

(٢) ان ايطاليا غير مرتاحة الى حالة الحدود بالنظر لما تشنه بعض قبائل حبشية من غارات بين آن وآخر على بعض رعاياها وقد وقعت حوادث

من هذا القبيل منها أن بعض رعايا الاحباش الفوضويين هاجموا القنصلية الايطالية في غوندار Gondar مما أدى الى اعتذار الحكومة الحبشية ودفع التعويضات اللازمة . هذا ما ادلت به ايطاليا الى عصبة الامم كقواعد لدعوها واضافت قائلة ان الحبشة قبل اشهر من حادثة والوال أرسلت قوة كبيرة الى هذه المنطقة وكان هذا العمل مشفوعاً بروح حربية . ودللوا على هذا حسب زعمهم بما عثروا عليه في معسكر الاحباش من اوراق تثبت ذلك . غير انه لم تعرف ماهية هذه الاوراق لحد الان . وقالوا علاوة على هذا ان القوة او الحامية التي رافقت الكولونيل كليفورد Clifford رئيس اللجنة كانت غير اعتيادية ولم تنسحب معه من الآبار الى أودو كما فعل . كما ان ايطاليا تمسكت بالنظرية القائلة بانه لا يمكن التحكيم في قضية حدود في حين ان الحدود نفسها لا توجد وليست معروفة وطالبت ايطاليا بعقاب الحبشة وتغريمها بالنظر للاسباب التي بينتها وحتى لا يفسح اي مجال لاية دولة ان تسترجع ما تظنه قسما من بلادها بحد السيف . لقد قامت صحف ايطاليا بكتابة المقالات الضافية للتدليل على ان والوال ايطالية وليست حبشية . وفي اثناء البحث حول الحدود وتعيين المعتدي تغيرت لهجة ايطاليا تماما ولم تعد تهتم بكل هذا بل تشبثت فجأة بحقها الاستعماري ووجوب توسعها وان الحبشة ليست جديرة بان تحكم نفسها بنفسها

٢ — محاولة حل النزاع بالطرق الدبلوماسية : لقد تبادلت المذكرات بين وزير خارجية الحبشة والقائم بأعمال المفوضية الايطالية في اديس ابابا على أثر حادثة والوال وكل منهما يعتبر الجهة الثانية هي المعتدية .

وقد طلبت الحكومة الحبشية لتعيين المعتدي لتشكيل لجنة تحكيم وفقا لمعاهدة ١٩٢٨ بينما تطلب الحكومة الايطالية الاعتذار من حاكم هرار الذي وقعت الحادثة في منطقته وتحية العلم الايطالي في والوال ومعاقبة الفاعلين ودفع عشرين الف جنيه تعويضات

الحبشة تحكم العصبة : لما رفضت ايطاليا فكرة التحكيم مدعية ان القضية لا تحتاج الى تحكيم وان الحبشة بالطبع وحتما هي المعتدية ابرقت الحبشة في ١٤ كانون الاول ١٩٣٤ الى العصبة قائلة ان الحبشة اضطرت الى ان تلفت نظر العصبة الى الاعتداء الايطالي الحديث وبعد ارسال الاحتجاجات والشكايات الى العصبة من قبل الطرفين واصرار ايطاليا على رفض التحكيم ابرقت الحبشة الى العصبة ثانية في ٣ كانون الثاني ١٩٣٥ مستنجدة بها عملا بالمادة ١١ من ميثاق العصبة

وحبا بعدم توسع النزاع ولئلا تكون هذه الحادثة سببا لتوتر علاقات عالمية فقد بذلت جهود من قبل بعض الدول للتأثير على الحبشة للموافقة على تأخير النظر في القضية في الوقت الحاضر والالتجاء الى التفاهم الشخصي بينها وبين ايطاليا . وعلى هذا الاساس اعلن في ١٩ كانون الثاني على ان الحكومتين وافقتا على اجراء التحكيم بينهما طبقا لمعاهدة ١٩٢٨ . وهكذا اجلت العصبة القضية الى الجلسة الثانية في ايار : ولكن الامور تعقدت بوقوع مصادمة اخرى في افدوب Afidub قرب والوال في ٢٩ كانون الثاني . وفي هذه الاثناء ارسلت ايطاليا في ١١ شباط حملة مكونة من ٣٠ الف جندي الى افريقيا .

تكوين منطقة حياد : ان المفاوضات على ما يظهر قد اصطدمت بمشكلة اساسية وهي ان الحبشة تطلب التحكيم حسب معاهدة ١٩٢٨

التي تقضي بحل مشكلة الحدود برمتها في حين ان ايطاليا تطلب بان تحصر اللجنة بحثها في حادثة والوال فقط وحلا لهذه المشكلة اقترح ان تكون منطقة والوال حيادية تسهيلا لعمل اللجنة وظهرت مشكلة اخرى وهي ان ايطاليا تعارض الحبشة بان يكون ممثلوها في اللجنة من امم اخرى ولا توافق ان يكون احدهما سويدياً والآخر بلجيكياً . واخيراً وبعد أن سحبت هذين العضوين حكومتاهما وفي ٤ آذار ١٩٣٥ تمكن الطرفان من تعيين منطقة حيادية في مقاطعة (غيرلوغولي – والوال – افدوب) .

الحبشة تحكم العصبة وتستنجد بها ثانية : — ان التباعد الكبير بين آراء ايطاليا والحبشة حول القضية وحول النقاط التي يجب البحث عنها هو عقبة في سبيل استمرار المفاوضات . وقد اضطرت الحبشة ان تستنجد بالعصبة ثانية حسب المادة ١٥ والعاشرة من ميثاق العصبة مستندة على ما تقوم به الحكومة الايطالية من ارسال الحملات الحربية بصورة مستمرة وحشدها على الحدود الحبشية ، وقد حذرت الحبشة العصبة بان الدلائل تدل على ان النزاع سيتطور وربما يؤدي الى انفجار كبير . وقد بذلت الجهود هذه المرة ايضاً لئلا تقدم شكوى الحبشة امام مجلس العصبة وفي ١٢ نيسان (وكان قد انعقد مؤتمر ستريز Stresa) أتفقت الدولتان على تعيين لجنة تحكيم بمقتضى معاهدة ١٩٢٨ وبعد هذا الاتفاق صرحت العصبة بانها لن تنظر في شكوى الحبشة الا في اجتماعها الاعتيادي في ايار .

تعيين المحكمين : — لقد بقي الاختلاف الجوهري مستمراً ما بين الدولتين حول أصل موضوع التحكيم وظهر اختلاف آخر مباشر حول

جنسية المحكمين . لقد تبودلت المذكرات التمهيدية بمقتضى معاهدة ١٩٢٨ واتفق ان تكون اللجنة مكونة من اربعة أعضاء عضوان من كل طرف . ولم يحدد جنس هؤلاء المحكمين . فعند التشكيل أصرت ايطاليا على ان يكون مندوبا الحبشة احباشاً وليس من امة اخرى ولما كانت الجرائد الايطالية باجمعها تشن الغارة على الحبشة وتنعتها بالامة المتوحشة فقد استفادت من هذا الحادث وشنعت بالحبشة وقالت ان عدم استطاعتها ان ترسل ممثلين سياسيين مهذبين عنها لغرض بلادهم لهو دليل ساطع على مبلغ تأخرها وجهل ابنائها . وبالرغم من هذا كله فقد اخبرت الحبشة في ١٧ ايار الحكومة الايطالية ان ممثليها هما مسيو دولا براديل de le Pradelle الفرنسي (وهو برفسور القانوني في جامعة باريس وكان عضواً في اللجنة التي وضعت قانون المحكمة العدلية الدولية في Haque ١٩٢٠ ونائب رئيس اتحاد القانون الدولي ومدير كثير من المجلات والجرائد والمطبوعات التي تتعلق بالمسائل الدولية) ومستر Pittman B. Potter الامريكي (وكان سابقاً برفسور علم السياسة في جامعة ويسكنسون والآن بروفسور في جامعة جنيفا) وعينت كذلك ايطاليا عضوين عنها . وفي هذه الاثناء كان كل من الطرفين يتسلح وكل يتهم الآخر بانه يستعد للحرب . وكانت الجرائد الايطالية تتهم المانيا واسويسرة وبريطانيا بانها تجهز الحبشة بالاسلحة . اما الحبشة فقد ارسلت مذكرة أخرى الى العصبة في ١٣ ايار تطلب القيام بواجبها للمحافظة على وحدة واستقلال البلاد الحبشية من التعدي الايطالي الواضح .

النزاع امام مجلس العصبة : — لقد شعرت العصبة بانه لا فائدة من تأخير النظر في النزاع وليس هنالك من امل في اتفاق الدولتين وحل

النزاع بينهما ، دعت الحكومـة الانـكليزية سفيرها في روما السر Eric Drummond حتى يوقفهـا على حقيقـة الامر في روما وآراء موسوليني ونواياه . وحتى يستطيـع المستر ايدن ان يقوم بمهمتـه في جنيف على ضوء هذه المعلومات . وقد شعر موسوليني بنوايا انـكلترا من دعوة سفيرها وعلى هذا الاساس القى خطابا في ٢٤ ايار جاء فيه : «ليعلم كل فرد داخل ايطاليا او خارجها علماً جازماً وبدون ان يخدع نفسه باي شكل كان باننا جداً حذرين عند تصميمنا على القيام بامر غير اننا اذا ما عزمنا فلا شيء يثنينا عن هذا العزم . ان حياة سنة واحدة كحياة الاسد خير من حياة ١٠٠ سنة كحياة الخروف » ؛ ولـكنه اعلن في اليوم الثاني ان العصبة استطاعت ان توفق بين الدولتين موقتاً . وقـد اتى هذا التوفيق بجهود المستر ايدن والمسيو لفال .

حل ٢٥ ايار ١٩٣٥ : — ان النتيجة التي حصل عليها في ٢٥ ايار هي ان ايطاليا اعترفت بموقف العصبة في النزاع وسحبت اعتراضها حول عنصرية المفاوضين الاحباش . كما انه جاء في هذا الحل ايضاً انه اذا لم يتمكن المفاوضون الاربعة حتى تاريخ ٢٥ تموز من حـل النزاع او من انتخاب العضو الخامس او من تمديد الوقت فيجب ان تجتمع العصبة : واذا حصل الاتفاق على انتخاب العضو الخامس ولـكن النزاع لم يحل حتى تاريخ ٢٥ آب فمجلس العصبـة يجب ان يجتمع بعد هذا التاريخ . وقـد اجتمعت اللجنة اجتماعا تمهيديا في ميلان في ٦ و ٧ حزيران واجل الاجتماع على ان ينعقـد في ٢٥ حزيران في مدينة شفينتكن ، وبالرغم من جهود العصبة لايجاد حل سلمي فقد كانت المصادمات على الحدود وتسلح الطرفين قائمة على قدم وساق . وفي ٢٠ تموز قـدمت الحبشة مذكرة الى العصبـة

محتجة على التعدى الايطالي العنيف المتواصل وتطلب منها ان ترسل لجنة محايدة تتحمل الحبشة وحدها النفقات لتقف العصبة على حقيقة مايدور على الحدود ، وفي هذه الاثناء وفي وسط الحملة الشعواء التي قادها السنيور غيدا Gayda ضد نوايا انكلترا وتدخلها في النزاع كانت انكلترا تبذل جهودها لايجاد حل سلمي . لقد سافر المستر ايدن الى روما بمناسبة الاتفاقية البحرية بين انكلترا والمانيا وقد اغتنم فرصة وجوده في روما وتحدث الى السنيور موسوليني طويلا ومراراً في ٢٤و٢٥ حزيران وعندما سأل المستر ايدن في البرلمان عن مهمته في روما اجاب «ان اهم نقطة دار البحث حولها بيني وبين موسوليني هي اننا أردنا ان نتأكد كيف تكون وضعية موسوليني فيما اذا ارادت بريطانيا ان تتنازل الى ايطاليا عن ميناء زيلا Zeila مع ممر في الصومال البريطاني وعلى ان تمنح الحبشة لها امتيازات اقتصادية غير ان موسوليني رفض ان يكون هذا الاقتراح قاعدة لحل النزاع »وقد سبب اقتراح ايدن ضجة كبرى في البرلمان قادها المستر اتلي Atlee زعيم العمال .

أستنجدت الحبشة بالولايات المتحدة الامبركية في ٤ تموز وطلبت منها ان تلفت نظر ايطاليا الى ميثاق بريان وكيلوغ ، غير ان الحكومة الامبركية أجابت الامبراطور بما يترتب عليها من محافظة السلام ولم تتعرض الى طلب الحبشة مباشرة وفي اليوم التالي انذرت الامبركيين في الحبشة البالغ عددهم ١٢٥ نسمة بالاستعداد للسفر عند الايعاز لهم بذلك

لجنة التحكيم : — لقد اجتمعت لجنة التحكيم كما كان مقرراً سابقاً في مدينة شيفننكن في ٢٥ حزيران . وفي ١٩ تموز أجلت اجتماعاتها الى مدة غير معينة . وكان السبب في حبوط هذه المساعي الاختلاف

الجوهري بين الحكومتين على أصل النزاع والذي بدأ منذ الايام الاولى في سير القضية : تطلب الحبشة البحث والتحقيق حول جميع الظروف والمسائل المحيطة المسببة للنزاع بينما ترفض ايطاليا هذا الطلب وتقول ان مثل هذا التحقيق لا يمكن ان يكون مالم تحسم قضية واقعة والوال. وهذا الذي حدا باعضاء اللجنة الايطاليين الى رفض تقرير بروفسور جيز الفرنسي وممثل الحبشة القانوني حول اثبات كون منطقة والوال واقعة في حدود الحبشة. لقد طلب ممثلا الحبشة تعيين عضو خامس لكي يمكن العمل إذ ان الاقتراحات لا يمكن ان يصوت عليها بدونه غير ان المندوبين الايطاليين رفضوا هذا الطلب واقترحا تأخير الاجتماعات الى ٢٠ تموز بحجة فسح المجال الكافي للحكومتين لتستطيعا درس القضية بشكل اصح وادق . وفي مذكرات ١٤ تموز و٢٤ منه ابدت الحكومة الحبشية وكذلك الايطالية الرغبة في استئناف المفاوضات بواسطة لجنة التحكيم غير ان الحبشة اقتنعت من ان مثل هذه المماطلات واصرار ايطاليا على عدم تعيين عضو خامس يقصد منه احباط المفاوضات ومما يعطي الوقت الكافي لايطاليا لقيامها بالاستعدادات العسكرية اللازمة . ومن اجل هذا طلبت الحبشة في ٢٤ تموز اجتماع مجلس العصبة حسب قرارها المتخذ في ٢٥ ايار . وعلى هذا الاساس ابرقت سكرتارية العصبة في جنيف في ٧ تموز تدعو اعضاء المجلس الى الاجتماع في ٣١ تموز . وقد اعلن في اليوم الثاني جواب الحبشة وايطالية على هذه الدعوة ومما جاء في جواب الحبشة « ان الحبشة تترك القضية لمجلس العصبة وان الامر متوقف عليه في تعيين تبعة النزاع الحاصل بين وجهتي نظر لجنة التحكيم » . واما جواب ايطاليا وكان امضاه السنيور موسوليني فقد علق فيه اشتراك ايطاليا

فى اجتماع العصبة على شرطين : —

(١) ان تجيب الحبشـة على المذكرتين الايطاليتين المؤرختين في ١٤ تموز و ٢٣ منه .

(٢) ان يتناول المجلس في بحثه الطرق التي تساعد لجنة التحكيم على القيـام بمهمتها فقط . واذا تنـاول البحث غير ما طلبت ايطاليا فيكون لها حينئذ ملاحظات فى الموضوع

وبعـد ان اجابت الحبشة طلب ايطـاليا حسب الشرط الاول في ٢٧ تموز اشترك البارون الوازي ممثل ايطاليا في اجتماع العصبة في ٣١ منه بدون تأخير . وقد كان الاجتماع في اول يوم كمقدمة الى مفاوضات متواصلة وصعبة دامت مدة ثلاثة ايام كان يقودها المسيو لفال والمستر ايدن للوصول الى قاعدة للبحث تكون مقبولة لدى الطرفين وقد كان الغرض منها (١) ان تستأنف لجنة التحكيم اعمالها بعد تعيين عضو خامس (٢) اذا لم تنجح اللجنة بتقـديم تقريرها حـول النزاع الى تاريخ معين فبحث مجلس العصبة في النزاع الايطالي الحبشي من حيث العموم (٣) اذا كان ممكناً ربط الطرفان بتعهدات تمنعهما من استعمال القوة (٤ . اذا كان لازماً تمهـد الطرق لمفـاوضات بين الدول الثلاث حسب معاهدة ١٩٠٦ ويحضرها ممثل عن الحبشة .

وقد اجاب موسوليني على اقتراح لفال ايدن الذى وصل العصبة في ٢ آب بالرفض الأمر الذي سبب أن يصرف ذلك اليوم كله بالمفاوضات ما بينهم ومع روما تلفونياً وأنهمك الاثنان بتدبير خطة أخرى . وقد أتفق على هذه الخطة نهائياً بقرارين صدراً من العصبة وتصريح من قبل الدول الثلاث . واول هذين القرارين قبلته العصبة بالاجماع في ٣ آب

وكان يدور حول أستئناف لجنة التحكيم اعمالها وتقديم تقريرها في ١ أيلول ١٩٣٥ • وكان نص القرار الذي قد حل فيه نقطتي الاختلاف بين الدولتين كما يلي : — (١) على لجنة التحكيم أن لا تبحث في ملكية منطقة والوال وهل هي حبشية أو ايطالية بل عليها أن تقصر بحثها على أمور النزاع الأخرى المتعلقة بحادثة والوال. (٢) على اعضاء لجنة التحكيم الاربعة أن يتفقوا حول تعيين العضو الخامس بدون تأخير (وقد عين فيما بعد المسيو نيكولوس پوليتس وزير اليونان المفوض في باريس) . وقد اخذت الأولى بنظر الاعتبار نزولا عند رغبة ايطاليا والثانية تنفيذاً لرغبة الحبشة .

أما القرار الثاني الذي لم يوقع عليه المندوب الايطالي فهو : —

« لا بد لمجلس العصبة الاجتماع في اي ظرف من الظروف في ١٤ ايلول لفحص العلاقات الايطالية الحبشية من جميع النواحي . »

وكان القرار ناقصاً اذ انه (١) لم يتخذ اى تدابير خاصة حول منع استعمال السلاح وان كان قد اشير الى هذه النقطة بعبارة ضرورة التوفيق والتحكيم حسب الشروط التى تنص عليها المادة الخامسة من معاهدة ١٩٢٨ (٢) لم يذكر الاقتراح القائل بضرورة المفاوضات بين الدول الثلاث وذلك تنفيذاً لرغبة ايطاليا التى أرادت ان تدور هذه المفاوضات بدون اشراف العصبة وعدم قبول الحبشة عضواً فيها اذ ان قبولها يعني فسح المجال لها للمساواة بايطاليا .

ولأجل التغلب على هذه الصعوبة اذيع قبيل افتتاح جلسة العصبة البيان التالي : « اجتمع ممثلوا بريطانيا وفرنسه وايطاليا في جنيف في واحد آب ١٩٣٥ بالنظر الى الحقيقة ان الدول الثلاث الموقعين على

المعاهدة الثلاثية المنعقـدة في ٣٠ كانون الاول ١٩٠٦ الخاصـة بالحبشة مستعدة للمفاوضة ما بينها للوصول الى حل الاختـلافات القائمـة بين ايطاليا والحبشه وتوافق على فتح هذه المفاوضات باقرب فرصه ممكنة

اجتماع الدول الثلاث : — اجتمع ممثلوا الدول الثلاث في باريس في ١٦ آب ١٩٣٥ . اما العقبات التي اعترضت اعمالهم فقد افصح عنها وزراء الخارجية لهذه الدول الثلاث .

ان وزير خارجيه بريطانيا في كلامـه في مجلس العموم البريطاني في واحد آب ١٩٣٥ أكد للنواب بقوله :

لا تسبقنا دولة ونحن قبل كل احد نتمسك بمبادئ العصبه وننفذ ما تقتضيه المعاهدات . . . سيكون تأثير الحرب بين ايطاليـا والحبشه في نظرنا سيئاً جداً ، ولا يفرق كثيراً اتدوم الحرب مدة طويلة ام قصيرة تتغلب فيها ايطاليا أو الحبشه فان تأثرها سيضر ضـرراً بليغاً بالعصبه ومبادئها . ان الجهود التي بذلت بعـد الحرب العامـه لاحـلال التفاهم الديبلوماسي محل الحروب ستصبح عبثاً وتذهب سدى . ستشاهـد بلاد العالم الصغيرة ان الاسس التي بنت عليها محافظه كيانها ستتداعى وتنهار . ان المعاهدات التي عقدت بعد جهود عظيمه ومشقات كبيرة حفظاً للسلام الاوربي تظهر كأنها قصاصات ورق ، ان هـذه الامور هي التي تحملنا على الكفاح بكل قوانا للمحافظه على حياة العصبه . نحن لسنا نشعر بحاجه الطليان الى التوسع وان تصرفاتنا منذ الحرب العامه تبرهن على عملنا وليس بالكلمات فقط على اننا نشعر بهذه الحاجه ، اذا كان لدى الحكومه الايطاليه شكاو ضد الحكومه الحبشيه فلتظهرها ولكن بالطريقه المقبولة المألوفه ولتقدمها الى مجلس العصبه وسترى ان المجلس ينظر فيها

بدون تحيز ولا محاباة .. ان هذه امور يمكن حلها بدون الالتجاء الى الحرب » .

وقد تكلم المسيو لافال في مجلس العصبة بنفس اللهجة فقد قال :

« لقد قمنا بقسط من الواجب ولكن الحالة لا تزال خطرة جداً وكممثل عن فرنسة لم انته من واجبي بعد ، سأكافح بكل قواي وسأستعمل كل طريقة ضمن سلطتي مفتشاً عن السبيل الممكنة لايجاد الحل المرضي ، وكمخلص لميثاق العصبة وملبي نداء بلادي فقد وضعت نفسي لانجاز هذه المهمة » .

غير ان مقالة نشرت بدون توقيع في جريدة popolo d'Italia في ٣١ تموز تختلف بروحها عما صرح به هور ولفال ويظن ان كاتبها السنيور موسوليني نفسه وقد جاء فيها : —

« الرقيق موجود في الحبشة ... لكن ايطاليا تريد العمل ليس لغاية تحرير العبيد ، وان القضية العنصرية ليست بقضية ذي بال تتخذ منها قاعدة للعمل حتى ان نشر المدنية ليس من الغايات التي ترمي اليها ايطاليا في استيلائها على الحبشة . ان القضية الاساسية — القضية التي لا جواب لها مطلقاً تنحصر في امرين : (١) حاجة الشعب الايطالي الجوهرية — حاجته الى التوسع (٢) ضمان مصالح ايطاليا في شرقي افريقيا . واول هذين الامرين اعترف به وزير خارجية بريطانيا نفسه اما الثاني فهو امر مفروغ منه ايضاً . ان حل القضية لا يكون الا بوجه عام فكل توسع او حماية يجب ان تدعم باجراءات عسكرية ، ايطاليا هي الحكم الوحيد في أمر ضمانها في شرقي افريقيا وبتعبير عسكري آخر ان المشكلة

الايطاليه" الحبشيه" واضحه" وتفصح عن نفسها ؛ ان هـذه المشكله" لا يمكن ان تحل الا بطريق واحد مع جنيف او بدون جنيف »

ان هذه الاوليات لم تبشر بنجاح المساعي السلميـه" وقـد تحققت المخاوف عندما حبطت المفاوضات في ١٨ آب ووصل المندوبون الايطاليون الى باريس بدون ان يزودوا بأيه" سلطة وكان تقـدم المفاوضات بطيئاً جداً بالنظر الى اضطرارهم الى احالة كل نقطه" الى روما تلفونياً ، ولم يعبروا تماماً عن مطاليبهم وكل ما ارادوه هو تنفيذ مقتضيات معاهـدة ١٩٠٦ والمفاوضـات الانـكليزيه" الايطاليه" في ١٩٢٥ التي تؤدي الى وضع الحبشه" تحت الحمايه" الايطالية .

وفي ١٦ آب بعد ان دامت المفاوضات طيلة هذا اليوم قدم مندوبا انكلترا وفرنسا مقترحات الى روما تنطوي على آخر ما تستطيع منحه هاتان الدولتان من امتيازات لايطاليا في الحبشه ، وقد طلب من الحـكومة الايطالية ان تتقبل هذه المقترحات كقاعدة للمفاوضات . لقد جاء فيها ان الحكومتين الانـكليزية والفرنسية تستعملان نفوذهمـا لدى الحكومة الحبشية لمنح ايطالية مشاريع اقتصادية واسعة ، وكذلك تشتركان سوية في المفاوضة مع الحكومة الحبشية وحملها على القيام بالتدابير اللازمـة لمنع وقوع أي تعد على حدود المستعمرات الايطالية وا الرعايا الايطاليين الذين يستوطنون الحبشة يـكونون في مأمن ، وقد اضـافنا كذلك انه عندما تطلب الحبشة مساعدة العصبة في القضايا الاقتصاديـة فتجاب هذه المساعدة بشكل تعاوني تشترك فيه انكلتره وفرنسا وايطالية واقترحنا كذلك بضرورة عقد معاهدة جديدة تحل محل باقي الاتفاقيات وتشترك فيها انكلترا وفرنسا وايطاليا والحبشه .

ان منح هذه الامتيازات لايطاليا كان مقيداً بشروط ثلاثة وهي :.

(١) يجب ان لا يمس كيان البلاد السياسي ووحدتها (٢) يتوقف قبول مشروع الاستيطان بشكله النهائي على ارادة الحبشة (٣) يجب ان يوافق على كل هذا مجلس العصبة ٠

لم تلق باريس في ١٧ آب جوابا على هذه المقترحات وقد اتصل بالاعضاء ان السنيور موسوليني ترك روما ليستعرض قطعات الجيش في المقاطعات الايطالية وقد وصل الجواب باريس في ١٨ آب وكان كلمة (لا) . وقد اسقط هذا الجواب في ايدي المفاوضين واضطرهم الى اعلان تأجيل المفاوضات الى وقت آخر ٠٠٠

عبد المجيد محمود

بكلوريوس علوم من جامعة كالفورنيا
واستاذ علوم من جامعة كورنيل

الاستاذ احمد حامد الصراف :

الغلاة
أو
عباد علي بن ابي طالب

أبو تراب حيدرة الكرار الامام علي بن ابي طالب ألمع من نبغ من اصحاب النبي في الصدر الاول وأشهر رجل كثرت اخباره في كتب التاريخ .

وقد روى لنا التاريخ العربي عن هذه الشخصية النادرة عجائب الاخبار وغرائب الاحاديث ويدل ما نقله المؤرخون على انه ما اختلف الناس في شخص مثل اختلافهم فيه . فقد ذكرت كتب التواريخ بان اعداءه من الامويين كانوا يأمرون شعراءهم ودعاتهم وخطباءهم والملتفين حولهم لأغراض شتى ان يعملوا جهد طاقتهم للنيل من سمعته والحط من كرامته . وقد اغدقوا على الشعراء والخطباء والدعاة الاموال الطائلة وحرضوهم على سبه فاوسعه اولئك الدعاة سباباً وقذعاً على المنابر زمناً طويلا .

ومن جهة اخرى يروي لنا الكتبة والمؤرخون بأن المحبين الموالين من شيعته قد غالوا في حبه وتقديسه غلواً عظيما . فقد نقل لنا العلامة الشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل بان عبدالله بن سبا قال يوماً لعلي (انت انت) اي انت الآله فنفاه علي الى المدائن وكان يزعم ان



الاستاذ احمد حامد الصراف

علياً لم يقتل وفيه الجزء الآلهي ولا يجوز ان يستولى عليه . وهو الذي يأتي في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وانه سينزل بعد ذلك الى الارض فيملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً . وقد كثر القائلون بالوهيته في حياته حتى اضطر الامام الى ابادتهم فاحرقهم بالنار . وبرغم السيف الذي قطع رؤوسهم والنار التي احرقت اجسادهم فقد بقيت منهم جماعات تعتقد الوهية علي ومحمد معاً او علي وحده كالسبئية والذمية والعينية والميمية وعقائدهم واخبارهم مسطورة في كتب الملل والنحل .

لقد حدث كل هذا التناقض الغريب في حياته وقد ظل النزاع قائماً بين الباطل والحق والبغض والحب في شخصية الامام بين اعدائه ومنكري فضله وبين شيعته ومواليه اعواماً طويلة وبرغم كل الوسائل التي توسل بها مبغضوه للنيل منه فان الحق محق الباطل في الاخير وتغلب الحب على البغض وايقن النـاس بان سب علي سب العـدل والاخلاص وان شتمه ضلال ولؤم . ولما تولى الامام العادل عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر السفهاء ان يتركوا هـذا المنكر الشنيع والضـلال الممقوت وبذلك زال السب وهدأت المنابر ونجت من الهزات العنيفة التي كان يحدثها الدعاة فوقها بشتم يعسوب المؤمنين وقدوة المسلمين وأعجوبة الدهر .

ان العداوات والضغائن والاغراض السياسية وغيرها من الاسباب هي التي ولدت هذا الافراط والتفريط وليس بمنكور ان الذين امروا الناس ان يسبوه او الذين سبوه فعلا كانوا موتورين منه اذ قد سبق لعلي بن ابي طالب ان جدع انوف اجدادهم وآبائهم واخوانهم في كثير من المعامع التي وقعت في عهد الدعوة فقد علا بسـيفه هاماتهم فاورده الدم وترك سروات قريش صرعى تحت بطون الـكواكب يعبث باشلائها الوحش في

القليب فكثرت الحزازات في القلوب وتراكم الحقد في الصدور ونشأت دمامل البغضاء في الافئدة الى ان انفجرت في وقعة عثمان بن عفان الخليفة الشهيد .

* * *

ومن يتتبع سيرة علي تتبع منصف لا تشوب قلبه شائبة التعصب والتحزب ويدرس حياته بالعين المجردة من كل غرض ويتدبر كلماته ويقرأ خطبه ورسائله ووصاياه يعتقد بلا ريب ان هذا الرجل النبيل كان المثل الاعلى في الاخلاص لله ولشريعة بن عمه والمقياس الاسمى في الايمان والعدل والانصاف وصدق اللهجة ونقاوة السريرة وانه كان الشريف الكبير الروح الذي يحمل بين جنبيه أنبل نفس وأطهر قلب فياض بالرحمة والحكمة .

ان هذه الصفات العالية والسجايا الرفيعة ولدت في قلوب شيعته ومواليه حباً واحتراماً عظيمين وكان كلما امعن اعداؤه في سبه فابلهم احباؤه بالثناء عليه ولجوا في مديحه حتى اصبح حب علي وتقديسه وموالاته والتبريء من أعدائه من الفرائض فورث الاحفاد عن الآباء والاجداد ذلك الحب حتى كاد ان يكون بمثابة الغريزة الانسانية والطبيعة البشرية بل صار قوت الروح وطعام النفس وقد ادرك الامام الاكبر هذا الامر في حياته فقال « هلك فيّ اثنان محب غال وعدو قال » .

وقد بقي هذا الغرام بل الافتتان والهيام بشخص علي الى يومنا هذا ومن يهبط مدينة سكانها من الشيعة ويخترق شوارعها واسواقها ويغشى مجالسها ومحافلها ويحضر اعراسها ومآتمها فانه لا يسمع الا اسم « علي »

تنطق به افواه المخلصين له اخلاصاً يفوق حد الوصف .

* * *

أسباب الغلو

لا مشاحة في ان البحث في علة الغلو وسببه وتعليل ذلك يكلف الباحث وقتاً طويلا هـذا فضلا عن ان استقصاء هذا الموضوع يستلزم الصبر والجلد وحيث ان ما لا يدرك كله لا يترك كله فاني اذكر بعض الاسباب التي تلوح لي انها كانت سبب المغالاة فيه واظنها تنحصر في الأسباب الآتية : —

١— قرابته من رسول الله .

٢— اقوال رسول الله فيه وانفراده وحده بالصفات التي نعتها به صاحب الشريعة .

٣— شجاعته .

٤— صلابته ايمانه وقوة عقيدته .

٥— عدله ونزاهته وصدق لهجته ونقاوة ضميره .

٦— خطبه ورسائله وكلماته التي لا يسمو اليها غير القرآن .

٧— كلامه في المغيبات .

كل هذه وغيرها من الاعتبارات هي التي اوجدت الاعجاب المقرون بالاحترام لشخصه وكانت شخصيته اللامعة تثير ذلك الاعجاب وتقوى الاحترام وعلى مرور الايام استحال الاعجاب به حباً كحب النـاس لأنفسهم وهو الحب الذي ليس فوقه شيء وفي الاخير كان ذلك الحب

غراماً فافتتناناً فهياماً فشيئاً يشبه العبـادة وهو الغلو الذي نبحث فيه .

* * *

ومن مظاهر الحب والولاء لعلي نرى ان اكثر سكان كربلاء لايعتبرون الزفاف ميموناً ومقروناً بالسعادة الا اذا انشد المحتفلون في ليلة زفاف العريس النشيد المشهور الذي يستظهره كل محب له امام المحتفل بزفافه وهو :—

حب علي بن ابي طـالب   احلى من الشهدة للشارب
لو فتشوا قلبي لالقوا به   سطرين قد خطا بلا كاتب
العدل والتوحيد في جانب   وحب آل البيت في جانب

* * *

والقسم بشخص الامام علي بن أبي طالب من الايمان المغلظة العظيمه والذي يتجرأ ان يقسم كاذباً بالتبرىء من ولاية علي يعتبر من شر خلق الله جديراً بالمقت مستحقاً لعذاب الله ويعتبر الشيعة « يوم غدير خم » عيداً عظيما فيحتفلون بذكرى ذلك اليوم احتفالا جيـلا لا يقل روعة وجلالا عن الاحتفال في يوم ولادته . وقد شرفني الله فحباني حظـا وصبراً لتتبع سيرة ذلك الحـكيم العالي فاطلعت على كثيراً من الكتب التي حوت هذا البحث وقرأت شعر الغلاة ودرست مدائحهم وقصائدهم فوجدت افراطا وتفريطا في الاعتقـاد بذاته الشريفـة الا الشعية الاصولية الامامية فانهم وسط لا يغالون وتتلخص عقيدتهم فيه بانه وصي رسول الله ووارث علمه وان هنالك نصوصاً بخلافته من بعـده

وانه ممن تحلى بالعلم والزهد واحسن بلاء في الاسلام . وقد تلوت على كثير من فضلائهم اقوال الغلاة واشعارهم فلم ار منهم من رغب في تلكم الاقوال والاشعار وانما رأيت اكثرهم يستغفر الله ويتبرأ من هذه العقائد .

* * *

وقدمنا بان الامام كان قد اباد الذين ادعوا بالوهيته في حياته واولهم « عبد الله بن سبا » ذلك اليهودي الاصل الذي لم نعثر على ترجمته في كتب الملل والنحل ولسنا ندري اكان ادعاؤه بالوهية علي اثر اعتقاد صحيح ام كان خبث ماكر . بيد ان الذي يلوح لي ان عبد الله بن سبا كان جادا في دعواه لانه عند ما قذف في النار قال : « الان ايقنت انك الاله لانه لا يعذب بالنار الا الله » . ولو كان الرجل غير مؤمن بعقيدته لما جاد بنفسه وطابت روحه اللهيب الاحمر . وقد انجب حب علي فرقا اخرى من المغالين كالذمية والعينية والميمية والبكتاشية والحروفية والعلوية والنصيرية والقزلباشية والصارلية والشبك وغيرهم ممن لم اطلع عليهم بعد ولم يخل عصر من العصور من فرقة جديدة يتجلى رأيها بالغلو فيه . وفي القرن الثالث عشر الهجري ظهرت جماعة الشيخية وكان زعيمها الشيخ احمد زين الدين الاحسائي من المغالين فقد زعم ان عليا خلق مروان بن الحكم . فقد روى حديثا في الرسالة القطيفية عن جابر بن عبد الله هذه عبارته « ان مروان الحكم صعد في خلافته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب وسب عليا عليه السلام فخرجت من المقبر الشريف يد كل من حضر عرف انها يد رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب عليها يا عدو الله اكفرت بالذي خلقك من

تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا هو والله علي بن ابي طالب امير المؤمنين » ؟ وقد ورث تلميذه السيد كاظم الرشتي عقائد شيخه وانفرد اخيرا بآراء نشرها بين النـاس واستطاع بها تأسيس فرقته المسماة بالكشفية وكان السيد كاظم اشد غلوا من استاذه ويكفي ان انقل اليكم فقرة من كتابه شرح القصيدة قال « ومحمد ظهر بالنبوة والنبوة ظاهر الولاية وعلي ظاهر الولاية الظاهرة بالنبوة . ولذا كان جبريل اذا اراد ان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ما يأتيه الا بامر علي واذنه »

وقد ادعى بأن عليـا علم علمه للنبي وفي كتابه شرح القصيدة من الخرافات والسخافات والمزخرفات ما يضحك الثاكل والثكلى .

وقد ظهر من هـذه الفرق خصوصا من المتأخرين شعراء بلغاء صرحوا في قصائدهم بربوبيته صراحة مافيها لبس ولا ابهام وها اني اتلو عليكم طرفا من اشعار الغلاة باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية .

قال احدهم :

علي بشطر صفات الاله حبيت وفيك يدور الفلك
ولمـا اراد الاله المثـال لنفي المثيل له مثلك
وفي عالم الذر قبل الوجود اقول بلى الله قد اهلك
وعلمت جبريل رد الجواب ولولاك في بحر قهر هلك
لقد كنت علة كل الورى من الانس والجن حتى الملك
ولو لا الغلو لـكنت اقول جميع صفات المهيمن لك

* * *

وقال الاخر :

يهنى الغري فقد تضمن علة الايجاد والسبب الذي لا ينقطع

فيك انطوى هود لادم يقتفي ولصالح فيك ابن متى يتبع
فيك الصراط المستقيم وآية الدين المبين ومن اليه المرجع
يامن تسبح باسمه الاملاك في افلاكها واذا دعاها تسرع
سخرت املاك السماء وشمسها منقادة لك ما تغيب وتطلع
لا غرو ان ردت اليك فانما قد ردها قدماً بسرك يوشع
واحطت علماً بالغيوب وانما للرسل منك علومها تتفرع

* * *

وقال احدهم :

فكأنني بك والخلائق كلهم خرس وما في الحشر غيرك ناطق
من قلت فيه خذوه عجل اخذه لم ينتظر ما ذا يقول الخالق

* * *

وقال الآخر :

سيد الاوصياء مولى البرايا عروة الدين صفوة الخلاق
مهبط الوحي معدن العلم والافضال لا بل مقدر الارزاق
بدر افق الكمال شمس المعالي غيث سحب النوال ليث التلاقي

ومنها :

حكمه العدل في القضايا ولكنه جائر في نفوس اهل الشقاق
عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه حساب ذر دقاق
حاضر عند علمه كل شيء فطوال الدهور مثل فواق

* * *

واني اروي لكم بعض القصائد والرباعيات التي التقطتها من افواه

الدراويش الغلاة قال احدهم : —

گرنبي بودي وجودت برهمه عالم سبب
ازازل حواسترون بودي وآدم عزب

لو لم يكن وجودك وسبب جميع هذا العالم لـكانت حوا تبقي في الازل عاقراً وآدم عزباً .

وقال الآخر :

من اگر خداى ندانمت   متحيرم كچه خوانمت
من اگر خداى بخوانمت   توبرى شوى واباكنى

ان انا لم اقل انك اله فاني حائر ما ذا اقول فيك وان انا قلت انك اله فانك تتبرأ مني وتأبى على ذلك .

* * *

ولآخر :

توئى آن نقطهٔ بالاى فآء فوق ايديهم
كه دركاه تنزل تحت بسم الله راباثى

انت تلك النقطة التي فوق « الفاء » الموضوعة « فوق ايديهم » وفي حال التنزل فانت (الباء) تحت بسم الله .

* * *

ولاخر :

آغاز محمد استوانجام عليست   آشوب محمد است وآرام عليست
آيات خدا زكام بيغمبر ماست   اى دوست بدان كه سر بيغام عليست

محمد البداءة وعلي النهاية محمد الضوضاء وعلي السكينة . ان آيات الله

من بشارة نبينا فاعلم ايها الصديق ان سر البشارة علي .

* * *

ولآخر :

اسد الله در وجود آمد در پس پرده هرچه بود آمد

جاء اسد الله الى الوجود . لقد ظهر كل ما كان وراء الستار .

* * *

ولآخر :

اى كه كفتي فمن يمت يرنى جان فداى حديث دلجويت

كاش روزي هزار مرتبة من مردي تابديد مى رويت

يا من قال فمن يمت يرنى . روحي فدى لحديثك المسر للقلب . ليت اني اموت في كل يوم الف مرة لارى وجهك .

* * *

ولآخر :

نور سماوات وزمين خود عليست غير علي نور علي نور كيست

روشنئ ديدهٔ اهل شهود آيينهٔ حق بكمال وجود

آيينهٔ ذات خدا اوست اوست آيينهٔ هار همه اورست روست

اى بوجود تو بوجود همه جود تو سرمايهٔ بود همه

علي نور السماوات والارض . اي نور غير علي ونور علي . ان عليا ضوء عيون اهل الشهود . وانه مرآة الحق بكمال الوجود . هو هو مرآة ذات الله . والمرايا كلها وجهه . يا من بوجوده وجود الكل ووجوده ثروة الكل .

* * *

واليكم اشعار الغلاة من الترك الحروفية والبكطاشية :

قال شاعرهم « حلمي » : —

طوتدم آیینه‌ی یوزیه　　علی کور وندي کوزمه
قیلدم نظری اوزیـه　　علی کور وندی کوزمه

هو علیم هو هو شاهیم هو

* * *

آدام اتا حـوا ایـله　　اول علم الا سما ایله
جرخ فلك سمـا ایـله　　علی کور وندی کوزمه

هو علیم هو هو شاهیم هو

* * *

حضرت نوح نجی الله　　دخی آدم صفـی الله
طور سینـا کلیم الله　　علی کور وندی کوزمه

هو علیم هو هو شاهیم هو

* * *

عیسای روح الله او لدر　　ایکی عالمده شاه اولدر
مؤمنلره پنـاه اولدر　　علی کور وندی کوزمه

هو علیم هو هو شاهیم هو

* * *

علی جانـدر علی جانان　　علی دینـدر علی ایمان
علی رحیم علی رحمان　　علی کور وندی کوزمه

هو علیم هو هو شاهیم هو

* * *

علي اول علي آخر علي باطن علي ظاهر
علي طبيب علي طاهر علي كور وندی كوزمه

هو عليم هو هو شاهيم هو

* * *

« حلمی » كدائي كتر كوروب كوزوم ديلم سويلر
هرنه رهيه قلسهم نظر علي كور وندی كوزمه

هو عظيم هو هو شاهيم هو

* * *

مسكت المرآة امام وجهي فتراءای علي لعيني . ولما نظرت الى نفسي رأيت علياً في وجهي . هويا علي هو يا مليكي هو . آدم الآب مع حوا . ذلك الذي علم الاسماء . والفلك الدوار والسماء تراءى علي لعيني نوح نجي الله . وآدم صفي الله . وفي طورسيناكليم الله . علي تراءی لعيني هو عيسی روح الله والملك في العالمين والملاذ للمؤمنين علي الروح والحبيب علي الدين والايمان علي الرحيم والرحمن علي الاول والآخر والباطن والظاهر والطبيب والطاهر. « انا حلمي » الفقير الذي لا شأن له عيني ترى وقلبي يقول في اي محل ارسلت نظرتي علي تراءی لعيني هو ياعلي هو يامليكي هو

* * *

ولآخر : —

هردم ديلمده بوكلام ذكرم هميشه صبح وشام
تسبيح ايله صوم دوام جاغر برم آنی مـدام

على على على على

* * *

ازل ابـد على ديرم دوشدم مدد على ديرم
بوقدر عدد على ديرم على . . . . .

* * *

اول اودر آخر اودر باطن اودر ظاهر اودر
طبيب اودر طاهر اودر على . . . . .

* * *

اولدر كتاب جاودان اولدر نشان هر نشان
اولدر حيات انس وجان علي . . . . .

* * *

كوكلر شمس وماهيمز بز بنده بزاول شاهيمز
خلق أيلـين اللهمز على . . . . .

* * *

(ويرانيم) بودر سوزم بن طوتمشم آ كاسوزم
اول آخر بودر سوزم علي . . . .

* * *

ان كلامي الذي يجري دوما على لساني . وان ذكري في كل صبح ومساء وفي التسبيح والصيام اني انادي على الدوام علي علي علي على . . . . في الازل والابد اقول علي . وان وقعت صحت مدداً ياعلي . اني اقول علي بلاعـد ولا عـدد . هو الاول والآخر والبـاطن والظاهر والطيب

والظاهر هو الـكتاب الخالد هو هدف الاهداف هو حياة الانس والجان السموات والشمس والقمر وكلنا عبيد لذلك المليك لالهنا الذي خلقنا . انا (و براني) وهذا كلامي وقد حصرت خطابي عليه . اقول هذا كلامي اولا واخيراً علي على على على .

* * *

وقال الآخر :

قنا باغنده هردمده — علی سندن مدد سندن
لسانمده كی مدحمده — علی سنـدن مدد سندن

* * *

يوزي سبع المثانمدر — كتاب جاويد اثمـدر
ديلمـــده ترجـانميـدر — علی سندن مدد سندن

* * *

دوعمـالمده اولورسـائر — اكر باطن اكر ظاهر
اكر اول اكـر آخر — علی سندن مدد سندن

* * *

وليسن وحي مطلقسين — سجود خلقه اليقسين
حقيقت جمله سن حقسين — علی سندن مدد سندن

* * *

بوو براني قلنـــدررر — غـلام آل حيـدردر
مرادين سندن ايستردر — علی سندن مدد سندن

* * *

أقول في كل لحظة في بستان الفناء وفي مدحي في لساني علي منك المدد منك ، وجهه سبع المثاني وكتابي الخالد وترجماني بلساني هو سواء في العالمين اذا كان في الباطل او الظاهر في الازل او الآخر انت المولى أنت الوحي المطلق أنت القمين لسجود الخلق انت كل الحقيقة انت الحق (ويراني) القلندر عبد لآل حيدر يريد منك مراده علي منك المددمنك

*

* *

هذا قليل من كثير من شعر الغلاة باللغات الثلاث العربيـة والفارسية والتركية والذي تلوته على مسامعكم الـكريمة من الشعر الفارسي هو رواية عن الدراويش الذين تعرفت بهم في مدينتي كربلاء المدينة التي يؤمها في كل عام مئات الدراويش القلندرية اما الشعر التركي فمن مضان كتب الحروفية والعلوية والبكطاشية التي تحوي اذكارهم واورادهم والتي تسمى باصطلاحهم « نفس » او « كلبانك » والآن اقص عليكم نبأ الدرويش القلندري « پير هلال » الجلالي الذي تعرفت به في كربلاء وهو ممن يرفع علياً الى مقام الربوبية .

* * *

الدرويش پير هلال

كنت في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول من سنة ١٩١٩ ميلادية أتمشى في صحن الشهيد ابي عبدالله الحسين واطوف حول اركانه الاربعة مستعرضاً مناظر والواحا ذات روعة وجلال وقد تتغير هـذه الالواح بين سرور وحزن بين ساعة وساعة فبينما ترى في الركن الاول من الصحن الشريف لمة من النسوة قد جئن بالنذور من خبز وحلوى او

خبز وتمر وشموع ودراهم وقد ملأن « بالهلاهل » ارجاء الصحن وهن مستبشرات مسرورات بسبب حادث مفرح وقع لهن تسمع بعد ساعة بكاء وعويلا وترى رجالا ونساء يمشون وراء نعش قد جيئ به الى الصحن ليصلى عليه ويقبر وقد ترى رمة عظام من فارس لتلحد في الحائر وامرأة تنوح على قبر وبائسا يصرخ ويستغيث من الجوع ومريضاً ملقى في فناء الصحن يطلب الشفاء ويرجو العافية وترى ايضاً وجوهاً وضاءة مشرقة لفتيان وفتيات جاءوا بالنذور والحقوق وقد اترعوا الحائر بالبشر والمسرات ونثروا التمر الزهدي وحفنة من الفلوس على الرؤوس فتهافت الفقراء والصبيان والشحاذون والعميان على المنثور يلتقطون ويجمعون ويتزاحمون ويتنازعون وصوت صاحبة النذر يرن في الصحن « باعلان البشرى » .

واذا كنت في الركن الثاني من الصحن وجدت جماعة من الناس قد جلسوا في فناء الصحن على شكل دوائر وحلقات والتفوا حول منبر عال قد جلس عليه (آخند) من دعاة احد المجتهدين والآخند يتلو عليهم ما في رسالة المجتهد من تعاليم واوامر وارشادات دينية وعلى بعد خمسين ذراعاً من هذه الجماعة ترى جماعة اخرى تصغي الى قارئ (روضخوان) يتلو عليهم وقعة الحسين الشهيد ويشرح لهم المصائب والاهوال التي منى بها مع آله في كربلا والسامعون يقاطعونه بالنواح والعويل فاذا انتهيت من مشاهدة هذه المناظر المحزنة وصرت في الركن الثالث من الصحن شاهدت جماعة من الفقراء الشحاذين قد جلسوا على مرمر الصحن صفاً واحداً ووقف امهرهم وابرعهم في الشحاذة يتلو عليهم قصيدة باللغة العامية في مدح علي او احد ابنائه والشحاذون يلطمون ويكررون

مطلع القصيدة وبين آونة واخرى تمد الايدي اليهم بشيء من الصدقات حتى اذا انتهى المنشد من مديحه وقف اللطم واجتمع الشحاذون واقتسموا مارزق الله بينهم . وعلى مقربة من هؤلاء نساء عربيات تتوسطهن (نائحة) تنوح وتندب وتعدد لمن مآثر الاموات وهناك سقاة قد حملوا اجرار الماء وهم يناولون العطشى اكواب الماء وينزلون اللعنات على من حرم على الحسين ماء الفرات واوفرهم نصيباً باللعنات والسباب يزيد بن معاوية والشمر بن ذي الجوشن والشاربون يكثرون من السلام على الحسين ويكررون اللعنات على عدد رنين الطاسات بيد السقاة وعلى بعد بضع خطوات كاتب ادعية وامامه نفر من النسوة هذه تريد لابنها دعاء يقيها شر المكروه واخرى تستكتبه تمائم وطلاسم لنفسها ليرزقها الله بعلا جميلا غنياً او يضمن لها محبة زوجها وعلى مقربة منه رجل آخر مهنته اطلاع الناس على حظوظهم فتراه يطيل التفكير ويصعد النظر في (تخته) ووجه زبونه ويتكلم عن الغيب وهو املق الجيب ولعل من افجع المشاهد في فناء الصحن هو بيع الاكفان فترى بائعها جالسا وحوله اكفان بيضاء يكتب في حواشيها سوراً من الاي الكريم بماء الزعفران وقد اجتمع حوله الزائرون يشترون اكفانهم بأيديهم وهم احياء

ويحيط بأربعة اطراف الصحن غرف متلاصقة وقد زينت جدرانها بالفخار الكاشاني وهي مزدحمة بقبور الملوك والعلماء والامراء وعظماء التجار من البلاد العربية والايرانية والهندية وقد غطيت بانفس القطع من الحرير والشال الترمذي وعلقت الفوانيس والقناديل والسرج من البلور في حيطان الغرفة وعلى القبر ولكل من هذه الغرف قاريء وظيفته

تلاوة القرآن ويتقدم كل غرفة ايوان حافل بعدد من طلبة العلم قد جلسوا فيه على شكل حلقة او دائرة وقد تصدرهم (شيخهم) يدرسهم ويحاورهم ويتلو عليهم من كتابه بضعة اسطر ثم يترك لهم المجال للجدل فتثور زوابع الكلام بين الطلبة ويكثر الصياح والجدل والشيخ صامت يحفه وقاره وحشمته حتى اذا آنس الملل في وجه التلاميذ اشار بيده فسكتوا ثم حل المشكلة ببضع كلمات . وحب الجدل من خصائص الطلبة فاذا اطرى احدهم قيل عنه انه لسن محراب مجادل عنيد

وكثيراً ما تعقد المجالس وينتخب المتجادلون حكما ليحكم بينهم في قاعدة نحوية او صرفية او حل اشكال في قضية فقهية او اصولية او فلسفية

* * *

هذا موجز وصف الصحن الشريف الذي كنت اطوف حول اركانه الاربعة في شهر كانون الاول من سنة ١٩١٩ ميلادية وبينما كنت اجيل النظر في معمعان هذه الضوضاء من مناد ومجيب وصائح ونائح وباك ومتباك ومريض بين وفقير يستغيث وبينما كنت اطوف في الركن الرابع من الصحن شاهدت درويشاً وضاء الطلعة طويل القامة رخيم الصوت ينشد بنغمة عذبة نشيداً لم اسمع منه الا كلمة « علي » وحوله جماعة من الناس يرمون في كشكوله الدراهم فلما دنوت منه سمعته يقول :

اول وآخر علي

ظاهر وباطن علي

علة اولى علي

نقطة اولى علي

روشن كيتي علي
پردهٔ اسرار علي

اي ـ علي الاول والاخر والظاهر والباطن والعلة الاولى والنقطة الاولى ونور الحياة وستار الاسرار

كان الدرويش واضعاً كشكوله على مرمر الصحن ورافعاً قدومه على كتفه ومرسلا شعره الطويل اللامع على ظهره وكان يردد هذه الكلمات بتفخيم كلمة « علي » فيحدث في قلوب المصغين اليه هزات عنيفة تورث الوجد في الروح وبينما كان صوت الدرويش يرن في الصحن رنين الجرس والحاضرون ينصتون اليه بكل جوارحهم اخترق الصفوف (آخند) رث الثياب ووقف في وسط الجمع وخاطب الدرويش بلهجة الحانق الساخط قائلا :

خاموش باش بي حيا شما غلط ميكوئي كفر ميكوئي

اي ـ اسكت يا من لا حياء له ، انت تهذي ، انت تقول كفراً

ثم تقدم من الدرويش وجره ودفعه وكاد يتله الى الجبين غير ان الحاضرين انزعجوا من تعرض الآخند للدرويش فصاح احدهم في وجهه :

ماذا تريد من الدرويش انه يمدح الامير

وقال الآخر — انه فقير وانه من المحبين

وقال الثالث — انه من الموالين وانه غريب مسكين

ثم كثر اللغط والكلام وتداخل الناس بعضهم في بعض فمشى احد الحاضرين الى الآخند وجره من عباءته وتقدم اليه الثاني وتله من قبائه ومسكه الثالث من ذراعه وهموا بضربه وعندئذ وقف الآخند وهو يرجف ويرتعش وخاطب الجمهور بالعربية المشوبة باللغة الفارسية فقال :

ان هذا الدرويش قد كفر لانه جعل علياً عليه السلام رب الارباب انه ينعته بالعلة الاولى وعلي على جلالة قـدره وعظمة منزلته عبـد من عبيد الله . ان هذا آثم مخطئ فلا تصغوا اليه لئلا تكونوا آثمين مخطئين مثله هذا الدرويش كشفي وان اقواله كفر في عقيدة الامامية غير ان الجمع لم يمن باقواله ولم يصغ الى كلامه فتوالت الصيحات والزعقات في وجهـه ودفع حب الاطـلاع الناس الحاضرين فى الصحن والأروقـة فتقاطروا وتكاثروا وكثر الازدحام واجتمع المئات من الناس ليطلعوا على ما جرى وما وقع وكاد ان يحصل ما لا تحمد عقباه لو لا حضور بعض اهل الخير ومداخلتهم في فض المشكل باخراج (الآخند) المعترض من بين الجماهير الهائجة المستشيطة غضباً شديداً .

اما الدرويش فقد وقف مبهوتاً صامتاً كالحجارة لا يبدي حراكا ولا ينبس دفاعا وقد امتقع لونه وتجهمت اسارير وجهه فرفع كشكوله من الارض وهم بالخروج من الصحن الا ان الجمهور الح عليه ان يتغنى بمدح علي وتعالت الاصـوات بالصلاة على النبي وصاح احدهم « مدد يا علي » وقال الآخر لعنت بيزيد اى لعن الله يزيداً فاجابه الحاضرون « بيشمار » ي بلا عد ولا احصاء فامتثل الدرويش رغبة الناس واندفع يقرأ بصوته الحنون قصيدة بالعربية واخرى بالفارسية وقد اكثر من اللحن فى الاولى واجاد الانشاد في الثانيـة وكان بعد كل ثلاثة ابيات يقول : —

اكرنا تواني بكو يا علي
واكر خسته جاني بكو يا علي
مترس وملرز وبكو يا علي

أي — اذا كنت ضعيفاً قل يا علي وان كنت مريض الروح قل يا علي . لا تخش ولا ترتجف وقل يا علي .

ولما انتهى الدرويش من انشاده قرأ « سورة الفاتحة » ثم التفت نحو القبر الشريف وانحنى مسلماً ورفع كشكوله من الارض وخرج من الصحن بحفنة من الفضة .

ترك هذا الحادث في نفسي اثراً عظيما واحدث نشيد « الدرويش » في رغبة الاطلاع على دخيلة امره فدفعني الفضول الى اقتفاء اثره ولحسن الحظ صادفت عند خروجي من الصحن صديقاً حميما من فتيان كربلاء وهو شيعي يعد في طليعة وجهاء المدينة فقصصت عليه امر الدرويش وما حدث له قبل برهة وطلبت اليه ان يتعرض له وان يحدثه ويأتي به الي لأتمكن من التحدث اليه لان بزتي العصرية تبعث فيه الريب مني فيمتنع عن المجيء بيد ان صاحبي ارتأى ان يأخذه الى بيته وضرب لي الساعة الثامنة موعداً وقد خف اليه الصديق وحياه واخذ يكلمه برفق ولطف وانا ارمقهما عن بعد الى ان وصلا الى البيت فدخلا معاً فاطمأن قلبي .

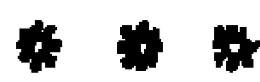
* * *

ولما ازفت الساعة المعينة هرعت الى بيت الصديق وعند وقوع نظر الدرويش علي هب من مكانه فكان كالخائف المذعور فسلمت عليه باسما باشا في وجهه فادرك صاحبي ارتباك الدرويش فقال له بالفارسية مشيراً بيده الي . هذا ابن عمي وصديقي وهو منا . فالتفت نحو الدرويش وقلت له : اني جد آسف للحادث الذي وقع لك في الصحن ولا شك في ان المحبين على شاكلتك لا يتذمرون ولا يتألمون من الاهانات وانما

يفتخرون ويرحبون بهـا في سبيـل حب (علي) ومن شأن المحب ان يتحمل الظلم والجور في سبيل محبوبه .



قال وقد رجعت اليه طمأنينته هذا حادث تافه فاني قد عانيت من القساة الوقاح مالم يعانه من قبلي احد كل ذلك في سبيل (سراج الابدية وقنديل الازلية مولى العالمين علي) وقد كوى جسدي باسياخ حديدية احميت في النار وجلدني الكافرون بالسياط وادموا رأسي وظهري بالعصي والهراوات وأنا وحق (سر الاسرار علي) اعد هذا العذاب نعمـة لا نقمة والصبر على الآلام اجر للانسان وجزاؤه الخلود في الفردوس ان سر الاسرار يجرب احباءه فاذا وجدهم صابرين على الرزايا غير هيابين ولا مبالين بالمنايا حشرهم في سر ملكوته وجعلهم غصن ورد في بستانه الدائم .



جلس الدرويش بجانب الكانون حتى كاد يحضنـه ورفع غليـونـه الطويل بيده يبتلع دخانه ويستمريه متلذذاً ويلعب بيده اليمنى بجمرات النار في الكانون وهو يقول : —

بلى اغا اين آتش مارا نمي رنجد . زيرا سر على دردل من پنهانست من ازكس ترس ندارم نه از شيطان نه از جن نه از آتش نه از بيماري زيرا نام على هميشه در در زبان من است ونور مبارکش درچشم فنست اى — نعم سيدي ان هذه النار لا تؤذيني لان سر علي كامن في قلبي اني لا اخشى احد لا اخاف شيطانا ولا جناً ولا ناراً ولا مرضـاً لان اسم علي على الدوام في لساني ونوره في عيني .

* * *

امر صاحبي خدمه ان يمدوا السماط وجيء بالاطعمة فالتهم الدرويش الطعام كما يأكل الجائع المنهوم وطاف علينا الخدمة باكواب الشاي وقدموا له كيساً من التنباك الفاخر وطلبنا اذ ذاك اليه ان ينشدنا شيئاً من الشعر فانشدنا بصوته الرنان قصائد في مدح «علي» بالعربية والفارسية ولما انقضى الهزيع الاول من الليل نهض الدرويش مودعاً فنفحه صاحبي شيئاً من الدراهم ورجاه ان يتلطف بزيارته في الغد فخرج الدرويش ولسانه يلهج بالثناء والدعاء

يوم ٥ كانون الاول

انتظرنا الدرويش في هذه الليلة في بيت صاحبي وبعد صلاة العشاء بقليل طرق الباب ودخل يصعد السلم مكرراً في كل درجة من درجاته اسم «علي» بصوت جهوري ملأ ارجاء الدار رنيناً ودوياً

دخل فسلم ثم جلس ودعى بالخير والبركة وقال مخاطباً السيد الصديق (يا نطفة علي ان نور علي باد في محياك) فابتسم السيد له وشكره وجيء بآنية الطعام فاكلنا وديرت علينا كؤوس الشاي فشربنا واولع كل منا سيكارته والدرويش غليونه الطويل

فالتفت الى الدرويش سائلا : هل لنا ان نسمع من فمك شيئاً عن حياتك وطريقتك واسفارك واغرب ما شاهدته في رحلاتك ؟ قال وعلى فمه ابتسامة المغرور المتبجح ، بسم الله بسم الله يا علي مدد يا علي ثم سعل وتنحنح وتأوه وبلع ونفخ في غليونه وابتدر يتكلم بالفارسية

* * *

بير هلال

حياته . عقيدته

انا عبد علي وبأذن علي ومشيئته اسماني ابي (بير هلال) وكان اسم ابي(بير كال) وقد ولد وولدت في مدينة (اردستان) الواقعة في الشمال الشرقي من مدينة اصفهان وكان والدي سالكا الطريقة (الجمالية) وقد علمني القراءة والكتابة ومنذ كان عمري عشر سنوات دربني على الطريقة ولقنني آدابها وتعاليمها واسرارها وقد صحبت والدي عشرين سنة طفنا خلالها بلاد العجم والهند والافغان وبلوجستان وجئنا الى العراق ست مرات لتقبيل تربة « علي » والتشرف بارضه الطاهرة المقدسة . وشاءت ارادة الله ان يتوفى والدي في ارضه وقد بقيت وحدي اطوي الارض واجوب البلدان واطوف المدن هادياً مرشدا ابشر الناس بسر الاسرار « علي » . ثم تململ الدرويش وقال وقد لمع السرور في محياه : «وكم ليلة بت فيها وفراشي ووسادتي الثلج وكم مرة صادفت في اسفاري السباع والذئاب والفيلان وطالما اعترضني قطاع الطريق وكنت انجو من هذه المخاطر سالما آمنا مطمئنا لاني احمل (سر علي) حصني الذي التجئ اليه والوذ به »

وكنت وصاحبي نصغي الى حديثه اصغاء المعجب وننظر اليه نظرة المستغرب ونقاطع كلامه مرة بعد اخرى بكلمة (ما شاء الله) ثم قلت له : وهل تتفضل علينا بأن تحدثنا عن هذه الطريقة وعن آدابها وتعاليمها واسرارها ؟

«بسم الله بسم الله هذا حق» وقبل ان يبادر بالحديث قرأ بنغمة حلوة وصوت ضعيف:

بيرمن هداي من، رهبر رهناي من
از تو بحق رسيده ام اي حق حق نماي من

« يا شيخي ويا هداي ويا دليلي ومرشدي بك توصلت الى الحق . يا ايهـا الحق الذي اراني الحق » . ثم قال « ان طريقتنا تسمى الطريقة (الجمالية) ومؤسس هذه الطريقة هو البير الاعظم (الشيخ الاعظم) جمال الدين احمد الاردستاني .

« بلي اغا — سر اسرار باو نطق كويا بخشيد ند

«اي نعم يا سيدي . ان سر الاسرار منحه نطق الكلام (اي الشعر) كان البير ملهما بسر علي بالشعر وقد مات شهيداً في سـبيل حب علي في سنة ٨٧٩ هجرية وهو الآن يتمتع بنعيم الفردوس الخالد ويجب على من يرغب الانخراط في سلك « الجمالية » ان يستظهر على قلبـه مدائح مولانا البير الاعظم التي نظمها في الثناء على صـفات (سر الاسرار) ويجب عليـه ان يصوم ثلاثة ايام من كل شهر ويستحسن ان يكون صيامه ايام السبت والاحد والاثنين وبعدها يحج الى تربة علي المقدسة ثلاثة مرات مشياً على الاقدام حتى اذا أتم ذلك دخل في دور (التجربة) وهي اربعون يوما (چله) ويقوم البير الاعظم خـلال هـذه المدة بتجربة (التلميذ) وهي ثلاث مرات فمثلا يسكب على جسده ماء في ابرد ايام الشتاء او يطلب اليه ان يبقى مدة في احدى الغابات الموحشة الكثيرة الهوام او يوعز اليه ان ينقطع عن تناول الطعام ثلاثة ايام »

قلت للدرويش « وماذا تكون النتيجة اذا مات (التلميذ) ؟ لان في صب الماء البارد على الجسم في الشتاء والانقطاع عن الاكل خطرا على الحياة »

فقال — نستدل على ذلك ان سر الاسرار لا يرغب فيه وان حب علي غير متمكن من قلبه ومع كل ذلك فان الذي يموت في دور (التجربة) يكون في نجوة من عذاب النـار وتغفر له خطاياه حتى لو كان آثما في الدنيا وذلك مكافأة له لمجرد اقدامه على دخول « الطريقة » .

وكأن الدرويش لم يرق له سؤالي فسكت ثم نظر الي نظرة سريعة علمت منها عدم رغبته في استماع مثل هذه الاعتراضات وتابع حديثه فقال :

« فاذا نجح التلميذ في التجربة يقيم له البير مأدبة عشاء عظيمة يحضرها جميع المنتسبين ويكون الطعام خبز الشعير والملح والريحان وبعد تناول الطعام يرتجل البير خطبة يثني بها على التلميـذ لصبره وجلده ولفوزه ويهنئه المنتسبون بتقبيل جبينه ويقدم له البير هدية تتكون من كشكول وقدوم وسبحة من خشب النارجين ويعهد الى احد المقربين المقدمين في الطريقة بتعليمه وتدريبه وتتلخص فيما يلي :

١ — افشاء السلام مع ذكر « سر الاسرار »

٢ — الصبر على الاذى والظلم

٣ — هداية الناس وارشادهم وتبشيرهم بسر الاسرار

٤ — الاطاعة التامة والخضوع « للبير الاعظم »

٥ — معرفة اسماء علي وهي « سبع »

علي . حيدر . كرار . اسد الله . سر الاسرار

سـراج الابدية . قنـديل الازليـة

٦ — وظائفه الان في الملكوت الاعلى .

٧ — تمجيده وحمده والتسبيح باسمه المقدس .

قلت له « الا تصومون وتصلون كسائر المسلمين ؟ » فضحك عاليـا

وقال لاي شيء ياسيدى نصوم ونصلي؟ الم تدر الم تعلم ان ضربة علي يوم الخندق تعادل (عبادة الثقلين) ؟

فقلت له وألست مسلما :

قال « بلى »

قلت « ان الاسلام قد فرض على المسلمين بنص القرآن ان يصلوا لله خمسة اوقات وتارك الصلاة كافر فكيف توفق بين ادعائك الاسلام وعدم تطبيق نصوصه؟ » فأخذ الدرويش يتكلم بكلام طويل غير مفهوم محاولا التدليل على عدم وجود ضرورة للصلاة حتى انتفخت عروق عنقه وتصبب العرق من جبينه ثم انتهى الى نتيجة واحدة هي ان الله قال في قرآنه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وحيث ان اليقين علي وقد عرفناه فقد سقط عنا التكليف . ثم اخرج من جرابه صرة بالية ففتحها واخرج ورقة صغيرة ونظر الينا وقال :

« هذا هو دعاؤنا » فقرأنا في الورقة بخط فارسي سقيم ما يأتي :

« ياعلي الاعلى وسر الاسرار وسراج الابدية وقنديل الازلية ومولى العالمين . ياحيدر ياكرار تضرع الى الله الذي جعلك مسيطراً على الدنيا والآخرة والقضاء والقدر والخير والشر ان يحشرنا في (سرك) وان ينبتنا وردة غضة في بستانك الازلي » .

وكان صاحبي السيد يرتجف حنقاً فقال له والغضب قد لعثم لسانه « انا سيدهاشمي وعلي جدي وانا احق الناس بحبه وتقديسه وكل ما اعتقده فيه انه امام معصوم وانه وصي رسول الله وخليفته الاول من بعده لكنك انت تجعله شريكا لله . استغفر الله »

فصـاح الدرويش في وجهه « مكوجان مكوشما جوانى ترسم علي ذليلت كندا

اي :— لاتقل ياروحي لاتقل انت شاب اخشى ان يجعلك ذليلا . »

فقلت للدرويش — ماذا تعتقد في علي أهو رب ؟ »

قال : حاشا لله . لااله الا الله علي نور الله وسر الله ومشيئة الله وليس هو الله .»

— أهو اعظم شأناً ام الرسول ؟

— لـكل واحـد خاصية . محمد مربي وعلي مرشد .محمد معلم وعلي هادي. محمد نبي ليس له ولاية وعلي له الولاية وشريك محمد بالبشارة وهو سرها .

—علي كان في الازل وهو نورالله وسره وقدرته المسيطرة على الكون وقد وجد هو واللوح والقلم والعرش في آنٍ واحدٍ وهو في الملـكوت الاعلى الان « بشكل الاسـد » يحرس « سـدرة المنتهى » التي هي بجانب عرش الله . »

قلت له — وممن يحرسها ومن الذي يستطيع ان يصيبها بسوء .

قال — من الشيطان ياسيدي من الشيطان الملعون الرجيم .

قلت له — ولماذا يريد الشيطان ان يصل الى « سدرة المنتهى »

قال — يريد ان يصل اليهـا ليأمن من العـذاب لان كل من يمسها يكون في نجوة من النار .ولما اراد الله ان يهدي عباد الاصنام الـكافرين المشركين ارسل « محمدا » رسولا اليهم وارسل عليـاً لتأييد محمد ولولاه لما تحققت نبوة محمد

فقلت له — لما نزل علي لتأييـد محمد كما تقول فمن الذي كان يحرس

سدرة المنتهى من الشيطان ؟

قال — لم تبق حاجة لحراستها لان الشيطان هبط الى الارض لاغواء الناس وصدهم عن الايمان .

قلت له — ان التواريخ والاخبار والاحاديث متواترة على ان علياً اغتيل في الكوفة .

فضحك ضحكة طويلة وقال — هذا كذب ياسيدي كذب

قلت للدرويش — من علمك هذه الامور . اننا لم نقرأها في الكتب

فقال كمن هو واثق بايمانه معتقد بصدق عقيدته :

— هذا علم الطريقة هذا سر .

* * *

كان حديث الدرويش شهياً لذيذاً لانه كان غريباً في بابه وحيداً في نوعه وكان الدرويش يتكلم بحماسة فائقة فلا هو كان يمل الحديث ولا نحن كنا نضجره وقد دام حديثه الى الساعة الثانية بعد نصف الليل فنهض الدرويش مودعاً فطلبت اليه ان يكتب في دفتري الصغير شيئاً من الشعر فكتب فيه شعراً فارسياً لا ازل محتفظاً به الى الان .

انصرف الدرويش في الساعة الثانية ونصف من الليل وكان عند نزوله في كل درجة من درجات السلم يصرخ بلفظة (علي) على عادته وقد علمت بعد يومين ان العلماء قد حرضوا عليه الرعاع فتعرضوا له في الصحن واشبعوه صفعاً ولكما وضرباً حتى كادت تزهق روحه ولولا الشرطة لاصبح المسكين اثراً بعد عين وقد رأت الحكومة المحلية ان تخرجه من المدينة اخماداً للفتنة .

وقد افهمني بعض رفقائي بانهم شاهدوا الدرويش واقفاً في كل يوم

ساعات طويلة بجنب قبر السيد كاظم الرشتي بادب واحترام وانه كان يصرخ بين دقيقة واخرى (هو هو) فعلمت بان الرجل من الغلاة الكشفية ولما درست طريقة الجلالية رأيت خلافاً كبيراً بين الذي نقله الدرويش وبين آدابها وسلوكها وقصة لدرويش (بيز هلال) هي التي دفعتني الى دراسة الفرق المغالية التي سنبحث فيها في السنة القادمة انشاء الله .

للاستاذ مجيد خدوري :

تقرير

في

المؤتمر الرابع عشر العالمي لنوادي القلم

المنعقد في بونيس أيرس

٥ — ١٥ ايلول سنة ١٩٣٦

انتدب نادي القلم العراقي الاستاذ مجيد خدوري احد اعضائه ليمثله في اجتماع نوادي القلم العالمي العام في بونيس ايرس في الارجنتين فبعث المندوب بهذا التقرير — المجموعة

مقدمة

يعقد المؤتمر العالمي لاتحاد نوادي القلم المرة الاولى في اميركا الجنوبية في مدينة الهواء اللطيف (بونيس ايرس) عاصمة الارجنتين ، وقد اخذ نادي القلم الارجنتيني على عاتقه تسهيل الرحلة والاقامة في (بونيس ايرس) الامر الذي جعل اكثر المراكز توفد مندوبيها لحضور المؤتمر . فاجتمع المندوبون من اقاصي المعمورة ودانيها : من اليابان الى شيلي ومن ايسلندة الى نيوزيلانده ، وهم يمثلون نحو اربعين قطرا . وكان وجودهم في الارجنتين قبيل عقد المؤتمر وفي اثنائه مدعاة الى عناية الادباء والمولعين بالادب والثقافة . كما ان اهتمام الصحف الارجنتينية بالاعضاء



الاستاذ مجيد خدوري

منذ وصولهم كان شديداً جداً فكتبت منذ وصولهم كلمة في سجل كل عضو وقطره ، وعقدت بعض الحقول لنشر جانب من آراء بعض الاعضاء . وكانت تتبع اخبار الاعضاء والمؤتمر باهتمام زائد لتوسع افق المؤتمر الى جمهور القراء وتخلق فيهم رغبة ادبية وثقافية .

وقد كان نادي القلم الارجنتيني كريماً حقاً ونشيطاً في اعداد جميع وسائل الراحة للأعضاء فقد اعد ، ما عدا الاقامة في اوتيل ستي الفخم ، بهواً خاصاً لأعضاء المؤتمر ليقابلوا فيه من يزورهم ويود التحدث اليهم ، وسجل لكل عضو اشتراكا مدة شهر في اعظم ناد وهو «جوكي كلوب» يحضره متى شاء ، ونظم رحلات للتنزه في خارج الحاضرة على ضفاف نهر التيكري والى احدى المزارع للاطلاع على الحياة الريفية في الارجنتين . كما سهل ايضاً زيارة كثير من مؤسسات العاصمة الخطيرة الادبية والفنية . فكان المؤتمر وسيلة وفرصة لكل من ادباء الاقطار المختلفة ليفيد ويستفيد . كما كان ايضاً واسطة لتأسيس صلات ودية بين مختلف الاعضاء .

جلسات المؤتمر

ابتدأت جلسات المؤتمر يوم السبت في ٥ ايلول سنة ١٩٣٦ ودام انعقاده عشرة ايام . وفي هذا اليوم عينه كان فخامة رئيس الجمهورية الارجنتينية الجنرال اغسطين خستو (Agustin Justo) قد عين الساعة الحادية عشرة قبل الظهر موعداً لقبول اعضاء المؤتمر في دار الرئاسة ، فذهب الاعضاء للسلام عليه . وقد تكلم الرئيس باللغة الكستجانية (الاسبانية) مرحباً بالأعضاء ومتمنياً نجاح مهمتهم الادبية . ثم غادر

الاعضاء دار الرئاسة وعقدت جلسة تمهيدية بعد الظهر استعداداً للجلسة الافتتاحية التي تعقد مساء ذلك اليوم .

وفي المساء عقدت الجلسة الافتتاحية في قاعة فخمة من بناية خصصت لجلسات لمؤتمر اسمها كونسيخو ديلبراني (Consejo doliblerante)، وهي بناية فخمة فيها قاعة كبيرة للاجتماعات العلمية . وفي اكبر بهو في هذه البناية عقدت الجلسة الافتتاحية وقد حضرها رئيس الجمهورية . والقى الدكتور كارلوس ايبارگورين (Ibarguren) رئيس نادي القلم الارخنتيني ، خطبة افتتاحية باللغة الكستجانية (وقد اعطي لكل عضو ترجمتها بالفرنسية) خلاصتها : ان في هذه الايام العصيبة ، اذ نجد النضال الاجتماعي قائماً على قدم وساق ، نجتمع لمبادلة مختلف الآراء في هذا الموضوع . ويتطرق الى ذكر ما سماه بالأزمة الروحية العالمية نظراً الى سيادة الروح المادية والآلية في العالم اليوم . ثم يتوسع في هذه الطرقة ويروي وجوه النظر لبعض الكتاب الاوربيين — ويذكر مجاملة آراء بعض من حضر المؤتمر منهم — حول هذا الموضوع . والخطاب سطحي على العموم ، وربما لم تكن الغاية منه التعمق في الموضوع بل اثارة وجهة نظر واحدة رآها الدكتور ايبارغورن بارزة في المجتمع وهي ان الروح المادية هي المسيطرة على العالم اليوم . وأراد ان يؤكدها . وينطوي خطاب ايبارگورن هذا على نزعة المحافظين من الارخنتينيين . ثم القى احد مندوبي الانكليز كلمة بالانكليزية لولز (H . G .W el's) رئيس الاتحاد العالمي لنوادي القلم يعتذر فيها لعدم حضوره ويتمنى ان يسير المؤتمر بنجاح . ثم ترجمت هذه الكلمة الى الفرنسية ايضاً . ثم القى الكاتب الفرنسي جول دروماذ (Gules Romains)

خطاباً طويلا ممتعاً باللغة الفرنسية ، وهو يمثل النزعة الفرنسية المتطرفة في الآراء العصرية الحرة . فدافع عن الحرية والديموقراطيــة وبين اثر ذلك في حياة الانسان والمجتمع . وقد أجاد رومان أيما اجادة في ذلك ولا سيما في كيفية عرض افكاره وسلاسة لغته فكانت عبارته تقاطع بالتصفيق الحاد . وقد ترجمت الجرائد خطاب رومان هــذا الى اللغــة الاسبانية ونشرته فأحدث اثراً طيبــاً في نفوس القراء . والخطــاب لم يترجم الى الانــكليزية لا تمكن من طلبه وارسال نسخة منــه مع هذا التقرير . ولكني كنت قد دونت بعض النقاط الخطيرة في اثناء القاء رومان واني اوردها لعل فيها بعض اللذة لبعض اعضاء نادينا . وهذه هي

بعد ان يشكر رومان للارجنتين تسهيلها عقد المؤتمر ، وبعد ان يذكر ما يجب من عبارات المجاملة ، يعرض لتصوير حياة العصر الحاضر ممثلا اياها برواية (درامة) آخذة في التوسع ولا سيما في السنوات الاخيرة التي تلت الحرب العالمية . وهو يذكر ما في هذه السنوات من التطورات وما يشهد الناس من الــكوارث والمحن . ويقول ان هذه الكوارث قد تدوم طويلا ويبقى الناس متأثرين منها . ولكن هذه الــكوارث لا يمكن قطعاً ان نقضي عليها بالقوة والعنف . كما ان التاريخ ايضاً لا يحمل بين طياته « الفضيلة الطبيعية » التي قد تمحي او تزيل هذه الــكوارث . وهــذا التأثر الذي نراه في الانسان الان ليس سوى مظهر من هذه « الدرامة » الهازلة الاخــذة بالتوسع . ولــكن لماذا نحن نشكو من ذلك ؟ ذلك لاننا ورثنا في مدة قصيرة من الزمن تراثاً هائلا من المعرفة المادية والروحية . وقد خطت هذه المعرفة في التقدم خطوات سريعة جدا فزادت في قوة الانسان وزادة في عدده ايضا . وذلك اكثر مما

يتحمله عوام الناس .

وناحية اخرى يتعرض لها روحان في خطابه جديرة بالذكر . فهو يقول بصدد مايراه من حركة رجعية عند بعض الفئات ان بعض الناس يريدون الآن ان يكونوا فرديين Individualiste خوفاً من فكرة الحكم الديموقراطي ولكن لم ذلك ؟ فرومية بدأت حياتها بفكرة الحكم الفردي ورأينا ما ذا كان مصيرها ! لماذا اذن نحن الان نقلدها ؟ نحن الان قد حصلنا على اشياء كثيرة بفضل مساعينا نحن قد «افتتحنا» ذلك فحصلنا على الحرية والديموقراطية . لماذا اذن نرجع الى الحكم الفردي ونخسر ما حصلنا عليه ؟

فالحرية ضرورية للحياة . فهي التي تساعد على انتاج العلم . والعلم يساعد على انتاج الصناعة . وهذا غير ممكن الا في بلاد فيها حرية . وكذلك الادب لا ينتج بغير الحرية واذا كان الادب لا يساعد على نشر الحرية فهو يقتل نفسه بنفسه !

اما الديموقراطية فتفسح مجال الرقي للناس . وكل مرله مزية يتقدم ويتمتع بها في المجتمع . وفي الديموقراطية ايضا منشاءات للنزعة الروحية Spiritualisme على ان لا تكون مناقضة للحرية

ثم ختمت الجلسة الافتتاحية وكان قد حضرها من جمهور المستمعين عدد كبير جداً . وانتقل اعضاء المؤتمر وكثير من المدعوين الى قاعة اخرى لتناول بعض المشروبات وللتحدث فيما بينهم . فكانت هذه فرصة سانحة للاعضاء ولغير الاعضاء ان يتحدثوا في شؤون ثقافية عامة ويتبادلوا المعلومات المتعلقة بالاقطار المختلفة التي يمثلونها . وقد كنت اجد ان اسم بغداد والف ليلة وليلة اعم انتشاراً من اسم العراق !

اما في اليوم التالي (يوم ٦ ايلول) فقد خصص لزيارة ضفاف نهر التيكري (Tigre) سمي كذلك على اسم نهرنا دجلة (Tigris) وهو نهر ليس بالكبير ولا بالصغير، سريع الجريان ولكنه عامر بكثرة ما يحيط به من الحدائق والقصور . واعدت زوارق كبيرة جداً لنقل الاعضاء والمدعوين. واتيح لنا مشاهدة بعض ضواحي بوينس أيرس .

الجلسة الثانية

عقدت الجلسة الثانية في صباح اليوم السابع من ايلول وهي اول جلسة اعتيادية للشروع في اعمال المؤتمر . ومنهاج الجلسة الكلام والمباحثة في موضوع قدمته السيدة فكتوريا اوكامبو (Victoria Ocampo) وهي اديبة ارجنتينية ومندوبة نادي القلم في المؤتمر، وموضوعها « وظيفة الكاتب في المجتمع » Fonction de l'ecrivain dans la societe) والقت الخطبة باللغة الاسبانية ثم ترجمته هي الى الفرنسية . وكان قد عين ايضاً مترجم خاص للمؤتمر ينقل حالا الخطب الدائرة الى اللغات الاخرى غير التي القيت فيها كالفرنسية والانكليزية ، فنقل خطبة اوكامبو الى الانكليزية ايضاً . وقد اعتبرت اللغات الفرنسية والانكليزية والكستجانية اللغات الرسمية في المؤتمر. وتناولت اوكامبو نقطة خطيرة وهي ان مهمة الكاتب في خدمة العامة . وذكرت نقاطاً اخرى تدفع الكاتب كمهمة الحياة وحب الاستطلاع .

ثم تكلم الروائي الفرنسي دوآميل (G. Duhaommel) وعلق على ذلك قائلا ان مهمة الكاتب هذه لا تتم اذا لم يتوفر في ذلك : «الحرية» وهي شرط ضروري جداً يجب ان يتوفر حتى يتمكن الكاتب من انجاز

مهمته الادبية . ثم تعرض لنقطة اخرى وهي : هل يجب على الكاتب ان يتدخل في السياسة ؟ ومن رأيه ان الكاتب يجب ان لايتبع الزعماء السياسيين المتطرفين لانه بذلك سينجرف معهم بتيار السياسة ويفقد ثقة الناس به .

اما مندوب ايطاليا ماريتي (Marinetti) فقام ينتقد اوكامبو من وجهة ادبية فقط ! فهو يقول ان الاديب يجب ان يكتب ليس للقارئ العام وحده بل عليه ان يكتب للادب ذاته ، يجب ان يخلق شيئاً جديراً بالمطالعة ؛ وهذه مهمة الكاتب . وقد تكلم اعضاء آخرون ردوا على ماريتي بآراء معروفة لا حاجة الى ذكرها هنا . وأهم هؤلاء رد المسيو كريميو (B. Cremieux) اذ مزج الادب بالسياسة فهو يقول لماريتي: انت تقول ان الاديب يجب ان يخلق شيئاً جديراً بالمطالعة ، ولكن هل بلادك تساعد على ذلك ؟! ثم يختم كلامه قائلا ان من واجبات نوادي القلم ان تعد للكاتب فرصة ليقول ما يريد ان يقوله وتسهل له ذلك .

اعمال الجلسة الثالثة

(اولا) اقتراح الدكتور ايبارغورن رئيس نادي قلم بوينس إيرس بارسال برقية تهنئة الى نادي القلم البرازيلي لان هذا اليوم — ٧ ايلول يوم استقلال البرازيل . فوافق الاعضاء على ذلك . ثم وقف مندوب البرازيل دي سوزا يشكر للمؤتمر برقيته .

(ثانياً) اقتراح نادي القلم الهولندي بواسطة مندوبه ، فيما يختص بترجمة الآثار الادبية من لغة الى اخرى . وذلك :

(١) معظم ترجمات الآثار الادبية رديء .

(٢) الترجمات احط قيمة ادبية من الاصل .

(٣) الترجمات للآثار الادبيـة القيمة قليلة جداً .

(٤) نقاط اخرى فيما يتعلق بحقوق الطبع والمسؤولية الخ ..

فنادي هولندا يقترح انشاء مؤسسـة عالمية لتأخـذ على عاتقها مهمة الترجمة . وقد قرر المؤتمر ان تعين لجنة خاصة لدرس المشروع ووضع تقرير في ذلك .

(ثالثاً) اقتراح نادي القلم البولوني بواسطة منـدوبه بانشاء معرض ادبي حيث يعقد مؤتمر نوادي القلم فتعرض آثار الكتـاب الادبيـة الخطيرة والتحف الفنية المشهورة ليراها الاعضاء ومن يحضر المؤتمر .

وقد تكلم مندوب بلجيكا محبـــــذاً المشروع ثم قال ان متحف بروكسل قد فعل ذلك فقد عرض تحفاً ادبية وفنية ومخطوطات قيمة . وهو يرجو من مؤتمر نادي القلم القادم — الذي سينعقد في رومية في السنة المقبلة — ان يفعل ذلك فاجاب السنيور مارينتي احـد مندوبي ايطاليا انه ســيفعل ذلك في السنة المقبـلة حين يأتي المنـدوبون الى بلاده .

(رابعاً) اقتراح نادي القلم البلجيكي (القسم الفلمنكي) باصدار مجلة عالمية باللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية . وترجم الآثار الادبية الخطيرة من اللغات الاخرى وتنشر في هذه المجلة وتكون وسيلة لانشاء ادب عالمي . على ان يكون مركز هذه المجلة في لندن . وقـد طلب مندوب ايطاليا ان تعتبر اللغة الايطالية ايضاً لغة رسمية في هذه المجلة لانها لغة حية . فاعترض كريمو (Cremieux) احد مندوبي فرنسا قائلا : توجد لغات حية اخرى فهل من الممكن ان تكون كلها رسميـة

في المجلة ؟ ورأي كريمو مصيب لان المجلة لن تكون معرض لغات وانما معرض الآثار الادبيـة باي لغـة كان اصلها . وهذه اللغات الثلاث اكثرها انتشاراً .

الجلسة الرابعة

في هـذه الجلسة يتـكلم اميل لدفيك بالفرنسيـة بعنوان « الادب الالماني » ولم يكن في الموضوع من ادب الالمان غير العنوان . منتقداً تقيد الادباء هناك .

وطلب السنيور مارينتي احـد مندوبي ايطاليا ان يتـكلم مبيناً ان الفاشستية الايطالية تختلف عن الفاشستية الالمانية .

وفي هذه الجلسة ايضا يقترح جول رومان ان يبعث المؤتمر رسـالة للتعبـير عن امانى السـلم الى الدول المختـلفـة والطـلب منهـا ان تتحاشى الحرب . وقـد تـكلم مندوب ايسلندة (بالاصالة عن نفســه وبالنيابة عن مندوب السويد) للتعبير عن رغبات بلاديهما في السلام وقد وافق اعضاء المؤتمر على ذلك ومن جملتهم المندوبون الايطاليون ومنهم مارينتي .

الجلسة الخامسة

جلسة الادب والسياسة !

النزاع بين الـكتاب الفرنسيين وكتاب الحكومة الايطالية

كان الشاعر الايطالي مارينتي صاحب مبدأ المستقبل الذي يسميـه (Futurismo) وهو رئيس نادي القلم في روما واحد مندوبي ايطاليا

الثلاثة الى المؤتمر ، وليس ماريتي بالشاعر الفحل فحسب بل هو مناصر الفاشستية — وصرح في العام الماضي وكتب محبذاً الحرب . وكان مؤتمر نادي القلم السابق قد قرر ، في جملة ما قرر ، مقاومة الحرب فالدفاع عن السلم فيكون ماريتي بذلك قد خالف قرار نوادي القلم . وقد أثار هذا التصريح العلني الكتاب الفرنسيين بصورة خاصة ، فكان ممثلوهم في المؤتمر عازمون على جلب قضية ماريتي في احدى جلسات المؤتمر وان يطلبوا منه اما سحبها واما الانسحاب من عضوية النادي .

وقد تكلم بعض الاعضاء في هذا الموضوع قبل المؤتمر وكان بعضهم يرى ان لا حاجة الى فتح الموضوع وان الاجدر التغافل عنه وقال المسيو رادو مندوب المجر مرة ان ماريتي لا يفكر حين يتكلم فيجب ان لا نأخذ كلامه على صورته السطحية ، كما انه ليس من المناسب ان يدعى شخص الى المؤتمر ثم نطلب منه الانسحاب . وكانت هذه القضية قد لعبت دوراً قبل انعقاد المؤتمر الامر الذي جعل احد ممثلي الانكليز ان يذهب ويتكلم على حدة مع كثير من الاعضاء . وكان ذلك بعد يوم من وصوله اذ كان الممثلون الانكليز قد جاءوا متأخرين عنا في باخرة اخرى . فاول ما بادرني بالكلام حين اراد ان يتكلم معي ان سألني بالفرنسية : هل تتكلم الانكليزية ؟ فاجبته نعم اتكلمها احسن من الفرنسية .

فقال : انت تمثل اي نادي ؟

قلت : العراقي . فقال : يجب ان لا تفكر باننا الانكليز اعداء لكم !

قلت : كلا بل نحن حلفاء واصدقاء .

فقال : هذا حسن . إذ لا يجب هنا ان نجلب معنا خصوماتنا القومية . .

ولذا فليس من المعقول ان نتجادل في المؤتمر في قضية مارينتي .

والواقع ان تطور الحوادث السياسية في العام الماضي والعداء القومي الذي صحبه بين انكلترا وايطاليا فيما يخص قضية الحبشة ظاهرياً ، والسيادة البحرية في البحر المتوسط بين ايطاليا وانكلترا واقعياً ، كان الاجدر ان يظهر بين مندوبي انكلترا وايطاليا . ولكن الانكليز حذرون وسياسيون . فكان سلوك الممثلين الانكليز على شكل لم يؤد الى اصطدام بالطليان لئلا يزيدوا في العداء . اما الفرنسيون الذين لم يكن موقف حكومتهم عدائياً لايطاليا وكانوا متذبذبين في اثناء تطور الحوادث الحبشية ، كان سلوك مندوبيهم في المؤتمر عدائياً جداً . وربما كان السبب ان اكثر المندوبين الفرنسيين ، من جول رومان وكريميو ، هم من الاحرار والراديكاليين ، وجول رومان هو اشتراكي في الواقع .

وكانا مندوبو بلجيكا والسويد وفنلندا يشعرون ايضاً هذا الشعور مع الفرنسيين . وكان احد مندوبي بلجيكا — المسيو ميثو — متحمساً الى درجة ان قال يجب ان نطرد مارينتي من المؤتمر . فقلت له (وكان ذلك في حديث خارج المؤتمر) ان مجرد اسم مارينتي في المؤتمر ومناقشة آرائه سيجعل له قيمة اكبر مما هو الآن والاجدر اهماله . وهذا حقيقة ما حدث بعد ذلك .

بدأت العاصفة في المؤتمر حين قام جول رومان في ابتداء الجلسة الخامسة والقى خطاباً لخص فيه اهم ما كتبه مارينتي في المجلات دفاعا عن الحرب . فهو يقول : ان مارينتي قد خرق قرار المؤتمر فلا نقبل لذلك عضويته . فما ان انهى جول رومان كلامه حتى تحمس الممثلون

الطليان" وبدأوا في التهجم بكلامهم القارص والصياح بلهجة قاسية على جول" رومان وعلى ممثلي فرنسا . وقد حصل ضجة هائلة واصوات مزعجة وكان المرء يشعر ان وجوده في مؤتمر ثقافي كهذا له ابهته مما يقلل من قيمة الاعضاء جميعاً امام جمهور المستمعين . كما ان اديباً مشهوراً مثل جول رومان لم يكن ليناسب مركزه ان يتنازل ويناقش آراء كتبها مارينتي منذ عام !

واخيراً يقوم الدكتور ايبارگورن ويطلب من الرئيس ان يقرر المؤتمر عدم السماح لأي عضو ان يتكلم في السياسية . وكان ايبارگورن يرتعب من كل كلمة سياسية ! وهي محرمة عنده . ولكن تيار السياسة كان قد طغى على اكثر الاعضاء ومنهم من اخذ يهدئ العاصفة .

ثم تكلم المسيو دوآميل بهدوء ، وهو حقاً من اهدأ الممثلين ؛ فقال : يجب ان لا نتكلم في السياسة . فهو شخصياً يشعر مع ايطاليا . ولكنه يرغب لو ان مارينتي لم يترأس هذه الجلسة — اذ كان مارينتي قد ترأس الجلسة الخامسة من المؤتمر —

فقام مارينتي وسحب كلامه الجارح الذي وجهه الى الممثلين الفرنسيين ولكنه اصر على عدم سحبه كلامه بخصوص الحرب !

ثم وضع اقتراح الدكتور ايبارگورن بعدم التكلم في السياسة في اثناء المؤتمر وهكذا ختمت العاصفة السياسية .

لقد كان في عمل الممثلين الفرنسيين تطرف زائد اذ كان مارينتي نفسه قد وافق مع باقي اعضاء المؤتمر على قرار مقاومة الحرب في جلسة سابقة وعلى ارسال رسالة طلب السلم الى الدول . وقد كان موقف مارينتي سابقاً انه لم يجرأ ان يقول شيئاً يخالف الرغبة في السلم . ولكن هذا التهجم قد شجعه

على ان لا يسحب تصريحه السابق بشأن الحرب .

وفي آخر الجلسة تكلم المسيو رادو Rado وهو اديب مجري متقدم في السن وقد ترجم قسما من الشاهنامة الى اللغة المجرية منذ ثلاثين سنة وهو محب للشرقيين وللعرب كثيراً — عن موضوع منع بعض الدول التي فيها عناصر مجرية من قراءة كتب باللغة المجرية . فهو يسأل اللجنة التنفيذية لاتحاد نوادي القلم ان تفعل ما تستطيع في هذا الشأن لتسهل للعناصر المجرية في الدول المجاورة للمجر لتسمح لها بقراءة كتب مجرية

الجلسة السادسة

في هذه الجلسة القت السيدة صوفيا واديا مندوبة نادي القلم في بمباي (الهند) خطاباً طويلا عن موضوع « فلسفة حياة الجمهور (La Philosophie dans la vie des masses) في اللغة الفرنسية ثم تلت ترجمته الى اللغة الانكليزية ثم اللغة الكسنجانية . فاخذت بذلك معظم وقت الجلسة السادسة . والسيدة واديا اديبة فاضلة تجيد هذه اللغات الثلاث . وهي تعرف الاسبانية لأن اصلها كما علمت من اميركا الجنوبية وقد تزوجت هندياً . ولكنها تمثل الحياة الهندية احسن تمثيل من حيث اللباس والحياة الفكرية الهندية . وخطابها طويل مكتوب بلغة جميلة جذابة ، اما محتوياته فبسيطة سهلة تدور حول ما هو معروف عن التفكير الهندي من وحدة الانسانية والخدمة العامة والسلام . وقد قوبل خطابها بحماسة من قبل الجمهور ولاسيما من سيدة اديبة ومن الهند . وكان لباسها الهندي نفسه موضوع درس جديد للجمهور الارجنتيني . وكان يصحب صوفيا واديا اختها وهي آنسة فاضلة تجيد الانكليزية والفرنسية ماعدا الهندية لغة البلاد ، وهي لا تزال طالبة في السوربون .

الجلستان السابعة والثامنة

كان موضوع هذه الجلسة البحث والمناقشة حول موضوع « الذهن والحياة »("L'intelligence et la vie")وهو موضوع اقترحه المسيو كريميو . وتكلم عنه كل من الفيلسوف جاك ماريتان J.Maritain احد مندوبي فرنسا والدكتور هانز روين مندوب فنلندا والدكتور محمد عوض مندوب مصر . ومندوب العراق . وقد بحث الثلاثة الاولون في طبيعة الذكاء وفيما اذا يفي في حياة الانسان . وقد دعم كل من ماريتان وروين فكرة عدم كفايته . وتكلم ماريتان عن الدين كباعث آخر . وقد كانت هذه فرصة لفيلسوف الكنيسة الكاثوليكية المحافظ جاك ماريتان ان يبين كثلكه حتى في مؤتمر نادي القلم . وهذا ما حفز صاحبي الدكتور محمد عوض مندوب مصر ان يبدي رأيه في الموضوع

وقد كان موضوع الذهن والحياة قد بعثني ايضا على التفكير فيه ولكن من ناحية اخرى ، من ناحية علاقته بالحياة الراهنة وقد جلب نظري في الجلسات السابقة خطاب اميل لدفيك والنزاع بين المندوبين الفرنسيين والطليان حالة غير مرغوب فيها في وضع الادباء والكتاب فرأيت ان الكلام في هذا الموضوع يمكنني من عرض بضعة نقاط ذات فائدة عملية في الصلة بين الذكاء والحياة . فاعددت بعد انتهاء هذه الجلسة وكان هذا الموضوع عينه قد جعل موضوع الجلسة الثامنة ايضا خطابا في الانكليزية بصورة مستعجلة ، وذلك اولا لأجلب نظر من تكلم قبلي في هذا الموضوع الى اهمالهم البحث في الصلة بين الذكاء والحياة ، وثانيا اردت ان ابحث فيما اسميته The Crisis of Intelligence

اي ازمة الذهن ، وهي الظاهرة التي نشهدها الان في العالم ولا سيما في اوروبا حيث الحركات الرجعية تستنقص من اهمية التفكير والمفكرين .

اما نص خطابي فهو مرفق بهذا التقرير . واقول ـ بلا فخر لي ـ وانما الفخر لوطني العراق ـ ان خطابي لقي ترحيبا مناسبا من الاعضاء وحماسة شديدة من جمهور المستمعين ولا سيما لاحتوائه على آراء حرة لان كثيرا ما يفكر الغربيون اننا دائما محافظون .

وفي ظهر اليوم العاشر من ايلول كان رئيس الجمهورية قد دعا اعضاء المؤتمر لتناول الغداء في قصر الرئاسة مع مدعوين آخرين من كبار رجالات الارجنتين . وقد حضر اكثر الاعضاء الدعوة واعدت موائد رتبت بشكل لطيف وكانت مأدبة فخمة من حيث ابهة المكان والمآكل وقد القى فخامة رئيس الجمهورية خطاباً باللغة الكستجانية واعطيت لنا ترجمته الفرنسية مطبوعة على حدة . وكان رئيس الجمهورية قد طلب سابقاً ان يكون الرد على خطابه من شخص لا يتداخل في السياسة . فاختير المسيو دوآميل لعدم ميله للسياسة . وكانت هذه المأدبة فرصة للاعضاء — ولاسيما قبل الطعام وبعده — للتحدث مع رئيس جمهورية الارجنتين وغيره من كبار رجال الدولة .

الجلسة الاخيرة

كان موضوع البحث فيها « مستقبل الشعر » . وقد تكلم في ذلك مندوبو هولندا وزيلندا الجديدة ومندوبة مدينة شيكاغو والدكتور كاليداس ناك مندوب فرع كلكتا في الهند . ومع ان كل خطيب قد تناول الموضوع من جهة خاصة الا انهم قد شذوا عن الموضوع واكدوا شأن

الشعر والشعراء الجليل في الحياة . وربما كانت خطبة المستر اندرسن مندوب زيلنده الجديدة — مع انه لم يلاق انتباهاً من الاعضاء — احسن ما قيل في نظري في هذا الموضوع . وكان خطاب الدكتور كاليداس ناگ Kalidas Naq وهو استاذ في جامعة كلكتا وشخصية محبة لكل شرقي وخريج جامعة اكسفورد — طويلا وصف فيه باسهاب ان اثر الشعر في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء وكان كثيراً مايكرر العبارات والمترادفات ويذكر امثالا من الشعر الهندي الذي لم نفهمه .

ثم جرت في هذه الجلسة عدة انتخابات . منها انتخاب جول روماني لرئاسة اتحاد نوادي القلم بدله ج. ولز. اماسكرتارية الاتحادفبقيت للمستر اولد (Ould) الانكليزي . واعلن ايضاً ان المؤتمر المقبل سيكون في مدينة روما بناء على دعوة موجهة من قبل نادي القلم في روما .

واقترح ايضاً احد الاعضاء ارسال كلمة شكر الى الصحافة الارجنتينية نظراً الى شديد اهتمامها بالمؤتمر وتتبعها حوادثه .

الاستاذ جعفر خياط

الحركة العلمية

في العهد العباسي

أطلت العقلية العربية من الجزيرة بعد ان بزغ فجر الاسلام وسطع نوره وطبق الخافقين واستمعت لصوت الحق الصريح الذي اعلنه محمد فدوى في انحاء الجزيرة دوياً شديداً رددت صداه انحاؤها في شمابها ووديانها وسهلها وجبلها فاستفاقت من رقدتها ونهضت من كبوتها والعالم الوسيع أمامها . ودفعها دافع الايمان القويم والعقيـدة الراسخة الى اشعاع النور الذي افاضته الجزيرة على انحاء العالم لهداية البشر بعد أن ظل الانسان يتسكع في دياجير الضلال حيناً من الدهر . فخرجت هذه العقلية وهي عزلاء ليس لها ما يعينها اذا تمرست بعشا كل هـذا العالم سوى جوهر خالص كان مرمياً في مجاهل الأرض وأيمان قوي تفجرت ينابيعه من مكة القاحلة .

وفي أقل من مائة سنة كانت راية الاسلام التي دبرت فتوحها العقلية العربيـة تخفق على معظم أنحـاء المعمورة من ضفاف بحر الظلمـات (الانطلانتيك) وجبال البرانس غرباً الى مجاهل الصين والتركستان شرقاً . على أن حالة الفتح والحروب المستمرة لم تثن العقلية العربية عن أن تجوب آفاق المعرفة ومجاهل العلم . فقد رافقت الفتوح المذكورة



الاستاذ جعفر خياط

نهضة فكرية شاملة كان دافعها في الدرجة الاولى علوم الفقه والحديث والتفسير وحركة ادبية واسعة النطاق كانت تغذي العقلية العربية فيها باقي المدنيات التي احتكت بها في سورية والعراق ومصر وايران والأندلس ووسائلها الحديثة التي لم يكن معظم العرب ليحتكوا بها من قبل. وظلت النهضة الفكرية عند العرب على عهد الامويين كله مقتصرة على التوسع في علوم الدين وفنون الادب واللغة غالباً. وبقيت الحركة العلمية التي تتناول ما نسميه بالعلوم في الوقت الحاضر من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وطبيعيات وما اشبه حركة ضئيلة جداً لا يكاد يكون لها أثر يذكر سوى بعض المحاولات لترجمة بعض الكتب الطبية في أيام مروان بن الحكم.

غير أن العقلية العربية التي لم يتسن لها أن تصبح علمية في الشام عاصمة العرب حتى الآن قد وجدت لها في بغداد عاصمة العباسيين وكراً ما فتئ حتى أصبح صرحاً شامخاً على دجلة يستمد وحيه من تقدم الحضارة الاسلامية تقدماً محسوساً بعد أن جمع الاسلام بين العرب وغيرهم من الشعوب فتلقحت العقلية العربية حينئذٍ بلقاح جديد زاد في خصبها وابداعها على ما سنرى من البحث التالي.

استقام الأمر للعباسيين في داخل الامبراطورية وخارجها فاستقام أمر المدنية العربية الزاهرة وبرزت العقلية العربية الى ميدان العلم بعد أن تعبت من ميادين الفتح والقتال او أن شئت فقل تفرغت لميدان العلم بعد أن انجزت توطيد دعائم الاسلام والعروبة في ميادين القتال ما يسجله التاريخ بعداد الفخر والاعجاب. وتلفتت فاذا بالعلوم الحقيقية وهي علوم الطب والفلك والرياضيات والكيمياء وغيرها قد باتت في

طي الاهمال بعد أن دبجتها يراعة فطاحل الأغريق القـدماء وانتجتها عقول الهنود السالفين . وكانت هذه العلوم التي كتبت باللغة الاغريقية والسنسكريتية وبعضهـا بالفارسية والآرامية والسريانية كل ما كان يملك العـالم بأجمعه من ثروة علمية . فجاءها العربي المسلم من البادية مجهزاً بذكاء وحب استطلاع شديدين ومزوداً بشره غـير متناه للتعلم وبقابليات كثيرة أخرى. فبدأ يتلمها ويعدالعدة لاستيعابها واصلاحها وبناء ما تنتجه عقليته الحادة وقريحته الوقادة من صرح العلوم عليها . وأنى له ذلك وتلك الثروة العلمية البائدة مبعثرة هنا وهناك ومكتوبة بلغات ولهجات غريبة شتى . فعقد النيـة على تتلمها وترجمتها الى لغتـه المطواعة . ومن هناك بدأ دور الترجمـة . وما مر على تأسيس بغـداد مدينة العلوم ثلاثة أرباع العصر الواحد حتى كانت اللغة العربية العتيدة قد استوعبت أهم مؤلفات أرسطو وافلاطون الفلسفية وأغلب كتب غالين (جالينوس) الطبية وكثيراً من الكتب العلمية المنقولة عن الهندية والفارسية . وفي خلال سنين معدودة هضمت العقلية العربية العلوم التي استغرق الأغريق القدماء في تحضيرها القرون الكثيرة وتمثلتها ثم بدأت بالتوسع والابداع فيها .

ولو رجعنا الى المراجع التاريخية الكثيرة في هـذا الشأن وأحصينا المناهل العلمية التي نهل منها العرب في صدر الدولة العباسية نجد أنها لا تخرج عن كونها أغريقية وهندية في الدرجة الاولى . أما الفارسية فلم يكن لها تأثير في النهضة العلمية آنئذ وانما انحصر تأثيرها في الفنون الجميلة والآداب وما اشبه .

وقد سارت حركة الترجمة سيراً حثيثاً في صدر الدولة العباسية ولهتم

بها الخلفاء والأمراء اهتماماً خاصاً. فقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور نفسه ترجمة كتاب « السذانتا » (السندهند ـ بالعربية) الهندي الى العربية لِما كان يحويه من معلومات قيمة في علم الفلك . وطلب أيضاً من انبراطور البيزنطيين أن يرسل اليه الكتب العلمية القديمة ومنها كتب أقليدس في الرياضيات . وكان الرشيد يحث على التفتيش عن الكتب العلمية الأغريقية بين الغنائم في حروبه في بلاد الروم . كما أن المعروف عن المأمون أنه بعث بعثة خاصة الى الانبراطور ليو الارمني في القسطنطينية لجمع الكتب اليونانية العلمية وجلبها الى بغداد .

وبدأ دور الترجمة في العصر العباسي حوالي سنة ١٥٦ هـ (٧٧٣ ميلادية) حين قدم بغداد أحد السياح الهنود ومعه رسالة مشهورة في علم الفلك وهي (السندهند) . فأمر المنصور محمداً بن ابراهيم الفزاري (وهو أول فلكي في الاسلام) بترجمتها . وترجمت بعد هذه رسائل أخرى في علم الفلك من الفارسية الى العربية وكان المترجم الفضل بن بوبخت أمين مكتبة الرشيد حوالي سنة ٨١٥م ومن بعد هذا فتح باب الترجمة على مصراعيه في شتى العلوم ولاسيما في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة .

ومما يدل على اهمية الترجمة والاعتناء بنهضتها في صدر الدولة العباسية أن حنين بن اسحق لما كان يشتغل بالترجمة بمعية أبناء شاكر كان هو وزملاؤه يأخذون مرتباً شهرياً مقداره ٥٠٠ دينار حينئذ . وأن الخليفة المأمون كان يدفع له لقاء ترجمة الكتب ما يعادلها بالذهب .

ومن أقدم المشتغلين بترجمة الكتب العلمية في العصر العباسي « أبو يحيى بن البطريق » الذي اشتغل بترجمة عدة كتب ما بين عامي ٧٩٦ م

و ٨٠٦ م اذ ترجم للخليفة المنصور أشهر مؤلفات غالين الأغريقية في الطب وكذلك ترجم كتب بقراط . وقام ابو يحيى ايضاً بترجمة كتاب «الرباعيات» لبطليموس وكتاب المبادئ لاقليدس وكتاب «المجسطي» وهو الكتاب الفلكي العظيم الذي ألفه بطليموس .

واشتهر بعد أبي يحيى من المترجمين يوحنا بن ماسوية . وهو من تلاميذ جبريل بن بختيشوع عميد الاسرة الطبيــة المشهورة في العصر العباسي واستاذ حنين بن اسحق الذي سيأتي البحث فيه. والمعلوم عن يوحنا بن ماسوية أنه ترجم للرشيد بعض المخطوطات الطبية التي جاء بها من انقرة بعد رجوعه من حروبه في بلاد الروم .

على أن شيخ المترجمين وعميدهم الاكبر هو حنين بن اسحق الذي عاش من سنة ٨٠٩ م الى ٨٧٣ م . وتدل المعلومات الكثيرة المدونة فيه في كتب التاريخ على أنه كان من أعظم علماء عصره وأبلغهم شخصيــة . وتبدأ حياته العلمية بقصة طريفة ترويها كتب التاريخ عنـه ولا بأس بأن نلخصها هنا . كان حنين بن اسحق فتى يافعاً يساعد الطبيب يوحنا بن ماسوية . وحدث يوماً أن يوحنا أراد مداعبته وممازحته بشيء من الخشونة . فقال له أن أهل الحيرة (وحنين من اهلها) ليس من شغلهم الطب وخير لهم أن يشتغلوا بصرافة النقود في السوق فعد حنين ذلك اهانة لطموح الشباب الذي كان يتدفق منه . وترك استاذه ابن ماسوية والدموع ملء عينيه مصمماً على دراسة اليونانية وتعلم الطب . فالتحق بأبناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين كانوا يشتغلون حينئذ بنقل الكتب وجمع المخطوطات . فاستفادوا من مواهبه وأوفدوه مراراً الى مختلف البلدان لقضاء مهماتهم . وبقي دائباً على تعلم اليونانية بكل نشاط حتى

اسحق ببيختشوع طبيب المأمون الخاص . وقد عينه المأمون بعد ذلك اميناً لمكتبته . وبالنظر الى نشاطه وقابليته أصبح مشرفاً على أعمال نقل العلوم وترجمتها كافة ودرب معه أخيراً على هذا العمل عينه ولده اسحق وحفيده حبيش بن الحسن . الا ان فضل حنين في ترجمة الكتب العلمية الكثيرة يعود اليه في ترجمتها من الأغريقية الى السريانية . وكان من ثم يأخذها زملاؤه وتلامذته فينقلونها من السريانية الى العربية. فنقل حنين بهذه الواسطة الى العربية معظم مؤلفات غالين وبقراط وديسقوريدس العلمية . هذا فضلا عما نقله من الكتب الفلسفية عن الأغريقية كجمهورية افلاطون (وسماها السياسة) و « مقولات » افلاطون وكتاب « الخلقيات » (Magna Moralia) . ونقل كتاباً في الطبيعيات سماه « الطبيعيات » . غير ان اهم الكتب التي نقلها على الاطلاق هي مؤلفات غالين في الطب . وبهذه الواسطة بقيت الترجمة العربية لكتب غالين السبعة في التشريح التي ضاع اصلها الأغريقي محفوظة .

ولم تقتصر همة حنين على براعته في الترجمة ونقل الكتب الى العربية بل كان طبيباً حاذقاً اذ عينه الخليفة المتوكل في عام ٨٤٧ م . طبيباً خاصاً له . ومن طريف ما يروى عنه بهذه المناسبة ان الخليفة المتوكل حكم عليه بالسجن مدة سنة واحدة بناء على رفضه استحضار جرعة خاصة من السم لعدو من اعداء الخليفة رغم عرض مكافأة كبيرة عليه لقاء ما طلب منه . ولما هدده الخليفة بالقتل أجابه «أن لي حذقاً بما هو نافع. ولم أدرس غير ذلك » . ولما سأله الخليفة عن سبب تماديه في الامتناع اجاب « منعني شيئان هما : دياني وحرفتي . اذ تقضي دياني بعمل الخير

حتى للعدو فكيف بالصديق . وان حرفتي انما هي لمصلحة البشرية تخفف آلامها وتقضي بصلاحها . هذا فضلا عن كون كل طبيب في عنقه قسم بأن لا يعطي انساناً ما دواء مميتاً .

ويأتي بعد حنين بن اسحق في عالم الترجمة والنقل في صدر الدولة العباسية ثابت بن قرة . وثابت هذا هو صابئي من حران والصابئة بحكم ديانتهم كانوا على اطلاع تام بالنجوم ومسالكها وبالفلك وخباياه . وقد برع هو مع من جاء من بعده من ابنائه واحفاده الذين اشهرهم ولداه ابراهيم وسنان ثم احفاده ابو الفرج والبتاني في علوم الهيئة والتنجيم وفي العلوم الرياضية واليهم يرجع الفضل في نقل اهم الكتب في هذه الموضوعات من الاغريقية وغيرها الى العربية ولاسيما مؤلفات ارخميدس وابو لونيوس . ثم انهم قاموا بتنقيح سائر الكتب العلمية التي نقلوها الى العربية .

وآخر من نقح كتاب « المجسطي » في الفلك كان أبو الوفاء محمد بن البزجاني الحاسب الذي كان يعد من اعظم الرياضيين الفلكيين في الاسلام .

واشتهر بعد هؤلاء من المترجمين كثيرون ممن اثروا في سير الحركة الفكرية بخطى واسعة في العصر العباسي . الا اننا اغفلنا ذكرهم لعدم ترجمتهم الكتب العلمية التي نحن بصددها .

استمرت حركة الترجمة ونقل الكتب العلمية وغيرها من اللغات الاجنبية الى العربية مدة تزيد على القرنين كانت في اثنائها الحركة العلمية نشيطة وكان العمل فيها على قدم وساق . وما انقضى هذا الدور حتى انتقل الى العربية كل الثروة العلمية التي كانت في العالم . ويذكر ابن أبي

اصيبعه ومن بعده القفطي ان حركة الترجمة نقلت الى العربية مالا يقل عن مائة مؤلف من الاغريقية وحدها وكان كل ذلك بهمة اعلام الترجمة الذين سر ذكرهم والذين دفعهم الى ذلك وشجعهم عليه الخلفاء الذين بنوا المدنية العباسية ووضعوا اسسها فأحكموها على ما سبق ذكره بينما كان الغرب يتسكع في دياجير الظلام ويغط في سبات عميق حتى دوى في آذانهم صوت النهضة الاوربية التي بنيت على الثروة العلمية العربية التي بدأوا ينهلونها من مناهل بغداد واوربه العربية (الاندلس)

وقبل ان نترك البحث في دور الترجمة في الحركة العلمية في صدر الدولة العباسية لا بد لنا ان نشير هنا الى الشبه الموجود بين تلك النهضة العلمية الميمونة التي كانت نتيجتها ان حفظ تراث العالم العلمي على يد العرب وبين نهضة العالم الاسلامي او العالم العربي منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . فهل سنتخطى هذا الدور يوماً ما وننتقل الى دور الابداع والاختراع ؟

وبعد ان يأتي بنا البحث الى هنا ننهي دور الترجمة الذي وضع أسس الحركة العلمية في العهد العباسي ونهضتها وننتقل الى الدور الذي أصبحت فيه العقلية العربية الاسلامية عقلية علمية مبدعة جادت بالاختراعات وانتجت ثروة وفيرة من العلوم ماعرفه القاصي والداني . لان دور الترجمة ذاك اصبح مثمراً وان ثماره اينعت وحان قطافها . وما حل القرن العاشر للميلاد حتى اصبحت اللغة العربية التي لم تكن قبل الاسلام سوى لغة شعر وادب والتي صارت بعده لغة دين وعقائد حتى استحالت بصورة عجيبة الى لغة سلسة سهلة الانقياد أستوعبت جميع التعابير العلمية ووسعت الآراء والمذاهب الفلسفية كافة . وغدت في الوقت عينه

لغة سياسة وظرف وكياسة . وبقيت كذلك حتى يومنا هذا . وقد ساعد توسع اللغة هذا وانطباعها بطابع المدنية الزاهرة على الانتاج العلمي الحقيقي والابداع الذي سنبدأ بحثنا فيه .

بعد أن نقلت الكتب العلمية الى اللغة العربية تداولتها ايدي الطلبة والباحثين وعكفت عليها العقلية العربية تصقلها وتجتهد فيها فتضيف اليها وتعدل ما جاء فيها حتى توفرت للعالم من ذلك ثروة علمية جديدة ظل يدرسها الطلبة في شتى المعاهد حتى اخذتها النهضة الاوربية الحديثة فبنت عليها علومها الحديثة ولا يخفى عليكم ان مدى توسعها والأوج الذي بلغته في هذا العصر .

كان من اهم العلوم التي وجهت اليها العناية الفائقة واشتغل بها العلماء اشتغالا جدياً منتجاً علم الطب لان العرب مارسوه في صدر الدولة العباسية وبعده فابدعوا وألموا فيه حتى أصبح مهنة محترمة تدر على محترفيها الربح الوفير . وما اكثر الاخبار عن دخل الاطباء المشهورين كآل بختيشوع وغيرهم وعن مبلغ اكرام الناس لهم . على ان اشتغال العرب بالطب لم يقتصر على احتراف المهنة وعلاج المرضى فحسب بل تعداه الى ادراك أهمية الصحة العامة وتأسيس المستشفيات والصيدليات ووضع الانظمة لاحتراف الطب والصيدلية وفرض النظافة على الجمهور والمحلات العامة . ونتج من ذلك ان الصيادلة والاطباء كان يتحتم عليهم الحصول على اجازة خاصة من اولي الامر قبل شروعهم في مهنتهم بين الناس .

وما ان تقدمت الحركة العلمية في بغداد ومر دور الترجمة فحل دور الخلق والابداع والتأليف حتى اشتهر في عالم الطب رجال أعلام يسجلهم تأريخ العلوم بين ابطال العلم ورواده . واشهر من بلغ هذه المرتبة في

العصر العباسي وتخلد اسم اعلام اربعة وهم علي بن الطبري والرازي وعلي بن العباس المجوسي وابن سينا .

أما علي بن الطبري فقد عاش في ايام الخليفة المتوكل وكان طبيبه الخاص . ومن آثاره الكتاب المسمى « فردوس الحكمة » وهو من اقدم كتب الطب العربية الباقية وكان هذا الكتاب جامعاً للمعلومات الطبية في ذلك العهد مع معلومات اخرى في عالم الفلك والفلسفة .

ومن اشهر تلاميذ علي بن الطبري وانبغهم ابو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي ذاع صيته في عالم الطب وبقي اسمه مخلداً حتى الآن ويعد الرازي من اعظم الاطباء المسلمين ابداعا واختراعا ومن اخصبهم فكراً وتأليفاً . ومن طريف ماروي عنه لما كان كبير اطباء مستشفى بغداد ان الخليفة لما كلفه اختيار مكان مناسب لتشييد بناء جديد للمستشفى أنه اختار عدة مواقع في بغداد فعلق فيها قطعاً من اللحم مدة من الزمن كان يتردد في خلالها اليها ويفحصها لترى أي القطع تسرب اليه الفساد بسرعة وأيها تعفن كثيراً . واختار بنتيجة ذلك المكان الذي تطرق الفساد فيه الى قطع اللحم المعلقة . وهذا مايدلنا دلالة واضحة على الروح العلمية حينذاك وعلى مقدار تغلغلها في النفوس ويدون ابن النديم في فهرسته المشهور مايزيد على ١٤٠ مؤلفاً من مؤلفات الرازي كان فيها اثنا عشر مؤلفاً في الكيمياء واشهرها الكتاب الذي سماه (كتاب الاسرار) وقد ترجم كتاب الاسرار هذا عدة مرات الى اللاتينية وكانت افضل ترجمة له ترجمة (جرارد الكرموني) . وبقيت المنبع الوحيد للمعلومات الكيماوية الى القرن الرابع عشر الميلادي حين ظهرت مؤلفات جابر بن حيان الكوفي . ومن اهم ما كتبه

الرازي واشهره رسالته في « الحصبة والجدري » . وتعد هذه الرسالة اقدم ما كتب في الموضوع ويعتبرها العالم درة يتمية بين التـآليف العربية الطبية لأنها تضم جميع المعلومات الطبية في الموضوع مفرغـة في قالب متقن حسب الفن المسريري لذا ترجمت الى اللاتينية في البندقية سنة ١٥٦٥ م وترجمت بعد ذلك الى كثير من اللغات الحديثة . وكانت هذه الرسالة كافية لاعتبار الرازي اقدم المبـدعين واعظم الاطباء في القرون الوسطى على الاطلاق . غير ان اهم مؤلفاته كتاب « الحـاوي » الذي ضمنه الرازي جميع ماعرف في الطب ولاهمية هذا الكتاب ترجمه الاوربيون عدة مرات فترجمه اول مره الى اللاتينيـة الطبيب اليهودي فرج بن سليم الصقلي عام ١٢٧٩ م وبعد ذلك طبع عدة طبعات حتى كانت الطبعة الخامسة تتداولها ايدي الاطباء في البندقية بأيطاليـة سنة ١٥٤٢ م . ويظهر من هذا ان مؤلفات الرازي التي طبعت باللاتينية في وقت كانت فيه الـكتب عزيزة ثمينـة كان لها الأثر البين في توجيـه العقلية العلمية في اوربة لما بدأ الاوربيون بتشييـد صرح مدنيتهـم الحديثة .

ويأتي بعد الرازي من لاطباء المشهورين في العهـد العباسي علي بن العباس المجوسي الذي اشتهر بكتابه الطبي المسمى (كامل الصناعة في الطب) ويعد هذا الكتاب ادق واتقن من كتاب الحاوي الذي كتبـه الرازي من قبل . ولذا بقي يدرس الى ظهور كتاب «القانون في الطب» لابن سينا . واحسن ما تضمنه هذا الـكتاب بحثه في ترتيب الاغـذية (Dietetics) وفي المادة الطبية . ومن المعلومات الطبية الجديدة التي جاءبها علي بن العباس في كتابه مبادئ فكرة المجموعة الشعرية وانتشار

الشرايين والاوردة .

وظهر بعد هؤلاء الاطباء العظام الثلاثة الشيخ الرئيس ابن سينا . ولم يكن ابن سينا طبيباً فحسب بل كان شخصية علمية بارعـة وفيلسوفاً مشهوراً وشاعراً اديباً لذا انتهت عنده علوم العرب فوصلت الى اوجها وقد ذكرت له كتب التاريخ تسعة وتسعين مؤلفاً تبحث في مختلف العلوم كالفلسفة والطب والهندسة والفلك وعلم الـكلام والفنون الجميلة . غير ان اهم مايجدر بنا ذكره من مؤلفاته العلمية هنا كتاب « الشفاء » وكتاب « القانون في الطب » ولاهميـة كتاب القانون هـذا كان الاوربيون اول من طبعه بالعربية في رومية عام ١٥٩٣ ثم ترجمـه الى اللاتينية (جرارد الكرموني) في القرن الثاني عشر للميلاد . وبناء على احتواء هذا الكتاب على جميع المعلومات الطبية اصبح اول كتاب طبي يدرس في المعاهد العلمية في اوربة في القرون الوسطـى . ومما يدل على انتشار هذا الـكتاب العلمي العربي وعظم شأنه انه طبعت منـه خمس عشرة طبعة باللاتينية وطبعة واحدة بالعربية في ثلاثين السنة الاخيرة من القرن الخامس عشر للميلاد .

وفي هذا الـكتاب بيان مفصل للفرق بين ذات الجنب والتهاب الحيزوم (Mediastinitis) . وبحث في عـدوى مرض السل الرئوي وفي انتشار الامراض بواسطة الماء والتراب . ثم انه يشخص تشخيصاً علمياً مرض (الانكلوستوما) ويعزيه الى دودة معوية . اما فصله الذي يبحث في المادة الطبية ومفردات النبات ففيه بحث في ٧٦٠ دواء منها . وعلى هذا عظمت اهمية هذا الكتاب العلمية وبقي دليل العلوم الطبية في اوربة في القرن الثاني عشر الى القرن السابع عشر للميلاد حتى قال فيـه احـد

الغربيين « لقد اصبح انجيلا للطب مدة طويلة اكثر من كل كتاب اخر »

وكان من الاطباء المشهورين في العصر العباسي بعد ابن سينا علي بن عيسى الكحال الذي كتب كتاب « تذكرة الكحالين » الذي بقيت نسخته الخطية سالمة حتى الآن . ويشرح المؤلف في هذا الكتاب شرحاً متقناً ١٣٠ مرضاً من امراض العيون . واشتهر بعد هذا الطبيب ابن جزلة مؤلف كتاب « تقويم الابدان في تدبير الانسان » وكذلك الطبيب يعقوب ابن اخي حذام وهو مربي خيل الخليفة المعتضد . ولذا كتب رسالة في الفروسية وتربية الخيل سماها « الفروسية وسياسة الخيل » . وهذا اول كتاب عربي من نوعه في هذا الموضوع وفيه شيء من مبادئ الطب البيطري .

وقد نشطت في العهد العباسي في بغداد وغيرها حركة الاشتغال بالعلوم الرياضية والفلك . ونبغ في هذه الفروع الكثيرون من المسلمين والعرب الذين يعتبرهم التاريخ من واضعي هذه العلوم ومؤسسيها وبدأت هذه الحركة منذ ان امر الخليفة المنصور بترجمة الكتاب الهندي المسمى (سذانتا ـ سندهند) الذي قام بترجمته محمد بن ابراهيم الفزاري . وعقب ذلك ترجمة الجداول البهلوية (الزيج) . كما ان ترجمة « المجسطي » كان لها الاثر الاول في الاشتغال بهذه العلوم والاعتكاف على حل قضاياها الغامضة وبعد ان حصل المسلمون على هذه الثروة العلمية في الفلك والرياضيات بدأوا يضيفون اليها بعد الدرس والتنقيب .

وكان من اكبر الحوافز التي ساعدت على الاشتغال بعلم الفلك والتوسع فيه تأسيس الخليفة المأمون « المرصد الفلكي » الذي أقيم في بغداد

بالقرب من « باب الشماسية » وجعله جزءاً من معهده العلمي الذي أسماه « بيت الحكمة » . وقد عهد رئاسة هذا المرصد الى سند بن علي ويحيى ابن ابي منصور . وفي هذا المرصد اشتغل فلكيو العرب برصد حركات الشمس رصداً منتظما واثبتوا بالتجربة كل ماجاء في كتاب المجسطي فيما يختص بالكسوف والمدارات وطول السنة الشمسية وما اشبه . ولم يكتف المأمون بمرصد بغداد بل أمر بانشاء مرصد آخر بالقرب من الشام في « قاسيون »

أما محمد بن ابراهيم الفزاري وهو أول فلكي المسلمين فكان اول من صنع الاسطرلاب المشهور . واول من كتب في العربية في هذه الآلة الفلكية علي بن عيسى الاسطرلابي الذي عاش في بغداد والشام قبل سنة ٨٣٠ م .

ومن أعجب ما قام به الفلكيون على عهد المأمون أدق العمليات الفلكية . فقد قاسوا واحتسبوا طول الدرجة الارضية . وكانت غايتهم المتوخاة من ذلك تعيين حجم الارض وطول محيطها باعتبارها كروية الشكل . وقد جرت القياسات من اجل ذلك في سهل سنجار بقرب الفرات الشمالي وبالقرب من بلدة تدمر في سورية . فكانت النتيجة ان بلغ طول الدرجة الواحدة من دائرة نصف النهار $\frac{٢}{٣}$ ٥٦ الميل. ودقة هذا الحساب في ذلك العهد مما يثير الاعجاب لأن هذه النتيجة لا تفرق عن الحساب الدقيق في الوقت الحاضر لطول الدرجة في ذلك الموقع الا بمقدار ٢٨٧٧ قدماً . وعلى هذا احتسبوا محيط الارض فوجدوه يبلغ ٢٠٠٠٠ ميل وقطر الارض ٦٥٠٠ ميل . وممن اشتغل بهذا الحساب الخوارزمي وهو الرياضي المسلم العظيم صاحب الجداول الرياضية المسماة

« جداول اللوغارثم » في الوقت الحاضر والمستعملة في الرياضيات حتى الآن . وكان أول انتقالها الى الغرب أن ترجمها الى اللاتينية سنة١١٠٦م اديلارد .

وفيما عدا مرصد المأمون كانت مراصد اخرى بقيت مدة طويلة من الزمن ، أهمهـا المرصد الخاص الذي اسسه واشتغل به بنو موسى بن شاكر في دارهم ببغداد . وأسس السلطان شرف الدولة البويهي سنة ٩٨٢ م مرصداً آخر في قصره ببغداد فاشتغل فيه الفلكيون عبدالرحمن الصوفي وأحمد الصاغاني وأبو الوفاء .

وظهر من الفلكيين في العهد العباسي كثيرون . غير ان اعظمهم شأناً من الوجهة العلمية هم أبو عبدالله محمد بن جابر البتاني ومحمد بن أحمد البيروني وعمر الخيام .

عاش البتاني بين سنتي ٨٧٧ و ٩١٨ وكان صابئاً في أصله من حران . وقد نبغ نبوغاً مفرطاً في علم الفلك فعد بحق أعظم الفلكيين في زمانه ومن عظمائهم في التاريخ الاسلامي وكان يعتبر البتاني من الباحثين المبدعين . واشتغل في مرصد له بالرقة فنقح كثيراً مما جاء في كتب بطليموس وأصلح طريقة حساب مدارات القمر وبعض النجوم السيارة . كما انه اثبت امكان حدوث كسوفات دائرية في الشمس وحسب بدقة متناهية انحراف الكسوف وطول السنة الاستوائية والفصول ومدار الشمس الحقيقي .

ويعتبر البيروني اكبر المبدعين والمفكرين في العلوم الطبيعية والرياضية الذين انجبهم الاسلام على الاطلاق . وقد كتب البيروني للسلطان مسعود ابن السلطان محمود الغزنوي المشهور كتاب «القانون المسعودي في الهيأة



الأستاذ عبد المسيح وزير

والنجوم » فضمنه جميع المعلومات الفلكية . وكتب في تلك السنة ذاتها رسالة على طريقة السؤال والجواب سماها « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » ضمنها معلومات هندسية وحسابية وفلكية وتنجيمية . على ان اول كتاب كتبه كان « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ويتناول بحثه في الدرجة الاولى فيه تقاويم الاقدمين وحساباتهم ويبحث البيروني في كتبه باجمعها بكل ذكاء وحذق في نظرية دوران الارض حول محورها ويحسب الحسابات الدقيقة في خطوط الطول والعرض . ومما قدمه الى العالم من المعلومات العلمية على طريق الابداع بحثه في نبع المياه المعدنية من ينابيعها حسب قانون توازن السوائل وبحثه في ان وادي السند كان في السابق في قعر البحر ثم ارتفع بواسطة الرسوب ثم بحثه او وصفه بعض شواذ الخلقة .

أما عمر الخيام فلم يكن فيلسوفاً شاعراً فحسب بل كان فلكياً رياضياً من الطبقة الاولى . وتقتصر حياته العلمية على اشتغاله في مرصد نيسابور الذي اسسه جلال الدين ملكشاه السلجوقي سنة ٤٦٧ هـ ومن جملة ما انتجه هذا المرصد اصلاح التقويم المدني حسب الحسابات الدقيقة في استخراج طول السنة الاستوائية بالضبط . وبذا اخرج كتاب « التاريخ الجلالي » وكان هذا يتضمن احدث التقاويم وادقها .

ولا بد من ان نذكر هنا علم التنجيم الذي يمت الى علم الفلك بصلة . فنقول انه لم ينبغ فيه من المسلمين في العصر العباسي ويصبح ذا شهرة تاريخية الا أبو مشعر الخراساني الذي ترجمت اربعة من كتبه الى اللاتينية في القرن الثاني عشر، ترجمها حنا الاشبيلي واديلارد. ولم تكن هذه الكتب سبباً في نقل المعتقدات الغريبة في النجوم فحسب بل

نقلت الى اوربة قوانين المد والجزر ايضاً لان ابا مشعر يبحث فيها بحثاً مسهباً ويتناول بحثه ايضاً علاقتها بشروق القمر وغروبه ·

ولو اكتفينا بهذا فيما يختص بنشاط حركة علم الفلك في العصر العباسي ورجعنا الى الاشتغال بالعلوم الرياضية في ذلك العهد لوجدنا ان الحركة العلمية الرياضية كانت قائمة على قدم وساق ايضاً · وقد التفت العرب للرياضيات اول مرة في هذا العهد في ايام أبي جعفر المنصور ايضاً لان السائح الهندي الذي جاء برسالة (السند ـ هند) الفلكية الى بغداد جاء برسالة اخرى في الرياضيات · وبواسطتها أخذ العرب نظام الارقام الحسابية التي نستعملها في العربية في الوقت الحاضر والتي نسميها «الارقام الهنديه» وادخل استعمال الصفر مع هذه الارقام ايضاً . ولذا يصح ان نقول ان النهضة في العلوم الرياضيه تبدأ في العصر العباسي بترجمة الفزاري هذه الرسالة الرياضية الى العربية . ولم يشع استعمال الارقام بسهولة الا لما شاع استعمال جداول الخوارزمي وحبيش الحاسب ما بين سنتي ٨٦٧ و ٨٧٤ م على انا نجد ان شيوع الارقام لم يتسم بسرعة حيث نجد ان محمداً الكرخي وهو من رياضيي العرب المشهورين يستعمل في كتابه الظاهر في سنة ١٠١٩ م الكلمات بدلا من الارقام . وظل قسم آخر يستعمل الحروف الابجدية بدلا من الارقام على ان احمد النسوي الذي كتب كتاب « المقنع في الحساب الهندي» والذي يشرح فيه قسمة الكسور واستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية بصورة تكاد تشابه الطريقة الحديثة الان استعمل الارقام الهندية كما استعملها الخوارزمي قبله .

ونبغ في الرياضيات في العصر العباسي كثيرون . على ان نكتفي

هنا بذكر الخوارزمي وحده لان هو وحده كان السبب في توجيه الرياضيات وتقدمها . فقد كانت للخوارزمي الذي عاش بين سنتي ٧٨٠ و ٨٥٠ م عقلية علمية واسعة وهو يعد من اكبر العلماء في التاريخ الاسلامي لانه فضلا عن تحضيره الجداول الرياضية المشهورة وتسهيل الرياضيات بواسطتها كتب أقدم كتاب في الحساب . ولا توجد الا ترجمته في الوقت الحاضر . كما انه كتب أقدم كتاب في الجبر وهو كتاب « حساب الجبر والمقابلة » الذي يذكر فيه ما يقارب ٨٠٠ مسألة جبرية وبحلها . وهذا الكتاب مفقودة نسخته العربية ايضاً الا أن ترجمته الى اللاتينية التي قام بها (جرارد الكرموني) في القرن الثاني عشر للميلاد انتشرت في اوربة وبقيت بيد الطلبة في الجامعات الاوربية الى القرن السادس عشر . وبهذا الكتاب نقل علم الجبر مع اسمه الى اوربة وبقي حتى الآن . ويرجع الفضل في نقل الارقام العربية ـ الافرنجية الآن ـ الى اوربة الى هذا الكتاب ايضاً .

وأثر الخوارزمي بمؤلفاته هذه في الرياضيين ممن جاء بعده ولا سيما الخيام وليوناردو فيبانوجي والمعلم يعقوب الفلورنسي. فبحث ليوناردو في ستة انواع من المعادلات الجبرية من الدرجة الرابعة التي ذكرتها كتب العرب الرياضية . ونجد في كتاب الجبر للخيام ، وهو الكتاب الذي يعد علمياً ارقى من كتاب الخوارزمي، حلولا جبرية وهندسية لمعادلات من الدرجة الثانية مع تصنيف متقن للمعادلات ذاتها .

وشملت الحركة العلمية في العصر العباسي العلوم الطبيعية ولا سيما الكيمياء اذ شتغل العرب بالكيمياء وانكبوا عليها للعثور على حجر الفلاسفة واكسير الحياة للتوصل الى الثراء . فضربوا في عرض

المادة وطولها يقومون بشتى انواع التجارب . وفي اثناء اشتغالهم هذا عثروا على حقائق وامور علمية كثيرة خلدت لهم ذكراً طيباً في عالم العلم. ومن أهم ما قدموه الى العالم عند اشتغالهم بالكيمياء طريقة التجارب العلمية وبذا تفوقوا على اساتذتهم الاغريق الذين اقتصرت استنتاجاتهم على التكهن والحدس غالباً . فكانوا دقيقين في استخراج الحقائق صبورين على جمعها .

وكان شيخ الكيماويين وعميدهم الاكبر جابر بن حيان الكوفي الذي اشتهر في الكوفة حوالي سنة ٧٧٦ م . وبقي ابن حيان بعد الرازي حجة في الكيمياء مدة طويلة. وتدل بعض الاخبار على انه درس هذه الكيمياء على الامام جعفر الصادق والامير الاموي خالد بن يزيد وبعد ان درس المعلومات الكيماوية الموجودة في عصره تابع ابن حيان تجاريبه ودراسته فارضاً ان المعادن القلوية كالتنك والرصاص والحديد والنحاس بالامكان قلبها الى ذهب أو فضة بواسطة مادة غامضة مافتئ الكيماويون يجدون في طلبها . وبنجاحه في ابتداع طريقة التجاريب وتنظيمها توصل الى كثير من الحقائق الكيماوية وكشف عدة مركبات كيماوية منها طريقة استحضار حامض الكبريتيك وحامض الآزوتيك . وكان يعرف طريقة مزجهما واستخراج ماء الملوك من ذلك لأذابة الذهب والفضة وبعض المعادن الاخرى . ومما قدمه الى العلم الحديث ايضاً أنه وصف العمليتين الكيماويتين المعروفتين وهما : التكلس والاختزال . ثم أنه أدخل التحسينات على عمليات التبخر والتصعيد والانصهار والتبلور الكيماوية والخلاصة أنه نقح نظرية ارسطوطاليس في محتويات المعادن وبقيت فكرته كذلك حتى ابتدأت النظريات الكيماوية الحديثة في .

القرن الثامن عشر :

وقد كتب ابن حيان كتباً كثيرة بقي منها اثنان وعشرون كتاباً وفقدت البقية. ومما بقي «كتاب الرحمة» و «كتاب التجميع» وكتاب « الزئبق الشرقي » وقد طبعت هذه الكتب ونشرت في اوربة. وبقيت كتبه أهم المراجع الكيماوية في اوربة وآسيا بعد القرن الرابع عشر الميلادي الى ظهور الكيمياء الحديثة .

أما سائر العلوم فقد طرق ابوابها العرب ولكن لم يبرعوا فيها كما برعوا في العلوم المار ذكرها . فقد اشتغلوا بالنبات فيما يختص بالمادة الطبية (أي تحضير الاعشاب للادوية) . وكان ممن اشتغل وكتب فيها الاطباء انفسهم على الغالب . ولم يشتغل في النبات بمنزلة علم خاص من العرب الا ابن البيطار وابن العوام في الاندلس . وليس ذلك من مجال بحثنا هذا . اما علم الحيوان فلم يذكر التاريخ اشتغال العرب كثيراً به على عهد العباسيين . ولم نرث من بين الكتب العلمية العربية في الحيوان سوى (كتاب الحيوان) للجاحظ و (حياة الحيوان) للدميري . ولا يمكن أن نعد كتاب الجاحظ كتاباً علمياً بل بامكاننا ان نعتبره كتاباً ادبياً فيه الشيء الكثير من الحقائق العلمية حول بعض الافكار التي تسوق نحو مبادىء التطور وفي محيط الحيوانات وعلم نفسها او نفسانياتها ومن العلوم عن الجاحظ نفسه انه كان يعرف كيفية استخراج النشادر (الامونيا) من فضلات الحيوانات . اما الدميري الذي نشأ في مصر فهو أعظم علماء الحيوان في العرب على الاطلاق لأن كتابه (حياة الحيوان) قد كتب بصورة علمية ادق من غيرها وأن بحوثه يمكن استنتاج الحقائق العلمية الكثيرة منها .

أما الطبيعيات فأهم ما يدونه التاريخ عن اشتغال العرب فيها في العهد العباسي هو اشتغل الكندي الفيلسوف العربي المشهور في القرن التاسع للميلاد بالبصريات فكتب كتاباً بحث فيه في الوجهة الهندسية والوظيفية (الفيزيولوجيه) من البصريات بانياً ذلك على ماجاء في كتابات أقليدس. وبقيت كاباته هذه المرجع الوحيد في الموضوع في الشرق والغرب الى ظهور كتابات ابن الهيثم بعده. أما ابن الهيثم فهو اعظم من كتب في الموضوع من العرب. وقد ولد بالبصرة سنة ٩٦٥ ونشأ في مصر على عهد الفاطميين وأهم ما كتب من الكتب العلمية في البصريات كتابه « المناظر ». وقد فقدت نسخة هذا الكتاب الاصلية غير أن ترجمته اللاتينية التي قام بها (جراره الكرموني) عام ١٥٧٢ م كان لها الاثر البين في وضع مبادىء هذا العلم ونشره في اوربة. ويعارض بن الهيثم بكتابه نظريات أقليدس وبطليموس القائلة بان العين ترسل أشعتها البصرية الى الجسم المرئي. وهو يذكر تجارب خاصة لاختبار زوايا السقوط والانعكاس. وفي بعض تجاريبه يصل الى نظريات العدسات المكبرة التي استعملت في ايطالية بعده بقرون ثلاثة.

ولم يشتغل العرب في هذا العهد بالبحث في المعادن والاحجار الكريمة الا القليل وليس في التاريخ ما يدون ذلك الا وجود ذكر خاص لكتاب « أزهار الافكار في جواهر الاحجار » الذي ألفه شهاب الدين التيفاشي في هذا الكتاب في ٢٤ معدناً كريماً من حيث اصلها وانتشارها وتفاوتها وقيمتها الطبية والسحرية. كما أن البيروني المشهور المار ذكره كان استخرج الثقل النوعي لثمانية عشر حجراً كريماً.

هنا ننهي البحث بعد أن أتينا على ذكر الحركة العلمية في العصر العباسي

بشتى نواحيها وادوارها بايجاز واسهاب . ويتضح من هـذا أن رحى الحركة العلمية في العهـد العباسي استمرت دوراتها واشتغالها ودرت بخيراتها على العقول فازدهرت بنتيجة ذلك المدنية بعد ان كثرت معاهد العلم في المستشفيات والمكتبات والمساجد والمراصد . وعمت الثقافة فتغلغلت في النفوس وخير مايدلنا على ذلك قصة ذلك الرجل البغدادي المثقف الذي مرضت ابنته تقاسي الآلام وليس عنـده من الدراهم ما يجلب لها الطبيب به. فأشير عليه بان يبيع كتبه فيخلص بها حياة ابنته فرفض ذلك ولم يفعل .

هذه هي الحركة العلمية في العهـد العباسي الزاهر وهـذه هي الثروة العلمية التي يفتخر بها العرب والمسلمون وقد قدموها الى العالم ثمرآ شهياً يانعاً بعد ان بذروها وهي بذرة صغيرة فربوها وتعهدوها وما زالوا بها حتى اصبحت شجرة عظيمة ودوحة باسقة اثمرت ثمراً شهياً للعـالم الذي تلقفها فاستطاب أكلها واستخرج بذرها فزرعها من جديد حتى بزغ فجر المدنية الحاضرة وها نحن اولاء نتمتع بثمرها في الوقت الحاضر بعد أن أبلى اسلافنا بلاءً حسناً في المحافظة عليها. جزاهم الله خير الجزاء.

المراجع

١— تاريخ العرب : فيليب حتى

٢— تاريخ التمدن الاسلامي : جرجي زيدان

٣— تاريخ المسعودي

٤— الفهرست : ابن النديم

٥ — القفطي

٦— ابن أبي اصيبعة

٧— ابن العبدي

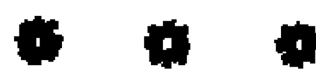
الاستاذ عبد المسيح وزير

صناعة المترجم

علمنا من المحاضرة النفيسة التي القاها في نادينا صديق النابه الاستاذ جعفر خياط بما كان للترجمة من الاثر الاكبر في نهضة العرب العلمية في العهد العباسي الزاهر ، وكيف ان هذه الصناعة الفاضلة كانت يومئذ العامل الاقوى على شيوع العلوم والمعارف في تلك العاهلية العربية العظيمة وذلك بما نقله افذاذ المترجين من الاسفار الجليلة والكتب القيمة الباحثة في الطب والكيمياء والفلك والطبيعيات والرياضيات وغيرها من اللغات الاعجمية الى لغتهم التي جعلوها اغنى لغة علمية في العالم في تلك العصور الحافلة بجلائل مآتي الاطباء والعلماء والحكماء والادباء العرب . ولا ريب في ان اهل هذه الصناعة الدقيقة الخطيرة هم الذين كشفوا الغطاء لامتهم عن كنوز العلم والعرفان الدفينة في لغات باقي الامم ، وان نوابغ المترجين انفسهم شقوا الطريق الرحبة المستقيمة الى حضارة عربية اسلامية راقية خاصة ازدهرت دهرا طويلا يوم امست سابقاتها اثراً بعد عين ، فعلا شأن الامة العربية دون سائر الامم المتمدينة التي باتت حينئذ تتخبط في دياجير الجهل والغباوة .

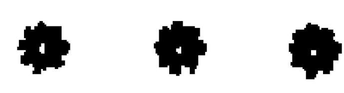
فالترجمة والمترجمون كانوا — ولا يزالون — عماد كل نهضة علمية ثقافية قائمة على ناموس تفشي الثقافات باقتباس كل امة مما عند غيرها من

عناصر العلم والفن والحكمة والادب فضلا عن عناصر السلوك والعادات وغيرها . لذا نرى التاريخ العربي قد خلد اسماء اعلام المترجمين امثال حنين بن اسحق وعبد الله بن المقفع وابن رشد وغيرهم وستظل اسماء اولئك المترجمين النوابغ خالدة ابد الدهر ما دام الانسان باقيا بحضارته على وجه البسيطة . ولو ان مترجموا العرب عنوا مع ترجمتهم الكتب العلمية والفلسفية بترجمة الآثار الادبية الخالدة من اليونانية وغيرها فترجموا «الياذة» (هوميروس) و« اوذيسة » ومسرحيات (صفوقليس) و (ارستوفانيس) وغيرها من الملاحم والعلوات الجليلة الخطيرة على ما فعله عبد الله بن المقفع المترجم المعظم بنقله كتاب «كليلة ودمنة » من الهندية الى العربية لكان للادب العربي والشعر العربي من الشأن الرفيع غير شأنه اليوم . ولكنهم طيب الله ثراهم لم يفعلوا ذلك فظلت النهضة العربية الثقافية عرجاء في رجلها اليمنى .



ثم انه نظراً الى ضعف الامة العربية ضعفاً سياسياً من جراء الانقسامات الداخلية والحروب الاهلية ، ونظراً الى فقدان العرب استقلالهم السياسي من جراء غزوات المغول والتتر والترك انحط شأن بلادنا العلمي وانخفض قدر الترجمة في اعين العرب حتى لم يكد يبقى لهذه الصناعة الجليلة اثر يذكر في الاقطار الناطقة بالضاد الى اوائل القرن التاسع عشر اذ اخذت الترجمة بعد خمودها الطويل ترفع رأسها في عهد الخديوي محمد علي باشا في مصر وفي معاهد المرسلين الاميركيين والاوربيين في بيروت ؛ وذلك ان الطلبة الذين اوفدتهم الحكومة المصرية الخديوية لتلقي العلوم الحديثة في اوربة عادوا الى بلادهم علماء

من ذوي الاختصاص فانشأوا ينقلون المؤلفات العلميـة في شتى الموضوعات الى اللغة العربية ، وكان المرسلون الاميركيون واليسوعيون المستشرقون في بيروت يترجمون بمعونة علمـاء وادباء عرب الكتب الدينية وفي مقدمتها اسفار التوراة والانجيل الى العربية مع ترجمة ما لا يستهان به من الكتب المدرسية العلمية المتنوعة ابواب مباحثها الا ان اضعف ما في هذه الترجمات الترجمة الاميركية للكتاب المقدس ويصح القول ان القاهرة وبيروت كانتـا مهدي النهضة الثقافيـة العربيـة في ذلك العهـد ، ولا تزال هاتان الحاضرتان حتى اليوم مركزي هذه النهضة في العالم العربي ، وفيهما ازدهرت الترجمة بعض ازدهارها . اما في باقي الحواضر العربية فلم نكن لنجد اثراً يذكر لهذه النهضة ، لذلك كادت الترجمة وفنونها تكون غير معروفة فيها



ثارت الحرب العالمية تلك الثورة الدامية العظمى ، فتحركت الجيوش الجرارة وتوابعها متنقلة من قارة الى اخرى ومن قطر الى آخر ، فاسفرت هذه المعركة العامة عن تخالط الاقوام والشعوب والامم وتمازج عناصرها وكان قسط الاقطار العربية من هذه الحركة البشرية الواسع نطاقها كبيراً اذ طغى فيهـا سيل الجيوش البريطانية والفرنسية والالمانية وغيرها الجارف الجاري اليها من اوربة وافريقية وآسية

واقتضى هـذا الاختلاط والامتزاج ان يعنى الناس على اختلاف عروقهم وتباين السنتهم بتعلم اللغات الاجنبيـة ليتم التفاهم فيما بين الاقوام والشعوب المتلاحمة في الوغى والمتلاقية في دور الحرب . اما العرب الذين اجتاحت الجيوش البريطانية الجرارة وحواشيها جانباً

كبيراً من بلادهم الواسعة فأقبلوا ايما اقبال على تعلم اللغة الانكليزية ليستطيعوا التفاهم مع البريطانيين في المعاملات الكثيرة المتشابكة التي كانت جارية بين الفريقين فيما يتعلق بالشؤون العسكرية والسياسية والتجارية وغيرها

* * *

وبعد ان وضعت تلك الحرب الضروس اوزارها طفقت الامور تسير في سبيل الاستقرار وتمكنت العلاقات السياسية والتجارية بين بعض الاقطار العربية (التي اصبحت دولا مستقلة) والدول الاجنبية وازدادت سرعة المواصلات زيادة عظيمة مطردة بحيث اصبح في مقدور المرء ان ينهض في طيارته صباحا من لندن فتحط به الطيارة بعد اثني عشرة ساعة في بغداد على مافعلته مسز موليسون في ابان السباق الجوي العالمي الى استرالية قبل نحو ثلاث سنوات .

وترتب على هذا التطور السياسي انشاء العلاقات السفارية المتبادلة والتوسع في التمثيل السياسي والتجاري المتبادل . اما تقصير الزمن في قطع المسافات الطويلة وتوفير اسباب الراحة في السفر فسهل تسهيلا جد كثير شؤون السياحة . فهذه العوامل السياسية والتجارية والآلية عملت على استمرار اختلاطنا بالاعاجم بعد الحرب فصرنا نسوح في البلاد القريبة والبعيدة وصار غيرنا يسوح في بلادنا . وايضاً ادت هذه العوامل الى تحول اجتماعي تدريجي والى نهضة فكرية بدت في ظاهرات تربوية وثقافية عنيفة ، لان مع التحول في طرز الحياة والتطور في النظر الى الامور اتسع نطاق التعليم بنسبة جد كبيرة لم يعهدها العالم العربي من قبل فكثرت المدارس حتى اصبحت تعد بالالوف وبعد طلبتها عشرات الالوف وربما بالملايين وشد طلبة العلم رحالهم الى الاقطار الاوربية

والاميركية لارتشاف رحيق العلوم والفنون والآداب من جامعاتها المشهورات . فالحرب العالمية المدمرة على كثرة مساوئها كانت بالذات وبالواسطة عاملة على تفشي الثقافة في العالم ولا سيما زيادة هذا التفشي في الاقطار العربية . وترتب على ذلك نتيجة لازمة وهي الاقبال على الترجمة وازدهار هذه الصناعة الرفيعة التي شرطها الاول الدقة التامة ازدهاراً تشوبه غضاضة لا بد من مكافحتها . فالترجمة في عهد محمد علي الكبير وفي دورها الذهبي في بيروت على ضيق نطاقها كانت في اعتقادي اصح مما هي عليه اليوم واقوم عوداً . اما الآن فنرى الروح التجارية دابة في كل ناحية من نواحي الحياة حتى في دولة العلم والادب لذلك نرى المؤلفين والمترجمين يعنون بتحبير بضاعة القلم بحيث تتهيأ للسوق بسرعة فهي على غرار البضاعة اليابانية وان لم تكن كاسدة . وقد اسميت ثمرات هذه النزعة وهذا الجهد في معرض البضائع العلمية والفنية والادبية «بادب الجازباند» والذي يتناوله بحثي في هذه المحاضرة الترجمة وحدها — الترجمة التي قد يصح ان اقول فيها انها ادق صناعة فكرية ثقافية ، ولا ريب في انها من ادق الصناعات الفكرية والثقافية واجلها شأناً فلنبحث فيها : —

قال شاعر عربي لا يحضرني اسمه :

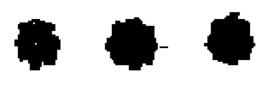
« لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها »

واقول في الترجمة لا يعرف انسان حلو الترجمة ومرها الا من يعانيها فهي صناعة وفن في غاية الدقة ، والمترجم كالشاعر والاديب والمصور والموسيقي والفيلسوف والرياضي والمهندس مخلوقة قابليته معه لا مختلقة . هذا فضلا عما تقتضيه له صناعته من الاطلاع الواسع مع العلم الغزير بلغته واللغة .

التي ينقل منها او اليها ، والمترجم الحقيقي فيه ذوق الفنان ودقة الرياضي واطلاع المؤلف وليس كل من نقل نبذة او كتاباً من لغة الى اخرى عد مترجماً بل المترجم هو الرائز الفرد والمهندس النابغة — رائز اللغة التي ينقل اليها ومهندس صرح الافكار التي يصبها في قوالب الكلام. اما الذي يترجم وهو ليس بمترجم حقاً فيجني على المؤلف الذي ينقل تأليفه وعلى القارئ الذي يطالع ترجمته ويشوه الثقافة التي يريد افشاءها ويفسد العلم الذي يبغي نشره . ولكن ، وباللاسف ، ما اقل الذين يفهمون صناعته ويقدرون قدره ولاسيما في الاقطار العربية التي اخذت على العموم تنظر الى المترجم نظرها الى الجيش اللجب من التراجمة الذين استخدمتهم الجيوش الغازية لانجاز معاملاتها مع سكان الاقطار المحتلة حتى شاع الاعتقاد ان المترجم هو الترجمان الذي يتوسط بين رجال العسكرية و «متعهدي» الارزاق او الدليل الذي يرافق العسكر في الاسواق ، واعتبروه في دوائر الدولة ذلك الكاتب البسيط صاحب الالمام الطفيف بلغته واللغة التي يترجم منها فينقل رسائل «عطفاً على كتابكم المرقم كذا والمؤرخ كذا» ولكن الذي يغتبط به كل مترجم الحركة الاخيرة التي بدت في اوربة وفي مصر من تقدير المترجم قدره ورفعه الى منزلة دونها منزلة المؤلف . فقد نشرت امهات الجرائد والمجلات الغربية مقالات ضافية في التنويه بفضل المترجمين . وصرحت المحاكم المصرية قبل مدة ان المترجم عضو خطير في دوائر الدولة وعقدت المجلات والجرائد المصرية على اثر هذا التصريح الفصول الطوال في التنويه بمنزلة المترجم السامية والاشادة بفضل صناعته الدقيقة وبحث نادي القلم الاممي في مؤتمره الذي عقده قبل سنتين في بونس ايرس في فضل الترجمة وضرورة العناية بها

قال الشاعر المترجم الانكليزي الكبير السر جون دنم (Sir John Denham) « لا يصلح للترجمة الا نابغة النوابغ » . وهذا المترجم الذي عاش في النصف الاول من القرن السابع عشر صادق في قوله لان الترجمة تقتضي من الوقت والعناء والدقة وبراعة الصناعة وفنون البيان اضعاف مايقتضيه التأليف

والمترجم اطول باعا في فنون التعبير ودقة الانشاء وديباجته من المؤلف لان المترجم القدير الامين ينقل الى ذهن قارئ الترجمة الانطباعات التي احدثها الكتاب الاصلي في اذهان قراء اللغة الاصلية المنقول منها الكتاب المترجم فهو ينقل من ذهن الى ذهن آخر وذلك ليس بلغة اخرى فحسب بل في عالم آخر يختلف عن العالم الاول الاختلاف كله . ثم ان المؤلف يطلب منه اتقان لغة واحدة هي لغته وحدها ولكن المترجم محتوم عليه ان يتقن اللغة التي يترجم منها مع اتقان لغته . هذا فضلا عن كون المؤلف حراً طليقاً في التعبير عما يشاء وكتابة ما يريد لان الافكار افكاره ، له ان يسكبها في القالب الذي يريده ويلبسها الثوب الذي يريده . اما المترجم فمغلول اليدين فيما ينقله من لغة الى اخرى لانه ينقل فكر غيره وعليه ان يكون اميناً بارعا في صحة النقل . وايضاً يختار المؤلف نفسه الموضوع الذي يكتب فيه ولكن موضوع الكتابة مفروض فرضاً على المترجم وليس له ان يحيد عنه قيد شعرة . والمؤلف عليه تبعة جمهرة قراء واحدة غير اننا نرى التبعة الواقعة على عاتق المترجم ذات وجهين وهما اولا تبعته ازاء المؤلف وثانياً تبعته ازاء قراء مايترجمه . والا نكى ان المؤلف يتمتع بشهرة واسعة بانتشار كتابه اما المترجم فيظل ذكره خاملا بالنسبة الى شهرة المؤلف



ثم ان اختصاص المترجم يحتم عليه ان يفهم المؤلف الذي ينقل تأليفه فهما متقناً فلا يكتفي بتفهم الفاظ ذلك المؤلف بل عليه ان يفهم نزعته العقلية والافكار المتغلغلة في ذهنه والغاية التي يرمي اليها فيما يكتبه . ولكي يتسنى له هذا الفهم الدقيق لابد من ان تتوفر فيه مزايا من اعلى مرتبة وهي ان يكون ذا هبة ادبية تداني لا بل تساوي هبة المؤلف ذاته على ان يتفوق على المؤلف كثيراً بسعة الاطلاع مع اصالة الرأي وذلك ليس في انتقاء الالفاظ وحده بل في تعيين مدى تصرفه في الترجمة . وبعد ان يتفهم المترجم المؤلف الذي ينقل عنه (وليس هذا التفهم بالامر السهل احيانا) عليه ان ينقله الى اللغة الاخرى نقلا صحيحاً دقيقاً اما بحرفه واما بمعناه لكي لا يعسر على مطالعي الكتاب المترجم فهمه. فاصالة الرأي في التوازن بين المعنى واللفظ سر صناعة المترجم كله .

واحياناً لابد من ايضاح بعض التلميحات او العبارات لقراء الترجمة او بالاحرى ترجمتها بالتعبير المعروف في اللغة التي ينقل اليها الكتاب المترجم والا جاءت الترجمة غير مفهومة اذ انقلبت العبارة بنصها الحرفي .

واروي للقراء هنا حادثة ترجمة فكهة حدثت لي وهي انه طلب مني يوما ان اصحح ترجمة وثيقة خطيرة . وفي ابان التصحيح عثرت على العبارة التالية في نبذة باحثة في تحديد حدود البلاد : «كما يطير الغراب» فهنا ترجم المترجم العبارة الاصطلاحية الانكليزية «as the crow flies» ترجمة حرفية غير عارف معناها الصحيح وهو « على خط مستقيم » او « تواً » . واتذكر اني طالعت يوما في جريدة ترجمة برقية في مقتل المفوض الاميركي في ايران قبل عدة سنوات اذ ترجم المترجم هذه

العبارة الانكليزية : «Autopsy has proved» فقال « لقد شهد المستر اوطوبسي » ولا يخفى انAutopsy معناها « فتح الجثة » في الطب العدلي . وقد روى الدكتورمالكوم بر(Dr. Malcolm Burr)المترجم الانكليزي المشهور في مقال ممتع في الترجمة (استعنت ببعض مافيه في اعداد هذه المحاضرة) النادرة الفكهة التالية وهي ان مترجما ترجم قصة روسية جاء فيها ان مجنونا طفق يعدو في قرية ويصرخ « ان الله يزرع توتا خداشاً (God sows raspberries) ولكن المترجم لم يفهم المراد بهذا التعبير في قرى سيبيرية . ففي سيبيرية يكثر نمو هذا التوت البري في الاراضي المحروقة . فالمراد بهذه العبارة هو ان القرية كانت مهددة بحريق في الغابة .

وقبل سنوات نشرت مجلة في بغداد اشتهر صاحبها ومنشئها في العالم العربي بكونه علماً من اعلام اللغة العربية واشتقاق مفرداتها مقالا طويلا يبحث في ضرورة الالعاب الرياضية للامة وفي معرض البحث استشهد الكاتب بولع الانكليز بالرياضة البدنية فقال انشغف الامة الانكليزية بالالعاب الرياضية حملها على تخصيص يوم جعلته عيداً قومياً سمته « يوم الملاكمة » . ونشر الكاتب الاصل الانكليزي مع هذه العبارة وهو (Boxing day) ! ولكن المسكين فاته ان المراد بهذا اليوم ليس « يوم الملاكمة » بل « يوم الهدايا » وهو عند الانكليز اول يوم في الاسبوع بعد عيد الميلاد يقدم فيه اصحاب البيوت الهدايا الى مستخدميهم وسعاة البريد وغيرهم . فنبهت حينئذ صاحب تلك المجلة على غلطته الفاحشة فاصلحها معتذراً في العدد التالي من مجلته .

وترجم اديب مصري « كبير » قصة قال في اولها على ما اتخطر « اني

شغف بحبك من الغلاف الى الغلاف » ومع اني لم اقف على الاصل الفرنسي الا ان الذي اعتقده ان المراد بهذا ان ذلك العاشق شغف بحب معشوقه الشغف كله . ومن المضحك المبكي ان عالمين كبيرين من اساتذة احدى الجامعات ترجما كتابا في التاريخ العام نشرته المطبعة الاميركية في بيروت فعربا اسم مدينة الحمراء الاندلسية المعروف في اوربة باللفظة « Alhambra » باللفظة « الهمبرا » وهي مثبتة في تلك الترجمة حتى هذه الساعة !

وقس على هذا كثيرا من الخلط والخبط في الترجمة مما ينم على جهل المترجم وعلى كونه غير اهل لهذه الصناعة الدقيقة .



وعلى المترجم ايضاً ان يعبر باللغة التي ينقل اليها من العبارات التي تستحيل ترجمتها بعبارات تقابلها او بالاحرى ان يشرح تلك العبارات المغلقة على الترجمة شرحا وافياً يقربها من افهام القراء .

غير خاف عليكم ان في كل لغة افكارا اوصور ذهنية للذين يتكلمون بتلك اللغة يستحيل نقلها نقلا تاماً الى لغة اخرى . فالكلمة «Gentleman» والعبارة الانكليزية « Common sense » والكلمة « Sport » الانكليزية قد اعيت كل مترجم وكل كاتب حتى اليوم لان لكل منها معنى خاص في ذهن الانكليز . وقد حاولت ترجمتها على ترتيبها بالكلمات « فتى » و « فطانة » و «اريحية » ولكنها لا تزال بعيدة عن معناها الاصلي .

وفي لغتنا العربية ذاتها كثير من الالفاظ والعبارات التي تدل على معاني خاصة تستحيل ترجمتها كالكلمة « اعتقد » فمعناها ان يعلق

الانسان بابه على نفسه فلا يسأل احداً حتى يموت جوعاً . فواجب المترجم في مثل هذه المواقف ان يفسر ما يترجمه لكي يستطيع الترجمة . ونعثر على كتب مهما سعى المترجم لاتقان ترجمتها لا يستطيع ان ينقل من معناها الاصلي الى اذهان قرئه سوى النصف او ثلاثة الارباع ولا سيما في الترجمة من اللغات الاوربية الى اللغة العربية . فروايات شكسبير مثلا نجد على رأي العارفين ان اقرب ترجمة اليها هي الترجمة الالمانية ومع ذلك تقصر الترجمة الالمانية عن الاصل مراحلُ ، فكم بالحري ترجماتنا العربية التي قد لا يكون فيها مما يريده شكسبير سوى العشر !

ولكن بين العبارات والكلمات الخاصة في اللغات الشيء الكثير الذي يترجم الى لغة اخرى بما يؤدي معناه او يكاد يقابله

ففي شعبة الترجمة عندنا في وزارة الدفاع قد اوصيت كل مترجم ان لا يترجم كلمة او عبارة ما لم يفهم معناها حق الفهم . فجاءني قبل بضعة ايام مترجم بالعبارة الانكليزية التالية (nip it in the bud) . فترجمة هذه العبارة الحرفية هي « اقطفها وهي برعمة » اما العبارة التي تقابلها في العربية فهي « اخنقه في مهده » . ومع شدة التقارب بين المعنيين لا يزال فرق كبير في صورة التشبيه الذهنية . فالاولى برعمة تقطف قبل ان تتفتح عنها الاوراق والثانية طفل يخنق في المهد . ولا ريب في ان الفرق ظاهر .

فضلا عن اتقان المترجم اللغة التي ينقل منها عليه ان يتقن لغته او اللغة التي يترجم اليها كذلك ، فان لم يكن ضليعاً من اللغة التي ينقل اليها وواقفاً على اسرار معانيها وتعبيرها لا بد من انتهاء مساعيه الى خيبة مزرية يجني فيها على مطالعي ترجمته . وعليه مع هذا ان يلم بالموضوع

الذي يترجمه فاذا لم يكن ملماً بما يترجم جاءت ترجمته ناقصة مضرة.

وكثيراً ما وجدت المترجمين لا يعنون بالتفريق بين معاني الكلمات الدقيقة حين ترجمتها بحيث تضل المطالع ضلالا شائناً . فلنأخذ مثلا الكلمات common و usual و ordinary و normal فاغلب المترجمين لا يفرقون بين معاني هذه الكلمات حين ترجمتها الى اللغة العربية فنراهم يترجمونها بالكلمة « اعتيادي » والافظع انهم يترجمونها بالكلمة « عادي » ولكن معاني هذه الكلمات حسب ترتيبها « شائع » و « دارج » و « اعتيادي » و « سوي » ولا يتسع المجال هنا لابسط الفروق الكبيرة التي بين معانيها . ثم لنأخذ الكلمتين « eagle » و « Vulture » فالمترجمون يخلطون في ترجمة هاتين الكلمتين فيترجمون « eagle » بالكلمة « نسر » و « Vulture » بالكلمة « عقاب » مع ان الترجمة يجب ان تكون بالعكس وقس على هذا كثيراً

ان ترجمة الكتب العلمية الباحثة في الطبيعيات والكيمياء والهندسة والرياضيات والطب والحيوان اسهل من غيرها فيما بين اللغات الاوربية ولكنها جد صعبة الى اللغة العربية لخلوها من معظم المصطلحات العلمية وفي هذه الترجمة من الخلط والخبط والبلبلة ماينَدى له جبين العربية خجلا لان الاستهتار يؤول الى العبث بالترجمة وبموضوع الكتاب عبثاً معيباً .

ولا بد من الاستطراد هنا الى القول بان القاموس او معجم اللغة الد اعداء المترجم . لقد سبقت فجئت بمثال على المترجم الذي ترجم « كما يطير الغراب » بينما كان عليه ان يكتب « على خط مستقيم » او « توا » . فهذا المترجم اعتمد على قاموسه فخانه . ولكن اصدق اصدقاء المترجم صاحب الاختصاص الذي يفهمه معنى المصطلح المطلوبة ترجمته او الكتاب

العلمي الدقيق الباحث في موضوع ذلك المصطلح فالى هذين المصدرين يلجأ المترجم الامين القدير متى اشكل عليه فهم المصطلح الذي يحاول ترجمته

* * *

ولا ريب في ان اخطر ما يترتب على المترجم توخيه في ترجمته ان يفقه مدى تصرفه في الترجمة ـ مدى تمسكه بالاصل ومقدار ما يضحيه من النقل الحرفي ضناً بالترجمة التي يتفهمها قارئوه ومراعاة للوضوح مع الاحتفاظ بالمعنى . وهذا لا يسيطر عليه قاعدة بل منوط حتماً بذوق المترجم وفطنته . وهنا تظهر مقدرة المترجم وفي هذا المجال يتجلى نبوغه في صناعته . فكم من المعاني الجميلة والافكار الجليلة ذهبت ضحية الحرف واللفظ من جراء ضعف المترجم واقدامه على مزاولته فن ليس من اربابه . فشهرة المؤلف ومقدرته تحت رحمة ذوق المترجم وفراسته في النقل . فاذا قصر المترجم في هذا المضمار ظلم المؤلف وسود صفحته في عيون قراء اللغة الغريبة التي نقل ذلك المترجم الظالم مؤلفه اليها . لقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة فخلد بيدبا أبد الدهر ، وترجم فتزجرالد رباعيات عمر الخيام فعرف العالم بواسطته عمر الخيام وشغف الناس بشعره . ففضل خلود مؤلف كليلة ودمنة الهندي ومؤلف الرباعيات الفارسي فضل المترجم البارع .

* * *

لايخفى على الذين خبروا فنون الترجمة واساليبها ان اصعب الترجمة ترجمة الشعر والادب وتليها في الصعوبة ترجمة المؤلفات الفلسفية والتاريخية فترجمة الكتب الفنية والصناعية . ولا غرو في ان الترجمة

من اللغات الاوربية الى اللغة العربية اصعب من الترجمة من العربية الى تلك اللغات وذلك نظراً الى اتساع نطاق التعبير في اللغات الاوربية كالانكليزية والفرنسية والالمانية . فاذا حاول المترجم ترجمة نبذة من العربية الى الانكليزية مثلا يجد امامه اداة اللغة مهيأة للتعبير عما ينقله الى تلك اللغة . اما متى حاول الترجمة من الانكليزية الى العربية فيرى نفسه قاصراً عن ترجمة كثير من المصطلحات والعبارات لان اللغة العربية جمدت بعد العهد العباسي بينما باقي اللغات تطور مع الزمن وارتقى فلا بد للناقل الى العربية من مصطلحات وعبارات كثيرة ليعبر بها عن المعاني الجديدة التي يصعب حصرها ولا سيما التعبير عن المعاني المجردة اما ترجمة المعاني التي تعبر عنها اسماء الذات فسهلة بالنظر الى تلك .

* * *

نحن الآن في بدء نهضة علمية ثقافية وشأننا فيها شأن باقي الامم وذلك ان يكون جل اعتمادنا في نهضتنا العلمية الثقافية على الترجمة الصحيحة الدقيقة لان بيننا وبين اوربة واميركة مراحل كثيرة في هذا المضمار العلمي الثقافي . ولكن الذي يؤسف له اننا لم نحلل الترجمة حتى الآن محلها الارفع لاسباب ربما كان اخطرها العامل الاقتصادي . فان ناشري الكتب والصحف لا ينفقون ما ينبغي لهم انفاقه في سبيلها . فالترجمة على ماسبق بيانه فن دقيق فيه مجال وسيع للبحث والتنقيب ولا سيما في النقل الى اللغة العربية التي يحتم علينا واجبنا نحو لغتنا ان نجعلها لغة تصلح للتعبير عن كل معنى قديم او حديث وان نجعلها تسير مع الزمن بصفة كونها اداة لنشر العلم وتفشي الثقافة . اما اذا غمطنا حقها كان سيرنا في سبيل الرقي العلمي والنشوء الثقافي بطيئاً وكان نتاج قرائحنا من حيث الابتكار والابداع ناقصاً فطيراً

اقف عند هذا الحد في حديثي وساعد في فرصة اخرى نبذة في اساليب الترجمة بعنوان « كيف اترجم » وهي خواطر قد تكون قواعد لاتخلو من فائدة لعلي استطيع بذلك ان افيد النازعين الى هذه الصناعة الدقيقة بعض الفائدة .

المعروض الذي رفعه

مؤسسو نادي القلم العراقي

الى الحكومة لتأسيسه

فخامة وزير الداخلية المحترم

نحن الموقعين أدناه نرغب في تأسيس ناد مركزه في بغداد بأسم «نادي القلم» وترفق بطيه نسخة من نظامه الاساسي وقد وضح الغرض من انشاء هذا النادي في المادة الثانية منه وعليه نرجو التفضل بمنح الاجازة اللازمة لذلك .

١٩٣٤/١٠/٢٤

محمد رضا الشبيبي

متى عقراوي   محمد فاضل الجمالي   عبدالكريم الازري

رفائيل بطي   المحامي عباس العزاوي   ابراهيم حلمي العمر

علي الشرقي   باقر الشبيبي   عبدالمسيح وزير   أمت سعيد

عبدالجبار الجلبي

النظام الاساسي لنادي القلم

المادة الاولى — يؤسس في بغداد ناد يسمى (نادي القلم) لادخل له في السياسة

المادة الثانية — غاية النادي تعارف المؤلفين وحملة الاقلام في هذه البلاد واحكام الروابط بينهم وتعزيز الادب العربي وتعضيد البحث وايجاد الصلات بين حملة الاقلام في العراق وبين امثالهم في البلاد الاخرى .

المادة الثالثة — يقبل عضوا في النادي من كانت له شخصية ادبية او علمية وذلك بان يقدم طلباً الى رئيس النادي على ان يزكيه اثنان من الاعضاء ويجري قبوله بموافقة اكثرية الحاضرين في جلسة قانونية يعقدها المجلس العام وذلك بالرأي الخفي ويشترط في العضو ان لايكون دون العشرين من عمره ولا ساقطاً من الحقوق المدنية .

المادة الرابعة — للنادي مجلس عام يتألف من جميع المنتمين اليه ولجنة ادارية ينتخبها المجلس المذكور بالرأي الخفي وبالاكثرية المطلقة لمدة سنة واحدة في خلال كانون الاول .

المادة الخامسة — تتألف لجنة النادي الادارية من رئيس ونائب رئيس وكاتم سر وامين صندوق وثلاثة اعضاء . ويمثل الرئيس النادي امام الحكومة وغيرها .

المادة السادسة — تتكون مالية النادي من رسم الانتماء ومخصصات الاعضاء الشهرية والتبرعات والاعانات واذا انحل النادي فتؤول ممتلكاته الى المكتبة العامة .

المادة السابعة — لايجوز تغيير هذا النظام الا بموافقة ثلثي اعضاء المجلس العام

اصلاح الخطأ

(وقع في الكتاب غلطات لابد من التنبيه عليها ولا سيما في مقال الاستاذ الازري نظراً الى غيابه عن بغداد حين طبعها فنأسف لوقوعها ونؤمل ان لا يقع غلط مطبعي في المجموعة الثانية .)

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	٧	أن	إن
١٨	٤	الرؤية	الروية
١٩	٢٠	الطربق	الطريق
١١	٢٠	مالو	مالوا
٢٢	١٢	قساد	فساد
٢٨	١٢	المسيربا	الهستيريا
٣٥	١١	االذات	الذات
٦٦	٢١	Abunduce	Abundance
٧٢	٢	يحتاجها	يحتاج اليها
٧٣	١٠	بقدر	يقدر
٦١	٣	في التفكير وتأثيرها الاقتصادي	وتأثيرها في التفكير الاقتصادي
٦٢	١٠	آرائه	في آرائه
٦٣	١٥	الخطط	الخطوط
٦٤	١٢	كادت	كانت

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٤	١٨	على	هي
٦٤	١٩	وكفايتها معظم	وكفايتها لسد معظم
٦٦	٥	الاقتراحات	الاختراعات
٦٧	٧	عرف	عرفوا
٧٢	١١	للسكان	لسكان
٧٢	١٦	Tnagedy	Tragedy
٧٥	١٠	ادهى	اوهى
٧٥	١٤	اذن	اذ
٧٨	٨	تتطلب	تتطلبها
٨٢	٥	فالشلل	او الشلل
٨٢	٢١	(٣٠٠) مليون	(٣٠٠) الف مليون
٨٥	١٣	الشرائية	القوة الشرائية
٨٥	١٩	رئيسية	الرئيسية
٩٠	٢	وهذا السبب	وهذا هو السبب
٩٥	٥	شركات	الشركات
١٠٠	١٦	اهدفا واهدافاً	هدفاً او اهدافاً
١٠٠	١٩	مذهباً كان له	مذهباً له
١٠٣	٧	وتسير	وتسيير
١٠٥	٨	يجابهها	تجابهها
١٠٥	١١	هيكل الدوسية	هيكل الدولة البروسية
١٠٥	٢٠	في جعل فكرة الدولة بسيطة	في تبسيط فكرة الدولة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٨	١	اثبت تاريخها	ثبت تاريخياً
١٠٨	٦	سنة	نسبة
١١٠	١٥	الكتابة	الكتابان
١١٠	١٦	ذكرها	ذكرهما
١١١	٢٠	ذلك الخطأ	ذلك والخطأ
١١١	٢٠	فيه . هو	فيه هو
١١٢	٥	المفكر نحو	المفكر على نحو
١١٢	٢٢	الافكار	افكار
١١٣	١	العامة	السوقة
١١٧	٣	هذا يجب	هذا الا انه يجب
١١٧	١٠	ارادته	اراداته
١١٧	١١	العاملة	العاقلة
١١٩	٣	يخضع عمالنا	تخضع اعمالنا
١٢٠	١٥	زائل	بعضها زائل
١٢١	١٠	ارادتنا	إراداتنا
١٢٤	٥	آخر.. لايلغي	آخر لايلغي
١٢٦	٥	Sudjeative	Sudjecive
١٢٨	٢٠	الاحيان ؟	الاحيان
١٢٩	١	لقوانينها	قوانينها
١٣٢	٢٩	افرادها بلاطاعة	افرادها
١٣٥	٢	يفكر قضية	يفكر في قضية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٥	٦	مقتضية	مقتضبة
١٣٥	٩	من الزعماء	ومن الزعماء
١٣٦	١٦	يسير	يسير
١٣٧	١٣	يتمنى	يتمناها
١٣٨	١٤	التوراء	التوراة
١٣٨	٢٠	Tomc	Tome
١٤٠	٧	خطابه	خطبته
١٤٠	١١	الامة وصحب	الامة . وصحب
١٤٠	١٦	من بين	بين
١٤٠	٢٢	الامام	العام
١٤١	١١	سني	سنتي
١٤٢	١	يسمح للطالب	يسمح فيها للطالب
١٤٢	١	الخامسة عشر	الخامسة عشرة
١٤٢	٢٠	ادعته	دعته
١٣٩	٨	مهتين	مهمتين
١٦٤	١٩	الضرانب	الضرائب
٢٠٠	١٦	ادادية	ادارية
٢٠١	٢٠	المستشارين	المستشارون
٢٢٠	٣	المؤختين	المؤرختين
٢٢٢	١٢	تأثرها	تأثيرها

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٤	١٧	وا؟	وان
٢٧٧	٧و١٢	غالين	جالينوس
٢٨٠	١١	الغرب	العرب
٢٨١	١٧	فهرستة	فهرسته
٢٩٥	٥	مترجموا	مترجمي